لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة الفكر الحديث

كيف يعمل العقل

الكتاب الأول

تأليف
الأساتذة . بيرت . جونز
ميلر مودى
تعريب
الدكتور رياض عسكر

العدد التاسع

١٦ ص

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

نقدم إلى القراء فى هذا الكتاب سفراً نفيسا أخرجه إلى جمهور القراء نخبة من أكبر علماء النفس البريطانيين، وتقاسموا موضوعاته تبعا لاختصاص كل منهم، فجاء بذلك عمدة ثقة . ومما يحبب ذلك الكتاب إلى عامة القراء أنه لم يكتب للمتخصصين ، بل ألقيت موضوعاته فى الأصل فى صيغة محاضرات بالإذاعة البريطانية لعامة المستمعين فخلا بذلك من المشاكل العويصة والاصطلاحات المعقدة ، وصار أسلوبه سهلا لا يحتاج إلى عناء مع مساسه بأهم المسائل التى تجول فى خاطر كل إنسان ، وتمس تفكيره ومشاعره وعواطفه وبالاختصار حالته النفسية .

ولما كانت السلسلة التى صدر فيها هذا الكتاب من حجم معين لم نرد أن نتعداه ، فقد قسمناه قسمين وقمنا بتعريب قسم منه ، وقام الأستاذ محمد خلف الله بتعريب القسم الآخر ، وراجع كل منا ما كتبه الآخر رغبة فى توخى الدقة التامة مع سلاسة الأسلوب ، فجاء بذلك جديرا بالقيمة العلمية والأدبية لهذا المؤلف .

ويجد القارئ فى هذا الكتاب الأول عشرة فصول قمنا نحن بتعريب ثمانية منها ، أما الجزء الذى عربه الأستاذ محمد خلف الله فيبدأ من الفصل التاسع ويستمر حتى نهاية الكتاب الثانى .

وإنا لنرجو أن يسد هذا الكتاب بعض الفراغ الكبير فى ميدان علم النفس فى مصر والشرق العربى ؟

رياض محمد عسكر

الفهـــرس

صفحة

مقدمة المعرب ... ... ج

كيف يعمل عقل الراشد

بقلم سيرل برت

الفصل الأول : ٢
الفصل الثانى : دراسة الشخص لعقله ١٧

اللاشعور

بقلم أرنست چونز

الفصل الثالث : ما هو التحليل النفسى ٤٠
الفصل الرابع : قوة اللاشعور ٥١
الفصل الخامس : الأحلام ٦٣

كيف يعمل عقل الطفل

بقلم ايمانويل ميلر

الفصل السادس : ما يبدؤ به الطفل ٧٨
الفصل السابع : الحظيرة العائلية ٩٢
الفصل الثامن : مخاوف الأطفال ١٠٣
الفصل التاسع : الغريزة والعادة ١١٦
الفصل العاشر : الطفل فى لعبه ١٢٦

كيف يعمل عقل الراشد

الشعور

بقلم

الأستاذ سيرل بيرت

M. A. و D. Sc.

أستاذ علم النفس بجامعة لندن

الفصل الأول

هل منا من لم تتق نفسه ، وقتاً ما ، لاستطلاع ما يدور بعقل زميل له ولو كلفه ذلك ثمنا باهظا ، يدفعه عن طيب خاطر ؟ خذ مثلا لاعب البوكر ، المجازف بماله ، وصاحب الدكان الذى يحاول إغراء الشارى بشراء بضاعته ، والموظف الذى يراود نفسه بمفاتحة رئيسه ، فى شأن زيادة مرتبه ، والمحلفين بالمحكمة ، حين ينظرون نظرة المستطلع النهم ، إلى المتهم بالقفص ، ألا تراهم كلهم يودون مثلنا أن يستطلعوا خفايا عقول رفاقهم من بنى البشر ، ودوافعهم النفسية ؟ والحقيقة أنه لا يوجد من يستطيع البقاء فى مجتمع ما ، من غير أن يهتم بتفهم عقول أفراده .

فماذا تفعل إذن ، حين تحاول أن تقدر شخصا قابلته لأول مرة ؟ وما الوسائل التى تستخدمها فى ذلك ؟ لا شك أنك ستحدق النظر فيه ، أولا لتدرس مظهره الخارجى ، ولتلاحظ سلوكه ، وهذا ما يسميه العلماء طريقة الملاحظة . وهى طريقة صحيحة على شريطة أن تكون منتظمة ، وأن تطبق بجد واهتمام . ما هى إذن العلامات والمظاهر التى تعتمد عليها أكثر من غيرها ؟ ستختلس طبعا ، كما يفعل شرلوك هولمز ، نظرة سريعة إلى وجهه ، من عين نصف مغمضة . ثم تمعن النظر فى ملابسه وحذائه ، وتجيل بصرك فى بزته ، من غير أن تفوتك ملاحظة خاتم الزواج بأصبعه ، أو ابتسامته ، التى تنم عن اضطرابه ، أو أصابعه المصفرة من أثر التدخين ،

إلى غير ذلك مما لا تفوتك ملاحظته . حتى إذا ارتاح واطمأن إليك ، صوبت إليه بضعة أسئلة ، بسيطة المظهر ، عميقة المخبر ، ثم أنصت إلى إجابته ، منتبها لما يرمى إلى إقناعك به ، من صراحته وحكمته ، ولا تفوتك طريقة اختياره لألفاظه ، واللهجة التى يعبر بها عن نفسه ، ونبرات صوته التى تنم عن تلطفه . وبناء على كل تلك التفاصيل الكاشفة ، التى سرعان ما يصنفها عقلك ، ويوازن بينها ، تصدر حكمك النهائى عليه ، وتقرر رأيك فيه .

تلك إذن هى المظاهر الخارجية ، التى تعتمد عليها ، بوجه عام . ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية : المظهر الجثمانى ، وتعبير الوجه ، والصوت والسلوك العام .

دعنا الآن ندرسها واحدا واحدا ، لنعرف إلى أى حد يمكن الاعتماد على كل منها ، ومقدار الثقة التى يصح وضعها فى مثل تلك الأحكام العاجلة . ولنبدأ بالمظهر الجثمانى ، فنسأل أنفسنا السؤال الآتى وهو :

أنستطيع إصدار أى حكم أكيد ، على خلق شخص ، من النظر إلى بنيته أو شكل جسمه ؟

هناك قول قديم فى هذا الموضوع ، ومع أنه أهمل منذ زمن بعيد ، فإن التجارب الحديثة قد أثبتت أنه كان حدسا ماهرا . لقد سمعنا كلنا عن النظرية العجيبة ، نظرية الأمزجة . فكانت كلمة مزاج تعنى عند القدماء سائلا أو عصارة ، وكان يظن أن للسوائل التى بالجسم وظيفة مزدوجة ، فهى من ناحية ، تؤثر فى نمو الجسم ولون البشرة ، ولون الشعر ، ومن ناحية أخرى ، تؤثر فى طبيعة الخلق ، بتنشيط أنواع معينة من الميول ، والحالات النفسية الوقتية . وهكذا نشأت الفكرة القائلة إن الأمزجة

النفسية ، نتيجة للسوائل التى بالجسم ، واستخلص من كل هذا أربعة أمزجة . فالبلغم يؤدى إلى مزاج بلغمى ، ويتميّز صاحبه ، بجسمه القصير الممتلىء ، وبشرته الباهتة السميكة . والدم ، يؤدى إلى مزاج وشكل دمويين ، ويتميز صاحبه ، برفع القوام ، والشعر الأحمر ، والبشرة المحمرة ، ومن طبعه التفاؤل والسرور . والصفراء تنتج مزاجا صفراويا ، وصاحبه مصفر البشرة ، وشكله كهيكل الميت . والسوداء تنتج مزاجا سوداويا حزينا ، وصاحبه قاتم اللون ، مكتئب ، ينظر إلى العالم بمنظار قاتم كذلك .

ذلك ملخص النظرية المذكورة ، ولكن ما مصدر تلك السوائل ؟ نعلم اليوم ، أن عصارات الجسم ، تأتى من أعضاء معينة ، تسمى بالغدد ، بعضها تبعث إفرازاتها إلى سطح الجسم ، كالغدد الدمعية ، وغدد العرق مثلا . ولكن هناك غددا أخرى ، ترسل عصاراتها فى مجرى الدم ذاته ، فتسير معه فى دورته . ولقد أجريت سلسلة من البحوث القيّمة ، فدلت على أن تلك السوائل وما تحويه من مواد كيمياوية ، تحدث تأثيراً يشبه تأثير المخدرات أو المسكرات ، ولها تأثير بعيد المدى على الانفعالات والنمو الجثمانى . وهكذا ثبتت لحد ما صحة نظرية الأمزجة القديمة من حيث الأساس .

ولأضرب الآن بضعة أمثلة . كلنا يعرف أن نضوج الغدد الجنسية ، عند البلوغ ، يؤثر تأثيرا كبيرا فى النمو الجثمانى ، كما يؤثر فى قوة بعض الغرائز والانفعالات . وإذا خصى المرء وهو صغير ، امتنع نموّ الشعر عنده وبقى صوته رقيقا ، كصوت الأطفال ، ونزع إلى السمنة وبدت فيه مميزات الأنوثة بوجه عام . وأوضح مثل لذلك فعل الغدة الدرقية ، الكائنة فى الرقبة ، تحت النتوء الغضروفى ، المعروف بالحنجرة ، وهى تشبه قطعة لحمية ليّنة الملمس . وقد تراها كبيرة متضخمة بشكل ظاهر ، عند بعض الناس ، فيقال

عندئذ إنهم مصابون بالتضخم الدرقى . فإذا كانت تلك الغدة شديدة النشاط كما هى الحال عند كثير من البنات الصحيحات ، فى دور البلوغ ، فإن الفرد يميل إلى التهيّج الوجدانى ، ويصبح كثير الحركة والقلق . حتى لتمكن ملاحظة تلك الأعراض فى بعض الأحيان عند أول نظرة سطحية . فبالإضافة إلى التضخم البسيط ، فى أسفل الغدة ، قد تبدو العينان كأنهما جاحظتان من شدة التأثر . ويلاحظ أن البنت التى هذا شأنها ، تكون سريعة الحركة ، تندفع فجأة من عمل إلى عمل آخر ، وتبكى أو تضحك لأقل شىء ، وهى كثيرة الثرثرة ، كما تبدو عليها غالبا آثار الهم الطويل الدائم ، من جراء مخاوف بالغة .

وعكس هذه الأعراض تلاحظ على من تكون غدتهم الدرقية خاملة أو غير كاملة النموّ . فتجدهم قصار القامة ، مكبوتى النموّ ، وجوههم وجسومهم ، كوجوه الأطفال ، ولهم بطون بارزة وشعر نام فى غير مواضعه الطبيعية ، طبعهم فاتر ، وشكلهم يدل على الغباوة ، ووجداناتهم فاترة ، وذكاؤهم دون المتوسط بكثير . وإذا اشتدت الحالة ، أصبح الشخص معتوها . وهذا هو النوع الوحيد من أنواع النقص العقلى الذى يرجى علاجه . فإذا أطعم طفل هذا شأنه ، فى سنواته الأولى ، خلاصة مستخرجة من الغدد الدرقية ، فقد تتحسن حالته تحسنا ظاهراً ، فينمو جسمه نموّا طبيعيا ، ويزدهر ذكاؤه ، وتنشط حركته ، ويستيقظ انتباهه . وهناك غدد أخرى عديدة ذات إفرازات داخلية تؤثر كالسابقة فى شكل الجسم كما تؤثر فى الحالة العقلية الداخلية . ولذا فإنا نستطيع أن نتمشى مع الرأى القائل بإمكان معرفة ذكاء شخص أو خلقه من النظر إلى بنية جسمه العامة .

وتلك هى الطريقة الطبيعية التى يلجأ إليها الطبيب ، إذ يبحث عن

الأعراض الجسمية ، لا فى أمراض الجسم فقط ، بل فى الأمراض العقلية أيضا . ولو أنه فى تلك الحالة سيبحث عن أشياء أخرى كثيرة غير الأعراض الجسمية المحضة .

ولقد ذهب بعض علماء النفس فى الماضى إلى أنه من الممكن استنتاج خواص مزاج الأصحاء ، على أساس الفكرة السالفة الذكر . فاستنتجوا على الخصوص وجود صنفين من الناس ، نسميهما على سبيل التبسيط النحيف والسمين ، على أن كلتا الحالتين ليست ناجمة عن قلة التغذية ، فى الحالة الأولى ، وقلة الرياضة فى الحالة الثانية ، وإنما المفروض أن كلا منهما تنجم عن التركيب الكيميائى للجسم ، أى طريقة اختزان الجسم للطاقة أو النشاط . أما من حيث المظهر الخارجى ، فالأول نحيف القوام ، متخاذل الحركة ، عظامه طويلة وليست بالغليظة ، ولحمه لا يكسوه إلا القليل من الشحم ، ونسبة رأسه إلى جسمه أكبر من المعتاد ، ولا يتناسب حجم الجبهة مع الفكين ، بل يفوقهما . بينما الصنف الثانى ممتلىء سمين ، بدين ، هائل المنظر ، ذو وجه مستدير عريض .

ويقابل هذين الصنفين نوعان من الأمزجة ، قد تعددت أسماؤهما ، ويصح أن نسميهما المتحفظ والمتفتح . وهناك أسماء أخرى يطلقها بعضهم كالمنطوى والمنبسط ، والرزين والخيالى ، والذاتى والموضوعى ، والمكبوت وغير المكبوت . فالشخص الذى من الصنف الأول ، حاذق حساس محب للوحدة ، ميال للسكون ، ولكن عقله ملىء بالهواجس . أبرز صفة فيه أنه قلما يكون بينه وبين غيره اتصال وجدانى أو روحى . والشخص الذى من الصنف الثانى أبطأ فى التفكير والعمل ، ولكنه سريع فى إظهار مشاعره ، وسريع التحول فيها أيضاً ، كما أنه عرضة لنوبات يفيض فيها

شعوره ، ويتجلى فيها تعبيره عما يتملكه من سرور أو حزن . وقد يظهر كأن له شخصيتين متعاقبتين . وفيما عدا ذلك فهو سهل الجانب ، محبوب ميّال للاجتماع ، حليم ، طيّب ، سمح الطبيعة ، حسن المعاشرة .

وكثيراً ما نصادف فى كتب الأدب تلك المقابلة بين النحيف المتحفظ والسمين المنطلق ، أو الصريح . فيقول شكسبير[1] : « هؤلاء النحفاء ذوو النظرة الجائعة ، كثيرو التفكير ، وهم فى الغالب مصدر أذى وخطر ، على حين أن السمناء ، الممتلئو الجسوم ، ميالون إلى النوم ليلا ، بشوشون كثيرو الكلام نهاراً » .

ولقد أصبح من الحقائق الثابتة اليوم أن الكثير من أنواع الجنون عبارة عن تطور شديد فى المزاج الطبيعى العادى الموروث عند المريض . وهكذا نجد فى مستشفى المجاذيب ، صنفين متباينين ، ينتابهما نوعان من الأمراض العقلية ، كثيرا الحدوث ، أولهما يسمى عادة « جنون التهيّج والانقباض » ، والمريض به شديد التأثر ، فإما أن يهيج وينزع إلى العدوان وإما أن يستسلم لحزن عميق ، فلا يقبل تعزية أو تنفيسا . وقد تتناوبه الحالتان ، والصنف الثانى يسمى « دمنشيا بريككس »[2] ، وأعراضه استسلام المريض فى الظاهر ، وعدم اكتراث لشىء مهما حاولت حمله عليه ، بينما هو فى داخلية نفسه مفعم بالهواجس والأشجان الغريبة . وهذان الصنفان ظاهران بين الأطفال . والمعلمون يسمون النوع الأول هستيريين والثانى عصبيين . ويلاحظون على المصابين بالمرض الأول ، رغبتهم الدائمة فى الظهور ، أمام الملأ ، واجتذاب الأنظار بسوء السلوك ، إن لم يستطيعوا

---

(١) فى رواية يوليوس قيصر ، الفصل الأول المنظر الثانى ص ١٩٢

(٢) آثرنا أن نحتفظ باللفظة الأجنبية لأنها أصبحت اصطلاحا ثابتا .

بحسن السلوك . بينما المصابون بالمرض الثانى ، يقبعون فى زاوية منفردة ، بعيدين عن الأنظار ، وتجدهم واجمين ، منفردين ، فريسة للحياء ، ينفرون إذا ما حاول أحد الاقتراب منهم ، كالمحارة المطبقة على نفسها . وهكذا يلوح أن المزاجين المتناقضين السالفين ، المتفتح والمتحفظ ، إذا ما تطورا تطورا بالغا ، وصلا بصاحبيهما إلى حالتين مرضيتين . ولكن إلى أى حد يصح أن نعتمد على المظاهر الخارجية أو الأعراض الجسمية فى تشخيص كل منهما ؟

للإجابة عن ذلك السؤال ، أخذ بعض الباحثين فى الأيام الحديثة ، فى زيارة المدارس والمستشفيات العقلية ، وجعلوا يقيسون أجسام الأطفال والمرضى ، وأعضاءهم ، من حيث الطول والحجم ، كما قاسوا قدرتهم العقلية العامة ، ليروا إن كانت هناك أية علاقة وطيدة بين الجسم والمزاج فى كل صنف . فنتج من البحث وجود علاقة حقيقة ، غير أن الأبحاث التى أجريت حتى الآن ، تقول بضآلة تلك العلاقة ، حتى إنا لا نستطيع الاعتماد عليها وتطبيقها عمليا .

فمظهر الإنسان إذن يعطينا فكرة بسيطة ولكنه لا يعطينا أكثر من ذلك . ولكن ما مبلغ دلالة الوجه ؟ نعم إن المشتغلين بدراسة الوجوه يستنتجون الشيء الكثير من شكل تقاطيع الوجه ، كالحاجب الغزير ، والأنف الرومانى ، والذقن المربعة الغليظة . ولكن إلى أى حد يستطيع علماء النفس الاعتماد على هذا النوع من الملاحظة ؟ من المحتمل أنهم يتأثرون به أثناء الفحص والتطبيق أكثر مما تبرره نظرياتهم . غير أن هنا نقطة يودون أن ينبهوا إليها ، ذلك أنهم يعتبرون شكل الوجه جزءاً من التكوين الجسمى العام للشخص ، وهو يتوقف لحد كبير على النمو الطبيعى للغضاريف والعظام ، وهذا يتوقف لحد كبير بلا شك على الوراثة والجنس ، ويتأثر لحد

بسيط ، بصحة الفرد الخاصة ، وإفرازات الغدد . فاذا كانت هذه العوامل تؤثر فى المزاج ، كما هو المعتقد ، فمن المحتمل إذن وجود علاقة بين المزاج وشكل الوجه وتقاطيعه . إلا أن تلك العلاقة غامضة وغير مباشرة ، وفى أغلب الأحيان ضئيلة جداً ، على حين نجد من ناحية أخرى أن أسارير الوجه أو تعبيره الذى هو نتيجة تقلص العضلات قد يدلنا على الشىء الكثير . فان تقاطيع وجهنا ثابتة لحد ما ، بينما تعبيره يتغير من لحظة إلى لحظة ، تبعاً لحالات الانتباه ، أو القوة ، أو التعب ، وتبعاً للمشاعر التى تستولى علينا فى كل لحظة . وأهم من ذلك كله يجب أن نذكر أن كل انفعال بشرى له مظهره الغرزى على الوجه ، وهو الذى نستجيب له بشكل يكاد يكون غرزياً أيضاً . فالرضيع فى مهده ، يبسم ويكشر ، وممثلة السينما تتصنع بوجهها مظاهر أعقد المشاعر ، فتفهم أنت تواً ، وأنت جالس تراقب أسارير وجهها على الشاشة البيضاء ، أى الآلام النفسية أو أى أنواع السرور ، يهيمن عليها . ثم إن الحالات الوجدانية الطارئة ، التى تغلب عند شخص ما ، يحتمل ، تبعاً لقانون العادات ، أن تترك أثرها فى تعبير أسارير وجهه ، وذلك بتقلص العضلات الداخلية دائماً ، وبتعميق الخطوط والتجاعيد التى بالجلد . وهكذا نجد أن الشخص الشرس ، السيء الطبع ، يبدو منظره فى الغالب فظاً عابساً ، كأن عينيه تتقدان غضباً ، بينما القلق الحزين ترتسم على محياه نظرة الهم .

غير أن الاختبارات الدقيقة تدل على أن تلك الأعراض أقل صدقاً فى الحياة العلمية منها فى التمثيل البارع الذى نشاهده فى أفلام السينما . حقيقة أن تعبير الوجه أصدق فى دلالته من بنية الوجه ، أو الجسم ، بوجه عام . إلا أن هناك كثيرين لا ينم وجههم عن شيء ما . وإنى أستطيع أن أعرض

عليك لصاً فى ريعان الشباب ، يخيّل إليك من نظراته ، أنه أطهر القديسين . وأستطيع كذلك أن أريك محسناً ، بلغ من شدة أمانته ، ودقة ضميره ، أن يخيل للرائى الذى لا يعرفه ، أن نظرات ذلك الرجل العميقة ، تنم عن خبث شديد ، وأنه لم يترك جرماً لم يقترفه .

ولقد أبان لنا المذياع علامة جديدة ، ألا وهى اختلاف الصوت . فالصوت كالوجه ، يتأثر حين يعبّر عن الانفعالات ، فقد يكون المتكلم محتجباً عنك عاماً ، ولكنك تعرف من صوته أنه يعبّر عن غضب أو ذعر ، ملل أو حيرة ، انتصار أو يأس . ومن كثرة التكرار تتكون لهجة الشخص التى يعتادها ، والتى تنطبع بطابع شخصيته وطبقته فى المجتمع ، فنستطيع أن نميز الصوت العسكرى ، وصوت المحامى ، والكاتب والموظف وخريج جامعة أكسفورد أو كلية أيتون . وأن التفرقة بين صوت الشخص الكسول ، الذى يتميّز بالبطء والتهادى ومطّ العبارات ، وصوت الشخص النشيط الوثّاب ، لا يحتاج إلى مران خاص . وإن الإخصّائى فى علم الأصوات ومخارج الحروف ، ليستطيع أن يسجل بالرموز خصائص اللهجات المختلفة وصفاتها . وقد يخترع علماء النفس يوماً من الأيام وسيلة يستطيعون بها أن يسجّلوا ما بالكلام من وزن أو موسيق .

ولقد أجريت عدة أبحاث قيّمة ، منذ بضع سنوات ، فى قاعة الإذاعة ، فاختير أشخاص من مهن وحرف مختلفة ، وطلب إليهم أن يقرأوا صفحة أمام آلة المذياع (الميكروفون) وطلب من المستمعين أن يذكروا ما يستنتجونه من أصواتهم ، وإلى أى حد أمكنهم أن يستنتجوا شيئاً عن عمر المتكلم ، وخلقه وصناعته ، وهل هو ذكر أم أنثى . فكانت النتيجة أن ٦٠ ٪ ممن أجابوا عن الأسئلة التى وجهت إليهم ، أمكنهم أن يستنتجوا

تماماً مهنة جورج جروسميث ، بينما مهنة ضابط الجيش لم يعرفها سوى ٢ ٪ فقط . ولكن إذا استثنينا هذه وما يماثلها من البحوث القليلة ، نجد أن سيكولوجية الصوت لم تزل أمراً غير مبحوث .

نرى إذن أن علماء النفس قد بدأوا يبحثون تقريباً كل العلامات أو الضوابط التي قد نميل للاعتماد عليها في حكمنا . وكانت نتيجة أبحاثهم وإحصاءاتهم أن قلّت ثقتهم في طريقة المحادثة الشخصية عما يظنه أغلب من يعتمدون على تلك الطريقة . فرجال الأعمال وأعضاء اللجان ، والنساء اللاتي يفخرن بما لديهن من بصيرة نافذة ، كل أولئك كثيراً ما يعلنون الثقة في مقدرتهم على قراءة عقول الآخرين ، وهي ثقة لا يشاطرهم فيها كثير من العلماء . نعم إن طريقة المحادثة الشخصية يمكن ضبطها وتحسينها عما هي عليه الآن ، باتباع بعض القواعد السيكولوجية . ومع ذلك فلن نستطيع أن نأمن لها تماماً ، فالنتيجة التي نصل إليها إذن هي أن شكل الجسم وتقاطيع الوجه ، وتغيرات الصوت ، وكل العلامات التي ذكرناها ، قد تفيد في إرشادنا ، ولكننا لا نستطيع الاعتماد عليها بصفة قاطعة . فأسلم طريقة لتقدير خلق شخص هي أن نتلمس عقليته الداخلية المستترة ، بدلا من العلامات الخارجية الظاهرة ، وأن نستنتج الصفات العقلية من العلامات العقلية لا من العلامات الجسمية ، وذلك هو الشعار الأساسي لعلماء النفس .

كيف السبيل إذن إلى ذلك ؟ يلجأ علماء النفس إلى طريقة علمية أحدث من السابقة ، فبدلا من الاعتماد على الملاحظة يقومون بتجربة ، أو يجرون اختباراً سيكولوجياً . هب مثلا أنك توجهت إلى معمل من معامل علم النفس التطبيقي ، وطلبت أن تعرف أي الحرف أوفق لعقليتك ، أتنجح مثلا في المحاماة أم تستطيع أن تصبح موسيقياً ماهراً ، أم الأفضل أن تمتهن الصحافة

أو الهندسة أو التمثيل . لن تجد علماء النفس إذ ذاك يضيعون وقتاً ما فى دراسة تقاطيع وجهك أو بدنك ، بل يعمدون إلى مجموعة من الاختبارات .

وليس الغرض من تلك الاختبارات أن تكون مجرد امتحان ، ولكنها فى الواقع تقيس مواهب الشخص وقدرته . وأشهر تلك الاختبارات مقاييس الذكاء ، فبالإضافة إلى أنها أفيد الاختبارات من حيث القيمة العملية . نجدها أجدر بالثقة من كل ما عداها . والذكاء يعنى به علماء النفس قوة فطرية عقلية عامة . فهى موروثة أو على الأقل فطرية لا تكتسب بالتعلم أو المران ، وهى عقلية لا وجدانية ولا خلقية ، ولا يؤثر فيها الاجتهاد أو الحماس ، وهى عامة لا خاصة أى أنها ليست محدودة بأى عمل من نوع معين بل تدخل فى كل أعمالنا وأقوالنا وتفكيرنا . وهى أهم قوانا العقلية ، ونستطيع لحسن الحظ أن نقيسها بدقة وبلا عناء .

والفكرة الأساسية فيها هى استعمال مجموعة من المسائل المتدرجة فى الصعوبة تبعاً لأعمار من يستطيعون حلها ، وبذلك يمكن قياس ذكاء الشخص المختبر وتقديره بالعمر العقلى . فمثلا يستطيع الطفل الذى فى الثالثة من عمره أن يكرر رقمين ، والذى فى الرابعة من عمره ثلاثة أرقام وهكذا حتى ستة أرقام ، وهى مسألة أصعب مما تظن ولا يستطيع أن يعيدها إلا من بلغ الثامنة أو التاسعة . ولا يستطيع الطفل إعادة سبعة أرقام قبل الحادية عشرة أما ثمانية أرقام فتذكرها يجهد الراشد الذكى .

وهناك اختبار آخر يتطلب من الطفل أن يذكر الأرقام عكساً وهو أصعب من السابق . ثم هناك اختبارات أخرى تتطلب من الطفل سرعة التفكير النقدى ، كأن تقرأ عبارة غير مفهومة أو غير منطقية وتطلب من المختبر بيان موضع التناقض فيها ، مثل « شكا شيخ هرم من أنه صار

لا يقوى على متابعة نزهته بالمشى حول الحديقة كلها ، ولا يستطيع إلا أن يقطع نصف المسافة حولها ثم يعود ثانية » . وأيضا « رأى شخص إعلانا على حانوت يقول ، اشتروا واحدا من مدافئنا المسجلة توفروا بذلك نصف ما تستعملونه من الفحم . فاشترى مدفأتين ليوفر كل ما يستهلكه من الفحم » . ومثل تلك الأسئلة يستطيع الإجابة عنها المتوسطون من الأطفال الذين فى سن الحادية عشرة .

وخير الاختبارات هى اختبارات التعليل التركيبي . وهى لا تقرأ على الطفل ، بل يعطى بطاقة ، بها مسألة مطبوعة يترك ليدرسها بنفسه . وأبسط هذه المسائل يحلها طفل فى السادسة أو السابعة ، ومن أمثلتها « محمد أسرع من على فى الجرى ، وأحمد أبطأ من على ، فأى الثلاثة أسرع جريا ، محمد أم أحمد أم على ؟ وهذه يستطيع حلها متوسطو سن السابعة . وهناك مثال آخر « إذا تأخر القطار فلن يصل هذا الشخص فى ميعاده ، وإذا لم يتأخر القطار فلن يستطيع اللحاق به ، ولكنا لا نعرف إن كان القطار قد تأخر أم لا ، فهل نستطيع أن نعرف إن كان قد حافظ على ميعاده أم لا ؟ » ومعظم الأطفال الذين فى الثانية عشرة يستطيعون بعد تفكير قليل أن يصلوا إلى حل تلك المسألة . والمثال الآتى يناسب الأفراد الذين يسميهم الأمريكيون « الراشدين المتفوقين » وهو « محمد أرسلته أمه فى طلب سبعة لترات من الماء ، وأعطته إبريقا يسع ثلاثة لترات ، وآخر يسع خمسة لترات ، فكيف يستطيع محمد أن يكيل سبعة لترات بالضبط من غير أن يستعمل شيئا آخر غير هذين الأبريقين ؟ »

قد تقول فى نفسك ما أشبه ذلك بالامتحان المدرسى ، ولكن هناك فرقا بينهما ، فإن علماء النفس قد أخذوا طريقة المعلم الاعتباطية ، وحاولوا

أن يجعلوها أقرب إلى الدقة العلمية ، وذلك من ناحيتين ، الأولى تقنين الطريقة ، والثانية تقنين النتائج .

فالطريقة التى تتبع فى إعطاء الاختبار توضع خطتها بغاية الإحكام قبل البدء ، فلا يترك لكل مختبر حرية وضع الأسئلة فى غير ما تؤدة ، أو حسبما عليه عليه مزاجه الخاص ، بل يبدأ علماء النفس بجمع عدد كبير من المسائل ، وقبل استعمالها للامتحان يجربونها على مجموعة من الأطفال لاستبعاد المسائل غير الصالحة ولتحسين ما يتبقى من حيث الموضوع والعبارة . ثم تقارن نتائج كل اختبار قصير بتقدير من يصح الاعتماد عليه فى الحكم من المعلمين والذين يعرفون كل طفل معرفة تامة ، ولا تستبقى إلا الاختبارات التى تتفق وتلك التقديرات . وبهذه الطريقة يجرب علماء النفس اختباراتهم أولا ، ثم يأخذونها بعد انتقائها وتحسينها ويطبقونها على عدد أكبر من البنين والبنات فى كل سنة من سنى المدرسة ، ومن ذلك يستنتجون الإجابات المناسبة لكل سن ، ويعرفون حدود من هم « دون المتوسط » ومن هم « فوق المتوسط » كلا على حدة ، ثم يتبينون أيضا الفروق بين الجنسين إذا كان ثمة فروق .

وقد استعملت أمثال تلك الاختبارات بكثرة فى الولايات المتحدة أثناء الحرب الماضية . فلم يكد يحشد الجيش الأمريكى حتى رأت وزارة الحربية أن تنتق فى أقصر وقت ممكن من يصلحون للتدريب ليصيروا ضباطا ، وأرادت من جهة أخرى أن تعرف من لا يؤتمنون على السلاح لغباوتهم ، فطلب إلى علماء النفس اختبار كل مجند ، حتى لم تكد الحرب تضع أوزارها حتى كان مجموع من اختبروا يزيد على المليونين . أما فى انجلترا فإن لجنة موظفى الحكومة وغيرها من الهيئات كثيرا ما استخدمت مقاييس

الذكاء . كما يستعملها الآن كل طبيب فى المدارس لتمييز ضعاف العقول . وكثيرا ما استخدمها ولاة الأمر فى التعليم لانتقاء الأكفاء للمجانية بالمدارس الثانوية .

وإذا جلت جولة فى معمل علم النفس ، وجدت أجهزة عجيبة ، لقياس القدرات العقلية الخاصة ، كالإبصار ، والسمع ، والمهارة اليدوية ، والانتباه ، والذاكرة ، والخيال وما شابه ذلك . بل هناك من الاختبارات التى تقيس التقلبات الوجدانية ما يحوز إعجابك . تعال معى إلى تلك الغرفة المظلمة ، واجلس فى ذلك الكرسى الواسع المريح ، وضع يديك على هاتين الشريحتين المرطبتين . إنهما طرفا دائرة كهربائية تصلان بينك وبين بطارية وجلفانومتر ، ولو أن المفروض أنك لا تعلم عنهما شيئا . لن أشعرك بهزة عنيفة وإنما سأبعث فى جسمك تيارا بسيطا لا تشعر به أنت حين يقيس الجلفانومتر قوته وكيفية تغيره . أما تلك النقطة من الضوء التى تروح وتغدو على ذلك المقياس المدرج فتدلنا على مقدار التيار المنبعث . والآن نحن على أهبة البدء بالتجربة . أنظر ، أرأيت نقطة الضوء تجمح حتى جاوزت المقياس ، وما دفعها إلا اضطرابك ، فعندما قلت لك : « نحن على أهبة البدء » ، أحدث ذلك عندك شيئا من التوتر والقلق ، والآن وقد أخذت تهدأ تعود النقطة ثانية .

فذاك إذن استكشاف عجيب ! إذ يظهر إن كل موجة وجدانية تسمح لكمية أكثر من التيار بالمرور فى الجسم ، وكلما زاد الوجدان ابتعد الجلفانومتر . فالآن وأنت جالس فى كرسيك قد أحدثك عن أمور كثيرة مثيرة متنوعة ، لأعلم مقدار تأثير كل منها فيك ، ولكن اختصارا للوقت ، قد أذكر بضع كلمات كهذه : طفل ، زواج ، وفاة ، معيار الذهب ،

فتاة جميلة ، البطالة ، ضريبة الدخل ، إملى جونز (أو اسم خطيبتك) وهكذا . نعم من المحتمل ألا يبدى وجهك أثراً ما ، ولكن كلما صادفت موضوعا يثير انفعالاتك أخذت نقطة الضوء ترقص هنا وهناك ثانية دالة على زيادة فى التيار الكهربائى الذى يمر بك .

ولا يكاد يصدق تلك التجربة من لم يرها ، ولكن إجراءها سهل ، فيستطيع تجربتها كل من يتوفر لديه جلفانومتر ، وما عليه إلا أن يهيئ الجهاز ويرى عمله بنفسه . ولقد أخذ البعض يعقدون الأمل على ذلك الجهاز لكشف المجرمين الذين ارتكبوا آثاما ، أو لسبر غور الآلام التى تنتاب المرضى بأمراض عصبية . إلا أن هناك عائقا جوهريا يمنع استعماله فى الأحوال العملية ، إذ لم يهتد أحد بعد ، بصفة يقينية ، إلى السبب المباشر فى ذلك التغير الكهربائى . فيظن البعض أنه راجع إلى ابتلال اليدين بعرق لا يلحظ ، ويذهب آخرون مذاهب أخرى لم تمحص بعد .

تلك إذن هى الطرق التى يلجأ إليها علماء النفس لدراسة عقول الآخرين ، فهم يلاحظونهم ، لا بل يجرون عليهم التجارب فعلا ، وذلك أهم . وإن هذا الاتجاه التجريبى لصاحب الفضل ، قبل كل ما عداه ، فى جعل علم النفس علما من العلوم المعتمدة ، فلقد كان استخدام الاختبارات النفسية مقصورا منذ عشرين سنة على فئة من المبتكرين المتحمسين العاكفين فى معاملهم ، المهتمين بالتربية أو الطب أو الإدارة الصناعية أو ميادين الخدمة الاجتماعية المختلفة . نعم لا يدّعى أحد أن تلك الاختبارات قد بلغت غاية الكمال ، غير أننا نرى كل عام باحثا جديدا يحسن من أساليبها ويزيدنا فهماً لها ، أما ما لم يزل منها مشكوكا فيه ، أو مجهولا ، فهو على كثرته لا علاج له سوى الاستمرار فى الأبحاث .

الفصل الثانى

دراسة الشخص لعقله

إلى هنا كنا ندرس العقل من الخارج ، بأن نحكم على ما فى عقول الناس بالنظر إلى جسومهم وبمراقبة وجوههم وإعطائهم الاختبارات فى المعمل . ولكن كيف نتوصل إلى المعنى الخفى لكل تلك المظاهر الخارجية ؟ ليس من المستطاع أن أتسلل خلسة إلى داخل جمجمة رجل آخر لأراقب خفى مشاعره مباشرة ومن غير واسطة ، فلا يستطيع ذلك سوى الشخص نفسه ، وأول قاعدة نقولها للمبتدىء هى « أيها الباحث فى علم النفس ، اعرف نفسك » . فعليه أن يبدأ بدراسة داخلية نفسه كمثال ، وأن يحكم على الآخرين منها .

فبدلا من تحليل أخلاق غيرنا هنا ، سنعمد إذن إلى تحليل أنفسنا . وإن هذا النوع من الملاحظة مقصور على علم النفس دون غيره ، وله اسم اصطلاحى هو « التأمل الباطنى » ، ومعناه توجيه ملاحظة الإنسان إلى داخلية نفسه . وهذه الطريقة من طرق البحث لا يمكن أن تستخدم فى أى علم آخر . فالكيميائى عند ما يصب حامض الزاج على برادة الزنك ، ويسخن القنينة على مصباح بنزن ، لا يخطر بباله أن يسأل كلا من الحامض والفلز عن مقدار سرورهما بالتجربة ، أو عن شعورهما حين يتحولان إلى فقاعات من غاز متصاعد . أما الشعور فلا تمكن دراسته بغير تلك الطريقة .

ولا يمكن للانسان أن يكوّن بنفسه فكرة عن كيفية عمل العقل ما لم يتدرب على تحليل نفسه .

حقيقة إن الإفراط فى تحليل الإنسان لنفسه قد يودى بصحته ، ويجعله شاحب الوجه من كثرة التأمل ، غير أن القليل من نقد الإنسان لنفسه ، كما عرف كتاب المسيحية القدماء حق المعرفة ، قد يفيد الإنسان ويرقى خلقه بدلا من أن يعوقه . وليس من شك فى ضرورة اهتمامك وفهمك لدوافعك وأفكارك الخاصة إذا ما أردت أن تفهم ما لدى غيرك منها . فلا غنى لكل مشتغل بعلم النفس عن أن يضع نفسه موضع الغير كأنه يفكر بعقولهم ، ولذا كان لزاماً عليه أن يعرف عقله هو قبل كل شيء .

ولم لا تجرب ذلك الآن ؟ أترك هذا الكتاب جانباً مدة خمس دقائق وسل نفسك عما فى شعورك فى هذه اللحظة الحالية ، ودعنى أدخل معك إلى أعمق خفايا مخك ، فلن يصعب علينا بعد تجوال بسيط أن نضع قائمة بأهم ما به من أثاث وأدوات ، وأن نقسمها إلى بضعة أقسام بسيطة وهى :

الإحساسات — قد تكون الألوان والأشكال أظهر ما فى عقلنا وشعورنا ، كالصفحة الناصعة البياض التى بيدك ، والأسطر المكونة من الحروف الصغيرة السوداء المطبوعة ، والسجادة التى تحت قدميك ، والورق المزخرف الذى على الجدران . كل هذه أشياء أنت تدركها من طريق عينيك ، على حين تحمل إليك أذناك فى نفس الوقت أصواتاً وضجيجاً ، كالغناء الذى ينبعث من مكبر الصوت أو ضوضاء المارة فى الطريق ، وكذلك قد يؤدى إليك لسانك وأنفك رائحة سيجارتك التى قاربت النصف وطعمها ، على حين تتراءى خلف كل هذا كما يتراءى المنظر الخلفى لصورة ما ، كتلة من المشاعر الغامضة الصادرة من البشرة والأعضاء الداخلية ، كحرارة النار

وضغط الكرسي ، والشعور بالامتلاء بعد إكلة حديثة العهد . فالمرئيات والمسموعات والروائح والمذوقات والملموسات ، كلها يطلق عليها اسم الإحساسات ، وكل إحساس يمكن أن يعرف ويسمى تبعاً للحاسة التي يصدر عنها .

ولقد أجرى علماء النفس عدداً كبيراً من التجارب الطريفة على الإحساسات ، ووفقوا إلى بعض كشوف لم تكن على بال ، فعلموا مثلا أن كلا منا لديه حاسة سادسة غير الحواس الخمس التي نذكرها عادة ، وهي حاسة الوضع والحركة ، إذ وجدت فعلا بواسطة الميكروسكوب أعضاء حس دقيقة مطمورة في العضلات والمفاصل ، وهذا هو السبب في أنك تعرف موضع رجليك وذراعيك عند ما تستيقظ في الصباح .

وهناك حاسة سابعة ، في داخل الجمجمة على مقربة من كلتا الأذنين ، وظيفتها الحس بالاتزان أو الدوخان . خذ حاسة البصر مثلا ، فقد دلت التجارب على أن العين البشرية تستطيع أن تميز حوالي خمسة وثلاثين لوناً ، ومع ذلك فكل تلك الألوان تحدث بمزج ثلاثة ألوان أصلية بنسب مختلفة . ألا وهي الأحمر والأخضر والأزرق . وهنا سر التصوير الفوتوغرافي الملون وفن الأفلام الملونة . وقد يفقد واحد أو أكثر من تلك الألوان الأصلية عند بعض الأشخاص . فجون دولتون الكيميائي المعروف ، الذي توصل إلى قانون الذرة ، كان يوماً يسير في فناء الدار حاملا على ذراعه عباءته القرمزية اللون ، فسقطت على الحشيش ، وما كان أشد دهشته عند ما وجد أنه لا يستطيع رؤيتها ثم ظهر بعدئذ أن جون دولتون كان مصاباً بالعمى اللوني ، أي أنه لا يستطيع تمييز اللونين المتقابلين الأحمر والأخضر ، ومنذ ذلك الوقت اتضح لعلماء النفس أن في كل ثلاثين رجلا تقريباً واحداً مصاباً بالعمى اللوني

الجزئى . غير أن ذلك العمى اللونى يندر أن يوجد لدى النساء . ولقد وضعت فى المعمل اختبارات يستعملها الآن المجلس التجارى (البريطانى) . فما من سائق قطار ، أو ضابط فى البحرية ، إلا وأعطى تلك الاختبارات ، إذ أن خطأ أحدهما فى تمييز الإشارات الخضراء من الحمراء يؤدى بلا جدال إلى الهلاك .

وينظر الشخص العادى إلى إحساساته كأنها جزء من العالم الخارجى ، فعندما يرى كتلة بيضاء من الثلج ، أو عندما يرفعها بيده ، يخيل إليه أن برودتها وثقلها كائنان فى داخلها وأن البياض موجود على سطحها ، ولا يقول لنفسه « إنى أرى إحساسا أبيض » أو « أشعر بإحساسات برودة وثقل » ولكنه طبعا حين يشعر بالألم من تجمد الجليد على أصابعه يميل طبعا إلى اعتبار الشعور بالبرودة من إحساساته الذاتية الخاصة به ، فلا يعتبر الألم كائنا فى كتلة الثلج ، بل فى داخلية نفسه . وسوف تدل التجارب على أن كل إحساساتنا الأخرى (كالألم مثلا) تتوقف فى الحقيقة على أعضاء حسنا وعلى مخنا ، أكثر من توقفها على الأشياء التى نرجعها إليها .

وهاك بعض تجارب بسيطة لإيضاح تلك النقطة ، يستطيع إجراءها أى شخص بنفسه :

١ — ضع يدك هنيهة فى ماء حار جدا . بأيهما تحس أولاً ، بالدفء أم بالألم ؟ أتشعر بأن الدفء فى الماء أم فى يدك ؟ وأين موضع شعورك بالألم ؟

٢ — والآن ضع يدك اليمنى فى ماء حار نوعا واليسرى فى ماء بارد . وبعد دقيقة تقريبا ضع كلتا اليدين فى إناء ثالث به ماء فاتر فى درجة حرارة اليد ، تجد أن إحدى اليدين تحس الماء دافئا وفى الوقت ذاته تصر الأخرى على أن هذا الماء نفسه بارد . ومن هذا ترى أن شعورك يتوقف على حالة أعضاء الحس عندك أكثر مما يتوقف على الأشياء التى تحسها فعلا .

٣ — أغمض عينيك وانن أصبعك الثانية على أصبعك الأولى ، وضع حافة قرش أو طرف قلم رصاص بينهما بحيث تلمس كلا منهما فى نفس الوقت . فبكم نقطة تشعر ؟

٤ — ضع أصبعك الأولى قائمة أمام أنفك وانظر إلى أكرة الباب البعيدة ، فكم أصبعا ترى ؟ ولماذا ؟

٥ — أغمض عينيك ودر على قدميك ثلاث مرات ثم قف سا كنا مع فتح عينيك بسرعة . أفلا تشعر أن الدنيا أخذت تدور أيضا ، وإذا كان كذلك فى أى اتجاه ؟ أعد التجربة مع انحناء الرأس حتى تستند على الصدر هذه المرة ، ولف ثلاث مرات ، ثم قف سا كنا مع رفع رأسك وفتح عينيك ، تلاحظ أن الغرفة تبدو كأنها تدور فى اتجاه مخالف ، رأسية فوق رأسك لا أفقية أمام وجهك . جرب مرة ثالثة مع انحناء رأسك هذه المرة على زاوية قائمة ، حتى يلمس كتفك رأسك خلف الأذن ، فتلاحظ فى كل مرة أن صوت الدوى الذى تسمعه بعد إيقاف التجربة يتوقف على وضع الرأس ، وبعبارة أخرى على وضع أعضاء الحس بالتوازن الدقيقة الموجودة فى داخل الأذن .

٦ — اطلب من صديق لك أن يجلس منخفض العينين ، واقرع قرشاً بآخر حول رأسه ، واطلب منه أن يشير بأصبعه بالضبط إلى المكان الذى حدث فيه الصوت ، تجد أنه حين يكون الصوت فى أحد الجانبين من الرأس تماما يستطيع الإشارة إلى موقعه بدقة كبيرة ، ولكن عندما يكون الصوت فى النصف ، وعلى الأخص إذا ما كان دون الذقن أو خلف الرأس قرب القفا لا يستطيع تبيان موضعه بدقة ما . فواضح أن سمعنا يحكم على الاتجاه بحسب الارتفاع النسبي للأصوات حين تطرق الأذنين .

ثانيا — صور عقلية — عندما نشرع فى تحليل شعورنا نجد أن أهم ما به ، أو يخيل إلينا أن أهم ما به ، مجموعات أو كتل من الإحساسات ، فهل هناك غيرها ؟ عما قريب ستأوى إلى فراشك ، وستنقطع انقطاعا يكاد يكون تاما ، تلك الثيرات الخارجية التى جعلت حواسك متيقظة ، وسوف تطفىء النور ، وتغلق النافذة ، لتمنع الضوضاء ، وتستلقى على فراش وثير مريح ، فلا مرئيات ولا أصوات ولا روائح ولا مذوقات ولا ملموسات ، إلا ما ندر منها ، فكل إحساساتك تقريبا قد هدأت . فهل يتلاشى عقلك كذلك إلى فضاء لا حس فيه ؟ كلا ، فإنك إن لم تحتفظ بأى شعور على الإطلاق ، استلقيت فى غيبوبة أو سنة من النوم . ولكنك أثناء نصف الساعة الأولى حين تستلقى بين اليقظة والنوم ، تتمثل فى مخك رواية واضحة كل الوضوح . فعيناك قد تغمضان ولكنك ، مثل هاملت ، ترى أشباحا بعين عقلك ، فطرقة على الباب تستحضر إلى ذهنك صورة ساعى البريد ، والخطاب الذى كنت تقرأه منذ قليل ، قد يؤدى إلى استحضار صوت صديقك ، وإذ تتحسس طريقك فى الغرفة المظلمة ، ترى صورة فوتوغرافية عقلية غير واضحة لما يعترضك من الأشياء الصلبة ، كالمنضدة ووعاء الفحم وعلبة الثقاب على رف الموقد . وإنك لتستطيع فى الواقع بجهد بسيط أن تستعيد إلى الذاكرة صورة ضئيلة ذابلة غير واضحة لأى إحساس تريده تقريبا .

تلك الصور الداخلية ، التى تشبه الصدى العقلى ، ليست بعيدة الشبه بالإحساسات ، ولكنها مع ذلك أقل وضوحا وأبعد منها عن الحقيقة ، فهى مقصورة على صاحبها إلى حد عجيب ، وأقل كمالا من الإحساسات الأصلية ذاتها ، فهى إلى الأشباح التى تلوح و تضوى أقرب منها إلى

الأشياء الواقعية ، التى تمر أمام عينى عقلك ، وهذه الأشباح التى تنبعث من الإحساسات الماضية تعرف باسم الصور العقلية ، وهى تستثار داخل المخ ، على حين تستثار الإحساسات الحقيقية من الخارج . ويمكننا أن نستحضر صوراً عقلية مقابلة لكل عضو من أعضاء الحس : كالصور العقلية والأصوات العقلية والهواجس وذكريات اللمس والذوق والشم ، وهكذا حتى فى غياب المؤثرات الخارجية ، قد تأخذ أفكارنا شكلا ماديا مشابها للإحساسات .

والآن أى زى تلبسه أفكارك ؟ دعنا نجر تجربة أخرى لنتبين ذلك . استدع أمام عقلك حادثة خيالية أو حادثة مضت كموقعة السوم مثلا . أيبدو لك المنظر كشريط متحرك أى سلسلة من المناظر المتتابعة ؟ أتستطيع أن تسمع بأذن عقلك طلقات المدافع والصيحات ؟ أتحس كأن رصاصة خيالية تنفذ فى جسمك ، وكأن الدم يقطر منك دافئاً ؟ أم أنك تستعرض القصة ممثلة فى ألفاظ ؟ وإذا كان كذلك ، فهل تسمع الكلمات بعقلك أم تتمتمها لنفسك من غير صوت ، أم تراها كالعناوين المطبوعة بالأسود والأبيض ؟

لقد أظهرت أمثال تلك البحوث ، لعلماء النفس ، حقيقة لم تكن تخطر بالبال ، فإن الناس يختلفون اختلافا شديدا ، من حيث سهولة استدعائهم لمثل تلك الصور العقلية ، حتى لقد اخترعت اختبارات لقياس تلك القدرات الخاصة . ورأى بعضهم فى وقت ما أنه يمكن تقسيم الناس إلى أنواع معينة كما يأتى :

١ — الأشخاص المفكرون بالأشياء (النوع الحسى) وهم إما : (ا) بصريون أو (ب) سمعيون أو (ج) حركيون .

٢ — المفكرون بالألفاظ وهم إما .

(١) بصريون أو (ب) سمعيون أو (ج) حركيون .

ومن هؤلاء (١) الكلاميون ، (٢) والصوريون .

ويفكر أغلب الناس فى الحقيقة بالمحسات ، فتخيل الأشياء أسهل من وضعها فى ألفاظ . ومن هؤلاء أربعة من كل خمسة أشخاص يرون بعقولهم ويسمون « بصريين » وتغلب الصبغة الواقعية على تفكير الأطفال غير المتعلمين ، فأفكارهم صور متخيلة وذكرياتهم وأوهامهم وخططهم للمستقبل تأتى إليهم على شكل مرئيات . وهناك فريق آخر يسمعون بعقولهم ويسمون « سمعيين » فى الاصطلاح . فهم عند تذكرهم لرواية موسيقية هزلية ، يسمعون صدى الأصوات يتردد فى عقولهم ، ولكنهم لا يرون شيئا من المناظر . وإن عقلك قد يكون كالسينما الصامتة ، ولكن عقلى أشبه بمناظرة فى المذياع ، يتناقش فيها ضميرى وأصدقائى ونفسى معا فى ضوء الشفق . وآخرون لا يسمعون ولا يرون تلك الإحساسات الخيالية ، ولكنهم أسرع منا فى إحساسهم بلمسات خيالية على بشرتهم ، وهؤلاء هم « اللمسيون » فلا تكاد تبدأ حديثا مع أحدهم عن البراغيث أو العناكب حتى يبدأ المسكين فى هرش رقبته . وهناك غير هؤلاء ، من يسمون « الحركيين » وأغلب تفكيرهم يصطبغ بصبغة الجهد والحركة ، فلا يستطيع الواحد منهم أن يطل من فوق قنطرة على ترعة دون أن يحس بجسمه يهوى فى الفضاء ، وبأصابعه تتعلق بالهواء .

غير أن الكثيرين لا توجد لديهم تلك الصور العقلية الحسية ، سواء أكانت بصرية أم صوتية أم حركية ، فتفكيرهم بالألفاظ أكثر من الأشياء . وعندما يريدون استذكار واقعة مضت أو وضع خطة لشئون

يومهم ، يستعرضون التفاصيل لفظيا فى شبه كلام داخلى ، ويشبه تفكيرهم المناجاة الصامتة . ومن هـذا النوع الأشخاص الذين أمضوا حياتهم بين الـكتب كالمعلمين والفلاسفة المغرمين بكثرة القراءة والذين تأصلت فيهم عادة المطالعة ، فهم قد فقدوا القدرة على تأمل الأشياء بصورة حسية واضحة مفصلة ، وأصبحوا لا يستطيعون التفكير فيها إلا بأسمائها ، وتشبه حياتهم الداخلية حديثا جاريا لا تخفف من جريانه أية صورة حية ، وهؤلاء أيضا كالقسم السابق ، فيهم البصريون ، والسمعيون ، والحركيون ، حسبما تأتى إليهم الـكلمات ، سواء أكانت عن طريق البصر أم السمع أم الشعور بها تتردد فى حناجرهم .

حاول أن تتبين إلى أى هذه الفئات أنت تنتمى . وأن من السهل أن تتبين الصور العقلية ، وكذا الـكلام الباطنى ، ولـكن ليس من السهل أن تعرف إن كان كلامك يأخذ شكل كلمات تتلفظها فى عقلك أم كلمات تسمعها بأذنك العقلية ، أم غير هذا وذاك ، وإنما كلمات تراها مكتوبة أو مطبوعة .

دعنا نجر اختبارا مرة ثانية . فكر فى بضع كلمات مثل بابل وتودل وبوتى ، ثم افتح فمك وفكر فيها ثانية . قد يتبين لك أن أغلب الناس فى مثل هذه الحالة يعجزون عن استبقاء السواكن ، فهؤلاء هم الحركيون فى أغلب الظن ، ولـكن آخرين لا يتأثرون مطلقا بفتح شفاههم ، بل يظلون يسمعون الـكلمات بنفس الوضوح ، يتردد صداها فى آذان عقولهم . وأنا نفسى سمى عقلى من غير ما شك ، فأستطيع أن أنعم بحفلة موسيقية (خيالية) وأنا جالس تجاه الموقد فى منزلى ولا يكلفنى هذا سوى النظر إلى كراسة الموسيقى ، وإذا حاولت قراءة كتاب أستاذى السابق الذى كان

عسر النطق أخذت عشر دقائق فى قراءة كل صفحة إذ أسمع صوته يتهته عند كل تاء وباء . وبعض الناس بدلا من أن يلفظوا الكلمات بشفاههم ، يجدون أنفسهم يكتبونها بقلم على الورق ، أو بطباشير على سبورة . ويقال إن هؤلاء ينتمون إلى نوع الصوريين أكثر من الكلاميين . وكثيرون ينزعون إلى رؤية الكلمات بدلا من سماعها أو التلفظ بها . وإنى أعرف أستاذاً يكتب مذكرات محاضراته على ظهر ظرف طويل ، يضيع منه فى العادة ، ولكنه لا يلبث أن ينظر إلى سقف المكان حتى يرى كل النقط الرئيسية منقوشة بالترتيب على الدهان الأبيض .

وإنك لتستطيع فى كثير من الأحيان أن تتبين أى نوع ينتمى إليه الشخص من كلامه . فهل لاحظت مثلا أن بعض المتكلمين يكون حديثهم كله معنوياً محضاً ، على حين يستعمل آخرون الاستعارات والتشبيهات ، ويصورون منظراً واضحاً بكل عبارة ويتفوهون بها . هاك جملة من مقال كتبه طالب :

« إن جرثومة أدب جديد قد لاح فجرها فى هذا العرق الجديد من الشعر » . ولكنك إذا حاولت أن تتصور ميكروباً يلوح كضوء فى أحد الأوعية الدموية ، اتضح لك أن من المحال أن يكون ذلك الكاتب قد تصور المنظر الذى تفيده تلك الكلمات التى نظمتها أذنه من غير تمعن .

وأحياناً تأتى صورنا العقلية بحيل غريبة ، فهى فى العادة تساعد تفكيرنا ولكنها فى بعض الأحايين تضله . فمن خصائصها العجيبة أن يرى بعض الأشخاص ألواناً فى أشياء لا يرى فيها أغلبنا ألواناً ما . كصوت بعض الآلات المختلفة مثلا ، أو حروف الهجاء ، أو أيام الأسبوع أو أشهر السنة .

ولقد وجدت من الإجابات التى تلقيتها من بحوثى فى الإذاعة أن تلك الصفة توجد فى شخص واحد فى كل خمسة عشر شخصاً ، وهى أكثر فى النساء منها فى الرجال . وتدل الإجابات على وجود أوجه تشابه لم تكن متوقعة . فالنصف يصفون حرف (A) كأنه أحمر وحرف (O) كأنه أبيض ، ويومى الخميس والجمعة كأن لونهما أسمر ، على حين يوصف الأحد بأنه أبيض أو فضى أو ذهبى .

وتقول إحدى المستمعات للاذاعة إن ولداً يصف أصوات الحيوانات كأنها ملونة ، فيقول :

« ذلك الكلب ذو نباح أصفر أما كلبنا فنباحه أسمر ، أليس كذلك ؟ »

والتفسير الذى يعطى فى كثير من الأحيان ذو دلالة واضحة . فيوم الاثنين(١) يوم كد أسود ، والعلة فى هذا كما يقول أحدهم ، أن العودة إلى عمل الأسبوع تظلم المستقبل . ويقول آخر إنه أزرق لأنه يوم الغسيل(٢) ، ويوم الغسيل يجعل النفس زرقاء كئيبة . ويوم الجمعة أخضر لأنه يوم مشئوم واللون الأخضر شؤم(٣) ، والسبت يوم أحمر وهو من أهم الأيام لأنه ولد وتزوج فى يومى سبت .

ويتصور كثيرون أيام الأسبوع أو الأرقام من صفر إلى ١٠٠٠ مرتبة بنظام يتخيلونه ، فيرون بعين عقولهم أيام الأسبوع مرصوصة فى صفوف بيضاء أو سوداء كأصابع البيانو . أو يتصورون مرأى الأرقام فى هيئة دائرة أو خط متعرج أو حلزون طويلة لاتنتهى . بل إن بعضهم يصرحون

---

(١) أول الأسبوع عند الافرنج .

(٢) يوم الاثنين هو يوم غسيل الملابس فى معظم أنحاء انجلترا .

(٣) فى عرف الانكليز .

أن تلك الأشكال العقلية تساعدهم فى حسابهم أو فى توقيت الحوادث التاريخية .

ولكن دعنا نعود إلى مسألة إحصاء ما فى عقلك . هناك حقيقة غريبة لا بد من أن تسترعى انتباهك أثناء ملاحظتك لحركاته . ففى وسط كل تلك الفوضى من الإحساسات والصور العقلية واحد فقط أو مجموعة صغيرة واحدة فقط تستطيع أن تشغل المركز ، وما عداها يبقى فى مكان ثانوى غامضاً غير ملحوظ . فشعورك يشبه مصباح اللص الذى يرقص نوره هنا وهناك فى غرفة النوم المظلمة ، ويتركز على الأشياء المختلفة واحداً بعد الآخر ، كالوسادة ، ثم مقبض الباب وثقب المفتاح ، ثم صندوق الحلى بجانب المرآة ، فهو يضىء نقطة معينة ويجعلها تسطع ، على حين يظل ما حولها فى الظلام لا يكاد يرى . فالعقل فى الحقيقة لا ينتبه إلا لشىء واحد فقط فى وقت واحد . ولذا تضطر أفكارنا وصورنا العقلية أن تتبع بعضها بعضاً متسلسلة شيئاً بعد شىء فى صف واحد . ولذا تأتينا الأفكار فى تتابع مستمر أو على شكل سلاسل متصلة ، وفى العادة تبدأ كل سلسلة بإحساس واحد فعلى ، ثم بعد فترة من الصور العقلية المستذكرة والتى تمر تباعاً ، تنزع لأن تصور حركة فعلية . فالطرق على الباب مثلا يستثير فكرة ساعى البريد ، فتراه بقبعته وبذلته الرسمية الزرقاء ، وساعى البريد يستثير فكرة فاتورة الحساب ، والفاتورة تستثير فكرة الدين الذى عليك لفلان ، والذى تنسى دفعه دائماً ، والدين المستحق يستدعى فكرة السجن ، فتحس حينئذ بيد الشرطى على كتفك ، وتمر أمام عينيك الواحد بعد الآخر وفى سرعة خاطفة ، قفص المتهمين والقاضى وحجرة الحبس الضيقة ، والمشنقة وحبل الشنق ، فتكون النتيجة أن تخطف القلم وتبعث بالشيك إلى فلان .

ولا يهمنا الفعل النهائى على كل حال ، بل تهمنا الخطوات التى تؤدى إليه . فراقب العملية تر كيف أن كل فكرة تظل تجذب الفكرة التى تليها إلى الأمام كعربات سكة الحديد على القضيب . وهذا يثير سؤالين : أولهما ما هى القوة التى تجذب الأفكار إلى الأمام ؟ والثانى ما الذى يصل الأفكار بعضها ببعض حتى تكون سلاسل أو قطراً ؟

٣ — الروابط والعلاقات — لنأخذ السؤال الثانى أولاً . فالحلقات التى تصل أفكارنا ببعضها تسمى عادة بالروابط . وذلك الاسم اخترعه فيلسوف يونانى كان أول من لفت النظر إلى « تداعى المعانى » . غير أن تلك العبارة فى حد ذاتها لا تفيدنا شيئاً ، والأصح أن نعتبرها لا كالحلقات التى بين عربات القطار ، بل كقضبان السكة الحديدية التى تقود مجرى الشعور ، أو كالدروب المطروقة فى المخ فيسير فيها التفكير ، وهو أقرب شبهاً بالقطار السريع الذى يمر بالمحطات فيهمل بعضها ويقف عند البعض الآخر .

فالمسالك المخية أو « الروابط » وهما شىء واحد تقريباً ، تسيطر على الأعمال التى اعتدناها فتصبح أحياناً سريعة آلية معادلة فى ذلك الأفعال المنعكسة الموروثة كالرمش بالعين مثلا .

وللتمثيل نقول : أنت الآن شخص راشد ، تستطيع أن تلبس ملابسك وأن تخلعها من غير أن تعير تلك العملية طرفاً من التفكير ، ولكنى على استعداد لأن أتحداك أن تقول لى أى جوربيك تلبسه أولا ، أو أى يد تستخدمها فى فك أزرار صديريتك : ولاحظ أن تلك الروابط بين الحركات ليست لا شعورية فى نفسها فحسب ، بل قد تؤدى إلى سلاسل معقدة من أعمال لا نعلم عنها شيئاً على الأطلاق . ولعلك تذكر حكاية الشاعر الذى كان دائماً شارد الذهن ، فلما ذهب إلى غرفة نومه ليغير ملابسه استعداداً للعشاء ،

لم يلبث أن تولته الدهشة بعد قليل ، إذ وجد نفسه فى الفراش ، فكل عمل من أعماله استدعى آخر فى نظام آلى مستمر . ونحن نقول إنه أتى هذا العمل بحكم العادة ، وليست العادات فى الحقيقة سوى حركات مرتبطة ، كما أن الذكريات أفكار مرتبطة .

بل إنه حتى فى التفكير المتعمد ، تكون الروابط لا شعورية ، فيفيض التيار العصبى من غير تفكير فى المسالك العصبية ، ولا يستثير شرارة الشعور إلا عند ما يقفز من طرف إلى آخر . ولكن يجوز أحياناً أن تكون الارتباطات ظاهرة صريحة لدى الأذكياء . فمثل هؤلاء لا يقفون عند حد ملاحظة الأشياء المرتبطة ، بل يرون كيفية ارتباطها . وهذا ما لا يتوافر لحيوان ما ، فكلبك قد يتعود أن يقرن العصا بالألم ، ولكنه لا يستطيع أن يفسر السبب فى ورود العصا والألم سوياً . وأنت وأنا ندرك (أو نظن أننا ندرك) علاقة عِلّية ، فنلاحظ أن الرعد يأتى « بعد » البرق ، وأن صورة الملك جورج « تشبه » الأصل ، وأن الأسود « عكس » الأبيض . وتلك الصلات أو الحلقات فى تفكيرنا وهى التى يطلق عليها أسماء « التتابع » و « التضاد » و « التشابه » يطلق عليها فى الاصطلاح اسم « العلاقات » ، فيمكن إذن أن نعرف العلاقة بأنها ارتباط شعورى .

ويوضح الفرق تجربة بسيطة : هبنى قلت : (هاك كلمة « أسود » ، فماذا تحملك كلمة « أسود » تفكر فيه ؟) قد تجيب بواحدة من ست كلمات ولتكن حبر ، أبنوس ، زنجى ، سبورة ، السحر الأسود ، أو البحر الأسود ، ويسمى هذا بالتداعى الحر [1] ، وهو هنا آلى أعمى . ولكن هبنى قلت :

(١) لا مانع من أن نسميه الترابط الحر أو المطلق ، ولكن كلمة التداعى الحر سبقت فى الاستعمال وأصبحت شائعة فى الاصطلاح .

« ما ضد أسود ؟ » فإنك تجيب تواً « أبيض » . فأنت لم تستخدم التداعى الحر بل نوعاً خاصاً من التداعى ، فاستعنت بعلاقة تعلم نوعها . ومن أحسن مقاييس الذكاء ما تستخدم فيه قاعدة الكلمات الثلاث ، مثل : « نسبة عال إلى منخفض كنسبة حسن إلى . . . . . ؟ » ويستطيع الطفل فى سن العاشرة أن يعطى الاجابة « ردىء » . ولكى يصل إلى ذلك لا بد أن يركز عقله أولاً فى العلاقة بين « عال » و « منخفض » ليعرف ماهيتها ، وهى علاقة الضدية طبعاً ، فمن الواضح أن الكلمتين متضادتان ، ثم يطبق تلك العلاقة على كلمة « حسن » فيحضر فى عقله على الفور الضد المقابل الذى يلزم لإكمال ذلك النموذج اللفظى . وكل التفكير الإنسانى تقريبا كتفكير كل من الفنان والفيلسوف يتبع ذلك النمط العام .

والعلاقات المكانية أسهل إدراكا من سائر أنواع العلاقات ، ومثلها « الهرة على السجادة » و « على بجانب أحمد » . وهذه يستطيع إدراكها طفل فى الرابعة من عمره . أما العلاقات المنطقية وهى التى نعبر عنها بمثل قولنا : « من حيث إن » و « من ثم » ، فهى ألزم العلاقات للتفكير الواضح ، وضرورية لكل مناقشة صحيحة وبرهان مقبول ، ولكنها للأسف أكثر خفاء من غيرها .

وإنك لتستطيع أن تتبين الفرق بين الناس ، فى مقدرتهم على إدراك العلاقات ، من الموازنة بين خطاب يكتبه طفل ، وفصل فى كتاب يكتبه شخص راشد واضح التفكير . انظر كيف أن كليهما كثيراً ما يستعمل تلك الألفاظ الهادئة البسيطة المعبرة عن الصلة المنطقية ، كأدوات الجر والعطف وما شابهها ، ولكن الطفل يظل يربط جملة بجملة ، بحرف الواو ، مراراً وتكراراً ، كقدماء الكتاب فى الإنجيل ، على حين يبنى العالم استنتاجاته

على « إذا » و « مع أن » و « حينئذ » و « لكن » و « لأن » و « على ذلك » .

الآن تدرك السبب فى أن الحيوانات لا تستطيع التعليل ، وأن الإنسان وحده ، هو الذى يستطيع أن يجادل ويستنتج . فالتعليل متوقف على القدرة على إدراك العلاقات وفصلها وحدها ، تلك القدرة التى امتاز بها الإنسان وحده . على أنها ليست قدرة خفية مقصورة على العبقريين ، أو يمتاز بها رجال البوليس السرى الخصوصى وحدهم ، أو بعض من فلاسفة ما وراء الطبيعة ممن شابت لحاهم ، بل تتوفر لدينا كلنا تقريبا ، ومع ذلك يندر أن يستخدمها أحدنا . فالدكتور واطسون[1] يرى الأدلة على الجريمة مبعثرة ، كلا على حدة ، ولكن شرلوك هولمز هو الذى يضع أصبعه على الصلة التى تربط كل نقطة بزميلتها ، كآثار الأقدام ، بعضها أوضح من الآخر ، تركها على الحصى قاتل ، رجله اليسرى عرجاء . ومن هذا القبيل ما قالته سيدة فى حفل شاى :

« لعلك لم تنسنى يا دكتور براون ، فإنى كنت أول مريض عالجته فى حياتك » ، ولقد كان الدكتور براون منذ لحظة ، قبيل دخول السيدة ، يروى على الحاضرين كيف كان أول مرضاه من معتادى المخدرات لدرجة الجنون . ولم يصل إلى النتيجة الواضحة ممن سمعوا كلام كل منهما سوى اثنين فقط ، ولا شك فى أن الجميع أدركوا الصلتين فى العبارتين الآتيتين : أولاً — بين أول مريض لذلك الطبيب ومدمن المخدرات ، ثانياً — بين السيدة وأول مريض عاده الطبيب ، ولكن لم يفطن أحد إلى أن كليهما شخص واحد . فالتعليل إذن متوقف على إدراك الصلة بين العلاقات .

---

(١) صديق شرلوك هولمز

٤ — المشاعر والانفعالات — يظهر أن هنـاك فى الشعور محتويات أخرى أكثر دقة وأصعب تصنيفا . وأهمها هو ما نسميه فى العرف السائد بالمشاعر ، فكل إحساس أو فكرة يصحبه سرور أو ألم . والألم فى حد ذاته واحد من الإحساسات الفعلية سواء فى ذلك الألم الذى تشعر به إذا شكت جلدك إبرة ، أو الذى تشعر به عندما يقتلع الطبيب أحد أضراسك . وهناك أعصاب معينة خاصة به . غير أن الألم الناتج من ضوء ساطع أو أصوات خشنة غير متناسقة ، ليس فى الحقيقة ألما بمعنى الكلمة ، ولذا يسميه علماء النفس « عدم اللذة » . فاللذة وعدم اللذة ليسا إذاً من الإحساسات ، إذ ليس لهما أعضاء حس معينة ، كالسمع والبصر ، بل يسريان فى كل حياتنا العقلية ، ولذا يعتبران من نوع المشاعر ، والعمل الذى يلوح أنهما يؤديانه غريب فى بابه ، فإذا استطعنا أن نعتمد على نتائج التجارب الدقيقة رأينا أن أهم وظائفهما هى : أن يعمل « عدم اللذة » على محو أى عمل يقترن به ، كما تعمل « اللذة » على تثبيت أى عمل تقترن به وتمكينه .

الآن قد انتهينا تقريبا من قائمة محتويات العقل المختلفة ، كما تبدو للملاحظة الباطنية غير المتقنة . وهذا التحليل أول خطوة لازمة لإقامة علم النفس على أساس علمى . فهو يعطينا أسماء للمسميات ، وبغيره لا تتوفر لدينا الأسماء الاصطلاحية والشارات التى بها نعنون ونبوب ما نصادفه من محتويات الحياة الشعورية . ولكن قد آن الأوان لأن نصحح تلك الصورة . فإلى الآن كنا نتكلم عن الشعور كأنه مركب من قطع وجزيئات صغيرة متعددة كما يتركب المنزل من اللبنات والأحجار المتماسكة بفعل الملاط ، ذلك الوصف ساذج إلى حد كبير ، بل ربما أدى إلى الخطأ .

فأولاً ، إحساساتنا لا تأتى إلينا قط منفصلة انفصالا تاما ، ولكنها تجىء متشابكة على هيئة أشكال أو نماذج . فتلك الكرة التى على المنضدة ليست مجرد بقعة من إحساسات تدركها عينك فإن لها بالإضافة إلى شكلها صلابة معينة أيضاً . وهى ذات وجود ظاهر فى الفضاء ، وحين تركز عليها انتباهك ، تلوح بارزة جلية كما لو سلطت عليها شعاعا ساطعاً . ولا تستطيع أن تقتصر فى وصفها على التعبيرات البصرية ، فإنها ولو لم تلمسها تبدو لك ثقيلة ملساء ، فكيف ترى ملاستها ووزنها إذاً ؟ قد تقول كما قال علماء النفس السابقون ، إنك حين كنت فى المهد صبياً ، كنت تعمل بيديك وعينيك سويا ، فكنت لا ترى شيئاً إلا وأمسكت به ، وبذلك تعودت أن تقرن إحساسات اللون الخاصة بذكريات الثقل واللمس الخاصة ، قرنا لا ينفصم . وإن تلك الذكريات هى الصور العقلية للاحساسات اللمسية التى تكونت لديك عند أول مرة التقطت فيها كرتك . غير أن ذلك التفسير غير مقنع ، ولا ينطبق على سلوك الطفل الحقيق . فالطفل منذ البداية لا يرى أو يلمس إحساسات منفردة أو منفصلة ، بل أشياء مادية . وهو لا يرى إحساسات معينة ، حمراء أو مسطحة ، ثم يقرنها باحساسات أخرى حركية أو لمسية أو وزنية . بل إنه بالنظرة الأولى فى حياته ، يدرك كرة كاملة ، تامة الاستدارة ، صلبة المنظر ، تبدو بارزة فى الوسط الذى يحيط بها (اللهم إلا إذا كنت أنا واهماً) . وبالاختصار إن الإحساسات أشياء معنوية نتعلم كيف نتبينها بنمو خبراتنا وتقدمنا فى السن ، ونستطيع أن نميزها عن غيرها ، ولكننا لا نستطيع فصلها ، وليس من الممكن أن نفترض الحياة باحساسات تنضم بعد ذلك بعضها إلى بعض لتكوّن شيئاً محساً . فليس غرضنا إلا السهولة إذاً حين نصف محتويات العقل كأنها

قطع ثابتة ربط بعضها ببعض ثم رصّت على صينية ، أو خرزات متتابعة نظم بعضها إلى بعض فى سلسلة . فالشعور لا هو بالسلسلة ولا هو بالفسيفساء ، وإنما هو تيار حى دائم التغير ، وليست هناك وصلات بين إحساساتنا أو أفكارنا ، فكل حالة عقلية تتلاشى فى الأخرى من غير فواصل أو قفزات . وحياتنا الشعورية أشبه شىء بماء يجرى متسلسلا براقا ، فلا أنت بمستطيع إحصاء الموجات الدقيقة ولا تسمية النقط الضوئية إلا إذا جمّدت الماء إلى جزيئات ثلجية هامدة ، أو أخذت صورة شمسية جامدة لا حراك فيها . وبالاختصار إذا اعتبرنا العقل مكونا من عناصر أو ذرات شعورية ، أهملنا أهم صفة مميزة له وهى أنه دائب النشاط .

ويتضح ذلك عندما نولى بصرنا نحو مجموعة أخرى تضاف أحيانا إلى قائمة محتويات العقل ، تلك هى الانفعالات . فإلى أى صنف ينتمى كل من الفرح والأسى ، والغضب والخوف والمحبة ؟ أنضعها وحدها فى باب خاص بها ؟ أم ندخلها فى باب اللذة والألم ؟

عندما تأخذك ثورة الغضب فى المرة القادمة ، أو عندما تتقد بقلبك جذوة الحب ، اختبر مشاعرك ، يتضح لك توا أنه ليس من الانفعالات ما هو بسيط يسهل تصنيفه ، فكل انفعال يشمل أشياء كثيرة منها عدد من الإحساسات المضطربة الصادرة عن الأمعاء الداخلية . وتشعر كذلك فيما تشعر به باضطراب جسمى منتشر ، (ولو أنك لا تلاحظه عندئذ اللهم إلا إذا كنت من الشعراء) كحرارة الوجه من صعود الدم إليه ، وطرق على أضلاعك ، ونفس يتحشرج فى حلقك ، وتقلص أو ألم حاد فى جميع أعضائك وأطرافك . هذا الاضطراب غير الإرادى جزء من الاستجابة الغرزية التى تصحب كل تهيج انفعالى عميق وإن من علماء النفس لأكثر

من واحد ينكرون إنكاراً باتا وجود أى انفعال منفصلا عما عداه من محتويات العقل ، ويقولون إن نبضك يسرى وإن ريقك يجف لأنك خائف ، والحق أنك خائف لأن قلبك يخفق ولسانك قد التصق بسقف حلقك . والشعور بتلك الإحساسات هو الشعور بالانفعال . وللإيضاح ، خذ نفساً عميقاً ، وأقم كتفيك ، وابتسم ابتسم ابتسم ، تجد مخاوفك تلاشت فى الحال لأنك بذلك قضيت على ذلك الشعور بالانحطاط الذى هو قوام مخاوفك .

على أن الكثيرين منا يعتقدون أنهم يستطيعون أن يتبينوا خلال هذا الجم الغفير من الإحساسات الغامضة شعوراً أنق ، فريدا فى بابه ، ففى أثناء أى انفعال قوى نحس ميلا أو غرضا داخليا مصحوبا بإحساس بالجهد والنزوع مهما كان هذا الإحساس غامضا . وهذا الإحساس يعتبر أحيانا عنصرا أكيدا من عناصر الشعور . فيبدو لنا أن قوة عقلية مباشرة تدفعنا هنا وهناك . وإنا لنميل إلى تشبيه تلك القوة العقلية بالقاطرة البخارية التى تجر أفكارنا فى طريق معين إلى حيز الفعل .

ويؤدى هذا إلى نقطة أساسية ، بدأ علم النفس الحديث يعيرها اهتماما كبيراً . فقد كان علماء النفس السابقون يعتقدون أنهم أوفوا الحياة العقلية حقها من البحث إذا مافصّلوا الشعور إلى أشكال من الإحساسات والمعانى . ولكن علم النفس الحديث يتعمق أكثر من ذلك ، ويدعى أن تحت ذلك السطح المتموج دوامات من دوافع هائجة . فلكى تفهم خلق شخص وسلوكه ، لا يكفى أن تتسلل إلى داخل جمجمته وأن تلاحظ فعل الأنوار الملونة والظلال التى تتركب منها حياته الشعورية ، بل عليك أن تتسلل أيضاً إلى ما خلف الستر والمناظر المصورة ، وتمد عينيك إلى ما هنالك من الروافع

والأسلاك ، وأن تزحف تحت المسرح لتختبر لوحة أزرار الإضاءة وآلات توليد الـكهرباء .

وهكذا نجد أن طريقة التأمل الباطني القديمة ، أي مجرد ملاحظة النفس الشاعرة ، لها نواحي نقص خطيرة . فبالرغم من أنها تعيننا على كشف محتويات العقل الشعورية ، وتصنيفها وتسميتها ، إلا أنها تتركنا على غير يقين من أمر تلك القوى التي تحدث هذه المحتويات المتقلبة وتوجهها . فعلى علماء النفس إذن أن يكشفوا ثنايا المنطقة اللاشعورية من العقل كما كشفوا المنطقة الشعورية ، ولـكن كيف نهتدي إلى شيء هو بطبيعته غير مشعور به ؟ وأي مصباح يضيء لنا ظلمات القلب ؟ تلك هي الأسئلة العويصة التي نوجه إليها همنا الآن .

٢١٥٤

239
259
239
239
119

1895

اللاشـــعور

بقلم

ارنست جونز

رئيس المجمع الدولى للتحليل النفسى ، ومدير عيادة لندن للتحليل النفسى

الفصل الثالث

ما هو التحليل النفسى

روى لكم الدكتور بيرت الشىء الكثير عن عمل العقل الشعورى ، وجعل يبدى بين آونة وأخرى بعض ملاحظات قصد تمهيد الطريق لما سأحدثكم عنه من طبقات العقل العميقة المدفونة ، وهذه الدراسة تقترن باسم « التحليل النفسى » .

ولعله من الواجب أن نسيطر على الدوافع العميقة فى العقل البشرى ، تلك الدوافع التى تعتبر المحرك الحقيقى لنا ، فيؤدى بنا ذلك إلى نتائج خطيرة الشأن فى تاريخ الإنسان . ويعلم الله أن تلك الفوضى التى أحدثناها فى ذلك العالم لا بد لإصلاحها من تعديل جوهرى فى الراجح . فإن صح هذا الرأى كان لهذه اللحظة الحاضرة أهميـة تاريخية ، إذ أنها أول مرة تدخل فيها إدارة الإذاعة البريطانية موضوع التحليل النفسى فى برنامجها [1] . ويخيل إلى أن بعض الجهات قد استولى عليها ذعر غير قليل من فكرة السماح لمحلل نفسى بالتحدث إلى الجمهور ، رغم أنه يصور فى أغلب الأحيان كشيطان خطر . وأنا واثق أن هذا التصوير يرجع إلى سوء فهم لكل من الجمهور وعلماء التحليل النفسى على حد سواء . فالحياة لها مشكلاتها ، وإذا كانت هناك أيضا مشكلات فى داخل نفوسنا ، فى تصرفات عقولنا ، فلن

---

(١) تذكر القارىء بأن تلك الفصول كانت محاضرات ألقاها المؤلفون فى الإذاعة اللاسلكية بانجلترا .

يجدى معنا تجاهلها ، كما تتجاهل النعامة صائديها بوضع رأسها فى الرمل ، سواء أكان ذلك فى مشكلات الحياة أم فى مشكلات نفوسنا ، فالمشكلات موجودة لتحل لا لتتجاهل .

وعند ما تتساءلون « ماهو التحليل النفسى » ، أرجوكم أن تتناسوا أغلب ما سمعتم عنه من الصحافة العادية ومن غيرها . وإليكم مثلا يوضح تماماً ما أعنيه ، وهو عبارة مقتبسة من جريدة (راديو تايمز) وهى « إن التحليل النفسى اصطلاح غالباً ما يساء فهمه ويستعمل فى غير دقة » . وفى نفس الجملة يرد تعريفه بأنه « العلم الذى يقترن بأسماء كل من فرويد ويونج وآدلر » . وكان الواجب أن يقال « الذى يقترن خطأ فى الصحافة العادية بأسماء .. الخ » . وفى الحقيقة إن التحليل النفسى لا يقترن إلا باسم فرويد ومن يستخدمون طرقه وهى لا يستخدمها الآخرون .

وهناك أشياء كثيرة يتبرأ منها التحليل النفسى ، وهى بعينها الأشياء التى تقرأون عنها فى الغالب . فمثلا يعتقد الكثيرون أن من أهم أسس التحليل النفسى الدعوة إلى حرية التعبير عن النفس وطرح القيود جانباً . ولكن الحقيقة هى أن التحليل النفسى يؤدى لا محالة إلى ضبط النفس . ومهما يكن من أمر التحليل النفسى فلا شك أن هناك شيئاً إداً يحيط به . ولكن حين تجد غيره من الأفكار الجديدة سواء أكانت سهلة الفهم أم غاية فى الصعوبة ، كنظرية أينشتين عن النسبية مثلا ، لا يساء فهمها بذلك الشكل العجيب ، تجد التحليل النفسى تقلب معانيه إلى الضد تماماً . لا بد لكل ذلك من سبب ، وسيتضح لك حالا ما هو . فلنبدأ الآن بتعريف صحيح للتحليل النفسى . لقد كان التحليل النفسى فى مبدأ الأمر ينطوى على طريقة خاصة ابتكرها الأستاذ فرويد فى ڤينا لعلاج طائفة من الاضطرابات العصبية

ولكن الاسم يستعمل كثيراً وبحق ليدل على المعرفة التى كسبت باستخدام تلك الطريقة ، ولو كان هذا كل ما هنالك لكان لك أن تعجب من قيام كل تلك الضجة ، ما دام الأمر لا يعنى إلا طائفة من الأطباء الإخصائيين ومرضاهم الذين يشكون من هذا النوع الخاص . غير أن الأمر أكثر من ذلك ، وأكتفى هنا بأن أقول إن تلك الاضطرابات العصبية المذكورة وثيقة الصلة بمسألة الشقاء الإنسانى كلها . ولقد كان من نتائج المحاولات التى بذلت لتخفيفه باستقصاء أسبابه أن بحثت طبقات فى العقل لم يسبق درسها من قبل ، وابتكرت طريقة خاصة لذلك البحث . وقد أدخل بالطبع تحسين كبير على تلك الطريقة منذ ابتكارها من أربعين سنة مضت . ويرجع جميع الفضل فيه إلى فرويد وغيره من الباحثين . وإنى أستطيع أن أقول إن فرويد لا يزال منهمكا فى محاولة تحسينها رغم أنه الآن فى السابعة والسبعين من عمره . (١)

ولقد تبين من اختبار التعديلات والإصلاحات التى أدخلت على الطريقة الأصلية أن هذه المحاولات أضاعت الغرض الذى بذلت من أجله وابتعدت عن هدفها الأصلى بمجرد الخروج عن شروط معينة تعتبر جوهرية للعمل . ولقد أصبح من الممكن معرفة تلك الشروط أو المبادئ الجوهرية فى الطريقة ، فصارت كل الحالات التى لا تراعيها خارجة عن روح التحليل النفسى فى صميمها . وقيمة تلك المحاولات المذكورة كالتى قام بها آدلر ويونج ورانك وشتيكل وغيرهم لا تزال موضع جدل كثير ولا أريد مناقشتها هنا ، ولكن الخلط بينها وبين التحليل النفسى لا يقف أثره عند حد المضايقة بل يؤدى إلى الفوضى والارتباك . وتلك الطرق كلها تنزع إلى

(١) توفى فرويد منذ صدور ذلك الكتاب .

الانحطاط لمستوى الإيحاء أو الاستهواء الذى هو المقابل الحقيق الوحيد للتحليل النفسى .

ولعلكم الآن تريدون أن تعلموا شيئا عن الطريقة ذاتها ، ولذا سأحاول أن أزودكم بقليل مما يستثير شوقكم ، ولكنى أخاف أن لا أحقق أمل من كان منكم يتوقع أن أخبره كيف يستخدمها بنفسه . فإجراء عملية جراحية على العقل ، أى إجراء التحليل النفسى ، أصعب بكثير من إجرائها على مخ الإنسان ، ومع أن انجلترا ليس بها خمسون شخصاً يسرهم أن يجروا عملية على مخ حى ، ومع أن من يستطيعون إجراء عملية على العقل أقل من ذلك العدد أيضاً ، فإن هناك آلافا على استعداد للمجازفة ، ناعمين فى جهلهم بما تنطوى عليه من مصاعب .

ومهما يكن فإنى أعتزم أن أخبركم بشىء عن تلك الطريقة ، مبتدئاً بشىء فيه تناقض . فرجال التحليل ينادون عادة ، وكان ينادى معهم فرويد نفسه أيضاً ، بأن أساس التحليل النفسى هو بوجه عام طريقة التداعى الحر . ولكننا نكون أقرب إلى الدقة إذا قلنا إن التحليل النفسى قد قام على دحض فرويد لما يسمى تداعى المعانى الحر ، وربما كان هذا أعظم كشوفه . وتلك فكرة بسيطة تعلمون كلكم شيئا عنها . فكل منا يسترسل بعض الأحيان فى أفكاره ثم يندهش إلى ما أدت به إليه ، وكلنا نفعل ذلك فى أحلام اليقظة ، والأطفال كثيراً ما تلذ لهم مزاولته ويدعون أفكارهم تسترسل لمجرد معرفة ما تؤدى بهم إليه . والمسألة هى أن يوقف الإنسان عمل الإرادة التى تسيطر على التفكير العادى أو المحادثة العادية وأن يدع العقل يفكر له بدل أن يفكر هو لنفسه . أواضح ما أقول ؟ لأفعل ذلك أمامكم ، فأبدأ بأى شىء يسترعى انتباهى ، وليكن تلك الباقة من أزهار الماجنوليا الصناعية التى

اختارها أولو الأمر فى إدارة الإذاعة لتدخل البهجة فى هذا الاستوديو . أراها مصنوعة من ريش طيور البحر الحقيق . وهاأنذا أبدأ — طيور البحر — تذكرنى هذه بدراسة الأنواع المختلفة من طيور البحر لما كنت فى جزر سيلى — سيلى ، ما أغرب هذا الاسم لمكان .. أذكر سيلى سفوك ومعناها على ما قيل لى « سفوك المقدسة » ، إذ أن سيلى فى الأصل معناها برىء أو مبارك [1] ولا تزال تدل عليه اللفظة الألمانية المشابهة ، وهنا أسترسل فى بعض ذكريات شخصية عن تعلم اللغة الألمانية . وقد حان الوقت للانتهاء فإذا بى على أميال عديدة من الماجنوليا الصناعية أو طيور البحر . هذا معنى التداعى . وكثيراً ما يجد الإنسان لذة فى محاولة تتبع الخطى إلى الوراء ، والعجب من كيفية انتقاله من واحدة إلى أخرى . ويستطيع الإنسان فى العادة أن يجد سببا ، كعلاقة فى وزن الكلمتين المتجاورتين أو معناهما ومع ذلك يعجب الإنسان لماذا استدعت تلك الكلمة ما استدعته بالذات مع وجود كثير غيره يعادله بشكل واضح . فلماذا تدرجت أنا منذ قليل من جزر سيلى إلى سفوك بدلا من أى جزر أخرى مع اهتمامى بالكثير منها . لماذا تعلق انتباهى الجائل بكلمة سيلى بدلا من كلمة جزر ، فهل صحيح أن تلك الكلمة كانت فى مؤخرة عقلى وأنا غير عالم بها منذ تلك اللحظة التى نظرت فيها إلى أزهار الماجنوليا الصناعية ؟ إنها لفكرة قبيحة . أفكنت محقراً لذوق شركة الإذاعة فى التجميل ، ألا فلأطردن ذلك الاحتمال الدنس فى الحال من ذهنى .

ذلك المثل الصغير الذى أؤكد لكم أنه جاء من تلقاء نفسى ، يوضح نقطاً عديدة ، فلب الفكرة التى فطن إليها فرويد هو أنه لا بد من وجود

(١) وهى تستعمل الآن فى معنى ساذج أو عبيط .

علاقة بين أى فكرتين تلى إحداهما الأخرى ، سواء أكانت تلك العلاقة ظاهرة أم غير ظاهرة . وهذا عكس الاعتقاد العام بأن العقل لديه من القوة ما يستطيع بها بمحض « إرادته الحرة » أن يأتى بأية فكرة لا علاقة تربطها بآخر شىء كان فيه ، وأن العقل يستطيع مثلا أن يغير الموضوع حينما يشاء من غير أية إشارة إلى ماضيه القريب . فأحياناً يكون لدى الإنسان داع قوى لتغيير الموضوع لأسباب اجتماعية ، فاذا راقبت ما يحدث فى مثل تلك الظروف وجدت أن القول أسهل من الفعل ، وأن من يحاول ذلك يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار . وسأخبركم بحادثة من ذلك القبيل ، وقعت لى قريباً ، فى حفلة عشاء صغيرة ، ولم يكن رب البيت وزوجته على وفاق فيما بينهما على ما يظهر . وحدث أن أجاب الزوج إجابة لاذعة على عبارة مثيرة فاهت بها زوجته . وتلت ذلك فترة سكون مؤلم . فعمل أحد الضيوف وحاول فى شهامة أن يغير مجرى الحديث إلى موضوع أهدأ ، وإليك ما فعل : بدأ بوصف رحلة كان قد قام بها حديثاً فى إيرلنده ، وتدرج إلى البحث فى خلق الإيرلنديين . ثم أخذه الحماس وعبّر عن رأيه فيهم بأن من المحال الاتفاق معهم فى السياسة ، ثم قال « سيظلون فى شجار حتى يحصلوا على الانفصال التام » . فاذا بذلك يعيدنا كلنا فجأة إلى ما كنا فيه من ارتباك ، وكان علينا أن نحاول من جديد إيجاد موضوع أسلم عاقبة من هذا .

ترى إذن أنه ليس من السهل أن تهجر موضوعاً هجراً تاماً إلى آخر لا علاقة له به على الإطلاق ، والحادثة التى ذكرتها تبين أيضاً أن صعوبة بدء موضوع جديد من غير تأثر بسلسلة الأفكار السابقة ، تزداد إذا ما صحب الموضوع السابق انفعال أو شعور شخصى . وهذا هو الحال فى التحليل النفسى ، إذ لا يكاد الإنسان يسير فى فحص نفسه شوطاً حتى يصادف موضوعاً

متصلا بمشاعره الشخصية . وعند ما يكون الشخص منهمكا فى سلسلة أفكار شعورية ، كما فى المحادثة أو المناقشة العادية ، تكون العلاقة بين الأفكار المتتابعة واضحة ، ولو أن ذلك لا ينطبق على ذوى التفكير المبعثر ، الذين لا يثبتون على موضوع واحد . أما إذا أرخى الإنسان العنان لعقله ، وقلل من السيطرة والتوجيه المعتاد لأفكاره ، وسمح لعقله بأن يفكر كما يشاء ، ولأفكاره بأن ترد من تلقاء نفسها على قدر المستطاع . فانه يجد صعوبة فى تتبع التسلسل ، ويعجب من أن تلك الفكرة أتت بعد التى سبقتها ، ويعجز عن كشف العلاقة بينهما ، إذ يتطلب ذلك مراجعة سلسلة الأفكار ، وتركيز الانتباه فيها ، والبحث عن تفسيرات أكثر للحلقات المفقودة التى لم يفصح عنها . وإن الشخص الذى يفحص نفسه ليستطيع بالتأمل أن يلقى ضوءاً على تلك الحلقات ، ولكنه قد يعجز عن ذلك فى بعض الأحيان ، فيفترض أن السبب هو عدم وجود ارتباط . ولكن فرويد يعطى سبباً مختلفاً كل الاختلاف فيقول : إنه فى تلك الأحوال توجد دائما حلقة ارتباط مستترة ، لا يدرى بها الشخص لأسباب معينة . فحلقة الارتباط هى أيضاً من العمليات العقلية ، وتنتمى إلى منطقة فى العقل لا يدرى بها الشخص أو لا يشعر بها ، وقد أطلق عليها اسم « اللاشعور » . وجاء فرويد بطريقة يمكن بها إيضاح طبيعة الحلقة المستترة أو اللاشعورية ودراستها فى التحليل النفسى . وهنا نصل إلى نقطة أخرى . فانه لو صح افتراض فرويد الذى ذكرناه الآن ، لكان معناه أن الإنسان يعيش فى عالم لا يعرف كنهه . أما إذا اهتدينا إلى أن للانسان عقلا لا شعوريا انفتحت أمامنا آفاق لم نكن لنتصورها ، ولو أنى لا أقول إنها لم يصل إليها حدس أو تخمين ، إذ أن الكثيرين من الفلاسفة وكل كبار الشعراء قد داخلهم أن نفس الإنسان

تنطوى على أشياء أكثر مما وصل إليه علمه ، وأنه لا يعرف إلا بعض ما يجرى فى عقله وما قد يكون ذا أثر فى سلوكه ، والحق يقال إن هناك فى داخلية نفسه موارد خفية عميقة يستمد منها أعمق معتقداته ، وأشد انفعالاته ، وأكبر آماله .

ولنعد ثانية إلى الكلام عن الطريقة ذاتها على ما به من جفاف . لقد لوحظ أن ما أسميناه الدوافع المستترة التى تربط الأفكار المتتابعة عند ما ترتفع إلى السطح تشترك كلها فى صفة واحدة ، وهذا هو الكشف الثانى من الكشوف الثلاثة الرئيسية التى وصل إليها فرويد والتى تتركب منها نظرية التحليل النفسى . فالأول كان الاهتداء إلى وجود اللاشعور والطريق إليه ، والثانى هو كشف السبب فى عدم درايتنا باللاشعور وهو ما سأخبركم به الآن . فالحلقات المستترة التى تفتح الطريق إلى اللاشعور لا ترحب بها الشخصية الشاعرة ، وتتنافى مع فكرة الإنسان عن نفسه، ومع ما يسميه هو نفسه الحقيقة . وهناك طرق كثيرة لظهور ذلك الإعراض والتنافى ، كما أن بعض الأفكار قد يلقى إعراضاً منا أكثر من غيره . فالفكرة قد تجرح كبرياء الشخص وصورته التى يحتفظ بها عن نفسه ، أو قد تشمئز منها حاسته الأخلاقية أو الجمالية ، أو قد ترعبه لأنها تكشف عن دافع لا يستطيع السيطرة عليه ، وهكذا . ولنبدأ بفكرة لا تصادف إلا القليل من المعارضة . لقد ذكرت لكم واحدة فى قائمة التداعى الحر القصيرة التى أتيت بها لتسليتكم منذ قليل ، وقد اعترتنى الدهشة عند ما وجدت أنى على غير علم منى ، أبطن نقداً مراً لذوق شركة الإذاعة البريطانية التى أنا ضيفها فى تجميل دارها الفخمة الجديدة . نعم إنى لم آخذ سوى لحظة بسيطة لأتشجع وأقول لنفسى « وليكن ، فلم لا أنتقدها ؟ » . وفى أثناء التحليل النفسى

سرعان ما يكتشف المرء عن نفسه كثيراً مما لم يكن فى حسبانه بطريقة بسيطة كهذه. ولكن يحدث فى كثير من الأحيان ألا يصل إلى ذلك إلا بطريقة ملتوية جداً أو مؤلمة ، فتأخذ النفس تناضل ضدها بالطبع محاولة تفسير الحقائق والإقلال من شأنها ، وبعبارة أخرى ، تقاوم النفس كل محاولة لتبين الحقائق المدفونة حتى ولو كانت تلك الحقائق واضحة المشاهد ، غير متأثرة بالمشاعر الشخصية . لهذا افترض فرويد حينئذ ، ولدينا أسباب قوية لتصديقه ، أن القوة التى تتمثل بكل وضوح فى تلك المقاومة لا بد أن تكون هى نفس القوة التى منعت النفس فى الأصل من العلم بالفكرة المستهجنة . ويسمى ذلك بالكبت . وهى كلمة تحدث أحياناً شيئاً من الخلط لما لها من معان أخرى . فمن الهراء ، مثلا ، أن يقال إن التحليل النفسى يحظر أن يكبت الطفل . فالكبت فى التحليل النفسى ، لا يعنى إبعاد الأفكار من الشعور . وسواء أكان كبتها ، أى إبعادها من الشعور ، مضراً أم نافعاً ، فتلك مسألة أخرى يتوقف حلها على الظروف ، ولكن العملية ذاتها معروفة لحد ما ، فكلنا قد نُصح يوما ما بأن يعالج الفكرة المؤلمة بإخراجها من عقله . ولكن قلما يفكر أحد فى التساؤل عن المكان الذى تذهب إليه بعد إخراجها من العقل . والجواب هو اللاشعور ، حيث تظل كامنة إلى أن يستثيرها نوع من التداعى ، أو تظل تعمل مستقلة عن الشعور محدثة نتائج ملتوية لا يستطيع الشخص فهمها على الإطلاق . غير أن إبعاد الأشياء من العقل على هذا النمط نصف المتعمد ، لا يشمل إلا النزر اليسير مما نقصده بالكبت ، فان الآراء التى أخرجت على هذا النحو ، تفوقها فى الأهمية إلى حد كبير تلك الآراء التى لم يسمح لها بالدخول قط ، والتى لم يعلم بها الشخص يوما ما على الإطلاق ، ولم تكن لديه عن وجودها

أية فكرة ولو بسيطة ، إذ أن الطبقات العميقة فى العقل ، أى اللاشعور الحقيق ، خفى بكل معانى الكلمة . فمثلا لا يشعر أحد ، إلا إذا كان مجنونا ، بأنه يود أكل أمه ، ومع ذلك فهى فكرة كثيرة الحدوث فى اللاشعور ، كما أنها غالبا ما تكون قوية .

قلت منذ قليل إن درجة النفور من الأفكار المكبوتة تختلف اختلافا بينا ، ففى كثير من الأحوال يمكن التغلب عليه كلية بجهد بسيط ، ولكن الأمر ليس كذلك مع الأفكار الدفينة البعيدة العمق ، فإن الشخص سوف ينكر فى الغالب بما أوتى من قوة أى احتمال لوجود مثل تلك الفكرة الغريبة عنه فى أية جهة من جهات عقله ، كما أنه من المهم جدا إبعاد تلك الأفكار الدفينة المكبوتة من النفس الشاعرة ، حتى إنه تقام استعدادات ووسائل دفاع قوية فى شخصية الفرد لهذ الغرض عمدا ، ولقد تصبح هذه فى كثير من الأحيان جزءا من خلق الشخص . وكثيرا ما تكون تلك الوسائل الدفاعية عزيزة على شخصية المرء ، حتى إنه ليفضل الموت على التهاون فيها . وتستطيع أن ترى أن ذلك الوصف ينطبق على بعض الاتجاهات العقلية التى نسميها المثل العليا فى الحياة . فلا عجب إذن إن كان هناك اشمئزاز عميق من التحليل النفسى ، الذى يحاول كشف الستار عن تلك الأفكار المكبوتة .

وكل هذا معناه أن فى أعماق العقل كفاحا عنيفا مستعرا بين مناطق العقل المختلفة ، ولكننا لا نراها على تلك الحال ، بل نرى النتائج النهائية فقط ، وإن الكثير من جهودنا واهتمامنا وانفعالاتنا وكفاحنا مع أنفسنا ، ليس فى جوهره إلا محاولات نبذلها فى الحياة لتسكين ذلك التطاحن اللاشعورى . وأظنكم ترغبون الآن فى معرفة شىء عن طبيعة الأفكار والدوافع

المكبونة التى جعلت أشير إليها . فسأروى لكم شيئاً عنها فى الحديث التالى [1] . ولكنى أسبق هذا الحديث فأقول إنها كلها تتلخص فى كلمتى « الحب » و « البغض » . فالعقل اللاشعورى مستعد لكثير من الهوى الجامح والقسوة البالغة التى لا يستطيعها عقلنا الشاعر . وإذا تعمقت فى الموضوع تبين لك أن فى الإنسان من الخير والشر أكثر مما يبدو على السطح ، وأنه فى أعماق كيانه فى وقت معا أطهار وأفسد مما يظن هو . كما أن كل ذلك التضارب يرجع إلى أوائل سنى الطفولة ، فاننا إذا استقصينا محتويات اللاشعور إلى أصلها وجدناها فى الرضيع . وإن من أغرب ما كشفه فرويد (وهو الثالث من الكشوف التى أشرت إليها) أن الطفل الصغير له حياة جنسية دقيقة معقدة ، تشمل كلا من عقله وجسمه ، ذلك الكشف الذى كانت له رنة دهشة ومعارضة هائلة . وربما كان هذا هو السر فى صعوبة قبول نتائج التحليل النفسى ، بل حتى فى أخذها من غير تحريف .

لقد تدرجنا من نقط تافهة فى مظهرها إلى بعض من المسائل تعد من أهم مافى الحياة وهى أعماق كيان الإنسان . وأطلب إليكم الآن أن تذكروا تلك الكشوف الثلاثة التى أدى إليها استخدام طريقة التحليل النفسى . فالأول هو وجود العقل اللاشعورى ، أى أنه تحت سطح العقل الذى ندرى به ، يوجد عقل لاشعورى ، وهو فعال معقد التركيب ، له تأثير بالغ فينا من حيث لانتوقع . والثانى هو وجود الكبت ، أى أن جزءاً كبيراً من عقلنا يحول بينه وبين علمنا قوى معينة تؤدى إلى تقسيم العقل إلى مناطق منفصلة لا توافق بينها ، والثالث أن العقل اللاشعورى ، بما فيه من كفاح يرجع إلى سنى الطفولة المبكرة ، حين تلعب الدوافع الجنسية فى الأطوار الأولى من نمو العقل دوراً لا يفطن إليه أحد .

(١) الفصل التالى

الفصل الرابع

قوة اللاشعور

وردت إلى أسئلة كثيرة وجهها إلى مراسلو إدارة الإذاعة البريطانية، وأود أن أجيب عن واحد أو اثنين منهما قبل أن أبدأ السؤال الذى تكرر أكثر من غيره هو « أيستطيع التحليل النفسى أن يتغلب على ما فى العقل اللاشعورى من مخاوف وكفاح ؟ وما هى الفائدة العملية لما يبدو كأنه معرفة نظرية ؟ » وإنى أرجوكم أن تذكروا الغرض من هذه السلسلة من الأحاديث، والقيود التى كان من المناسب مراعاتها فيها . فالغرض هو إثارة اهتمامكم لا أكثر ولا أقل، وليس من شأن إدارة الإذاعة أن تبحث كيف يفيدكم هذا الاهتمام، فذلك شأنكم أنتم، وتستطيعون إذا أردتم أن تجدوا كيفية الاستفادة من تلك المعرفة عمليا، فى النشرة الصغيرة التى تصدر عن هذه السلسلة من الأحاديث وتباع بخمسة بنسات . وليس من شأنى أن أتخطى إلى مواضيع كيفية علاج الحالات المختلفة، فذلك ينتقل بنا إلى مسائل العلاج الطبى، الذى لا تلائمه الإذاعة بحال .

ومن الأسئلة الكثيرة الورود أيضا، « ما تأثير التحليل النفسى فى موقفنا نحو المسئولية الأخلاقيـة ؟ »، وأجيب عنه بكلمة واحدة، « إنه يزيد فى مسئولية الفرد ودقته فيما يتعلق بأعمال نفسه ولكنه يجعله أكثر تساهلا وتسامحا فيما يتعلق بأعمال الآخرين » .

ألمعت فى حديثى السابق إلى أن العقـل اللاشعورى ، وهو المنطقة الخاصة من العقل التى يدرسها التحليل النفسى ، أبعد شىء من أن يكون حفرة تلقى فيها أفكار منسية لا قيمة لهـا ، فهو عكس ذلك تماما ، إذ هو المحرك الأول لحياتنا ، ومصدر أغلب طاقتنا العقلية . وقوته على التأثير فينا أى فى عقولنا الشاعرة ، تأتى عن طريقتين . فإما أن تتحول طاقته إلى طاقة شعورية ، إذا كانت على وفاق معنا ، وإما أن تظل مستقلة تعترضنا كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولنتأمل الحالة الأولى . إن دوافع اللاشعور وهى تتألف من شتى الرغبات والمطامع الفطرية الأولية ، تتحول عادة إلى مطامع وميول شعورية . ولـكنها لا تتحول إلا فى حالات خاصة ، وذلك حين يمكن تعديلها وتنقيحها إلى درجة ترضى الرقابة الدقيقة التى تعمل من تلقاء ذاتها دون أن نعلم بها . وعليها إذن أن تكون قادرة على مواجهة الامتحان . فإن حافزا إلى القسوة والإجرام مثلا لا يسمح له باستثارة اهتمام شعورى إلا على شريطة واحدة ، وهى ألا يتنبه المرء إلى أن نفسه تحوى مثل ذلك الحافز ، وإذن يستطيع أن يقرأ ما يلذ له من الروايات البوليسية ، أو محاكمات القتلة ، وينعم بمشاهدة الروايات السينمائيـة التى تعرض حيل اللصوص . أما إن كان جادا أكثر ، فإنه يستطيع أن يصير محاميا جنائيا أو قاضـيا ، أو جزارا ، أو جراحا ، أو أن يحترف أية مهنة أخرى يلعب فيها الإيذاء أو سفك الدماء دورا رئيسيا . ويسير الأمر فى مجراه ما دامت الشروط الأساسية مستوفاة ، وما دام تحول الحافز الفطرى تاما . ترون إذن أنى قدمت إليكم فكرتين مختلفتين ، كلتاهما يصعب أن تفهم فهما تاما . فمن العجب العجاب أن نتصور أن ما نعلم حق العلم أنه عقلنا ، أى عقلنا الشاعر ، وهو أقرب الحقائق إلينا ، والشىء الذى نعرفه أكثر

من معرفتنا بشيء آخر فى الدنيا كلها ، وهو نفسنا العزيزة ، هذا ليس إلا شطراً فقط من عقلنا الكلى ، وأنه لم يسمح لنا إلا بمعرفة جزء فقط من نفسنا قد اختير بعناية ودقة للغرض المقصود . وكم من الصرامة فى ذلك الاختيار ففى الأقطار التى تسيطر فيها الحكومة سيطرة تامة على الصحافة لا يستطيع الجمهور أخذ فكرة كاملة عن ماجريات الأمور فى داخل القطر أو فى خارجه . وأكثر من ذلك أن الجزء الذى سمح له بمعرفته قد كتب باحتراس ليتمشى مع رغبات خاصة ، فكأن المعلومات التى تقدم للجمهور تنتقى أولا ثم تحرّف . وإنى لأستطيع أن أقول إنه ما من حكومة أوتوقراطية تعادل رقابتها فى الشدة والصرامة تلك الرقابة التى يفرضها كل فرد فى داخلية نفسه ، كل هذا وهو لا يدرى شيئا عن وجود رقابة ما أو أن أفكاره تأتى من أى مكان آخر غير نفسه التى يعرفها حق المعرفة جد المعرفة أى عقله الشاعر ، فهو لا يتريث ليسأل نفسه عن سبب حبه لهذا أو كرهه لذاك . وقد ينتحل سببا لكل منهما ، ويسمى «التبرير» ولكن ما يقصده فى الحقيقة بكل بساطة «طبعا أنا أكره هذا أو ذاك وهكذا أنا» . ولكنى أقول لكم أنه فى الحقيقة لا يعرف السبب على الإطلاق ، وإنه ليست لديه أية فكرة عن الأفكار المعقدة التى تدور فى أعماق عقله ، فتقرر ما إذا كان يحب هذا أو يكره ذاك .

إنى على يقين من أن ذلك كله يبدو غير معقول ، فكيف أقربه ولو قليلا من المعقول ، وأصل بينه وبين الأفكار المألوفة لكم نوعا ما ؟ ومع كل ذلك ، فإن بعضنا ليعرض له ، من آن لآخر ، شعور غامض بأن حياته العقلية تحوى أشياء أكثر مما وصل إليه علمه ، وأنه لا يفهم نفسه فهما حقيقيا . ويجرى بخاطرى الآن اسم أغنية بسيطة كانت منتشرة فى صباى ، أول

سطر فيها « لست أدرى لم أهواك ولكنى أهواك ، أهواك » . فكاتب تلك الأغنية كان يعبر عن حقيقة ثابتة على غير علم منه ، فكل محب يجد نفسه فى مأزق لو سئل عن السبب فى اعتقاده أن حبيبته تختلف عن كل من عداها من نساء الأرض اختلافا تاما» والحقيقة أن المحب لا يكاد يخالجه أى شك فى أن تفوق محبوبه أمر لا يحتاج إلى برهان ، ولا تحدثه نفسه أبدا بأن يتساءل عن السبب فى أن غيره من الرجال تغيب عنهم تلك الحقيقة الساطعة .

وإذا تطرقنا من ظروف الحياة العادية إلى الظروف النادرة التى تطرأ أحيانا على بنى الإنسان ، وجدنا نفس الفكرة . فأغلب فطاحل الشعراء يعلمون أن أروع ما كتبوه لم يأت عن صنعة متعمدة ، بل أتاهم على أجنحة ملاك أو روح ، تهفو عليهم من حيث لا يعلمون ، أو يحسون أنه آت من أعماق مجهولة فى نفوسهم ، حتى إن الإغريق كانوا يظنون أن الشعراء تحت تأثير أرواح تغشاهم ، كما كان أهل القرون الوسطى يظنون أن النساء المصابات بالهستريا قد استحوذت عليهن شياطين يمكن طردها ، وما من نبى عظيم يعتقد أن رسالته التى تمتلك زمام قلبه ، من مبتكرات عقله الشاعر ، وإنما يعتبر نفسه آلة للوحى الذى يعزوه إلى مصدر سماوى .

تلك بعض أمثلة تذكرنا لو تريثنا ، بأننا فى كثير من مواقف الحياة نحس بوجود شىء يؤثر فينا غير تلك المؤثرات التى نستطيع فهمها . وذلك ينطبق على النتيجة الأخرى العظيمة للتحليل النفسى ، أى تلك الأهمية التى للكفاح العقلى الباطنى فى حياتنا . يرى معلمو الأخلاق والدين فى هذا الكفاح نضالا حادا بين النزعات الخيِّرة والنزعات الشريرة فينا ، ويصورون حياة الإنسان كلها كمعركة مستمرة غرضها الوصول إلى حالة

تطمئن فيها الضمائر ، وتصلح الأعمال ، ويرفرف عليها لواء السعادة والوئام . والحق أن الغرض الأسمى للدين ، كما يلوح لنا هو معالجة ذلك الكفاح حتى ينتصر جانب الخير فى الإنسان على جانب الشر . ويؤيد التحليل النفسى ذلك الرأى عن الحياة تأييدا كبيرا ، ويرى أن مصادر ذلك التضارب كائنة فى الأعماق اللاشعورية لشخصية المرء ، وأنها أبعد بكثير مما كان يظن . ومعنى هذا أننا فى أعماق نفوسنا نشعر بالخطيئة أكثر مما ندرى .

دعونى أعطكم مثالا لهذا . كثيرا ما نسمع فى أيامنا هذه بالاصطلاح « عقدة النقص » فما معناه فى الحقيقة ؟ إنه اصطلاح واسع المعنى ، ولكن كلمة « النقص » تعطى وصفا واضحا لتلك الحالة العقلية . فصاحبها مصاب بالشعور بالذات ، فتراه منشغلا دائما بما يتركه فى الناس من أثر ، شديد الانزعاج مما يتوهمه ازدراء ، حساسا لمقدار ما يعيره الناس من إلتفات فى حياته ، وقد ينشغل باله أكثر مما ينبغى إذا ما شك فى ذكائه أحد ، ويؤلمه أو يهيج غضبه أن يُسخر منه لبطئه فى فهم نكتة أو أن تنتقد آراؤه . وعند آخرين يرتبط هذا الشعور بمظهرهم الشخصى ، فتشقى حياتهم من جراء فكرة عيب أو نقص فى خلقتهم ، كأن تكون سيقانهم قصيرة أو غليظة ، أو تكون أنوفهم طويلة ، أو ذقونهم غير بارزة بروزا كافيا وهكذا . ولا حاجة لأن أستمر فى تعديد ما لا نهاية له من أنواع الشعور بالنقص ، غير أنى سأذكر لكم شيئا واحد طريفا عنها كلها ، فسواء أكان الشكل الذى تتخذه جسميا أم اجتماعيا أم عقليا أم غير ذلك ، فكلها من غير استثناء تنجم عن شعور راسخ بالنقص الأخلاقى . إنى موقن من أن هذا سيدهشكم ، فإن ذلك الشعور غالبا ما يصيب أناسا ممن اشتهروا بالفضل ، وممن لا يخطر ببال أحد أن يوجه إليهم أى نقد أخلاقى ، ومع ذلك فى

نفس كل منهم جزء غير راض عن صاحبه ، يتهمه بسوء الأخلاق . وسأخبركم أيضا بما هو أعجب ، فإن ذلك الجزء من اللاشعور ، الشديد التعسف كما ذكرنا له قوانين أخلاقية تختلف اختلافا بيّنا عن قوانيننا الأخلاقية اللاشعورية ، وهو نوع من الضمير ، وإن كنت أفضل أن نستعمل له أسماء أخرى ، وليكن « الذات العليا » أو « سوبر إيجو » حتى لا يختلط بالمعنى المعتاد لكلمة الضمير . وتراه أحيانا لا يقف عند حد السماح بارتكاب أعمال إجرامية لا تقرها الشخصية الشاعرة من الوجهة الاجتماعية بل يحض عليها حضا . فهو يشبه فى ذلك بعض الشبه الجمعيات السرية فى رما وغيرها ممن كانوا يرتكبون القتل والتعذيب باسم الدين . هذه إحدى نظريات التحليل النفسى المتلوية ، وهى تذهب كما ترون إلى أن شطرا كبيرا من الإجرام المعتاد ينتج من الكفاح الأخلاقى اللاشعورى . فإن كان هذا حقا فلسوف يحدث انقلابا فى آرائنا عن محاربة الإجرام . ولكن ذلك الشطر اللاشعورى الذى يتعسف من الوجهة الأخلاقية ، تجده من جهة أخرى كثيرا ما يحظر أعمالا مسموحا بها من الوجهة الاجتماعية ، بل مرغوبا فيها أيضا . فكثيرا ما يتدخل فى أمور من البساطة بمكان كمجرد النظر والأكل والمشى ويتدخل أكثر من ذلك فى نواحى النشاط الجوهرية كطرق العمل ومبادلة الغرام . ومن الأمثلة المألوفة صعوبة حمل أغلب الأطفال على أكل أصناف كثيرة من الطعام نشأت فى نفوسهم كراهيتها لغير سبب معروف . بل يصعب أحيانا حملهم على الأكل إطلاقا ، فإذا كان كل هذا صحيحا ، كانت حالة غريبة حقا . فجسومنا ، إذا تركت وشأنها ، ولم تصبها الأمراض والحوادث ، استمرت فى نظام على ما يظهر وكذلك الحيوانات الدنيا يلوح أنها تعيش معيشة منسجمة لا بأس بها ،

وأنها تعرف بالضبط حاجاتها دائما ، فتوجه كل قواها إلى إشباعها ما أمكن ذلك . ولكن عقل الإنسان هو وحده الذى تتنازعه الشكوك والتردد والتذمر الباطنى ، ثم إذا بنا بالإضافة إلى ذلك يقال لنا إن ما يعلمه الإنسان عن هذه الناحية ليس إلا جزءا ضئيلا مما يدور فى أعماق طبيعته من نزاع . وحتى هذه المظاهر من شخصيته التى تبدو كأنها إيجابية ، كأعماله اليومية ونواحى اهتمامه ، ليس أغلبها إلا وسائل لإخفاء النظام العميق فى باطنه ، أو شروطا يجب احترامها لتمنع النزاع الباطنى من تعكير صفو ما ينعم به من طمأنينة . فأية حكمة هناك فى كل هذا ؟ وكيف وصل العقل البشرى إلى ذلك النظام الغريب غير المرضى ؟ هذه معضلات ليست دراستها طريفة فحسب ، ولكنها تمس شئوننا على جانب عظيم من الأهمية العملية . فأى إنسان مفكر يرتاح إلى تلك الحالة التى يعيش فيها بنو الإنسان ، ولا سيما فى عصرنا هذا الذى لا نستطيع فيه التمتع بالطمأنينة الشخصية .

قلت إن كثيرا من النزعات اللاشعورية تعدل أولا ثم تحول إلى أعمال شعورية ، وقلت أيضا إن الكثير منها يعجز عن ذلك التحول ، ويستمر فى حياة خاصة به تتعارض وبقية النفس . ذلك هو اللاشعور المكبوت الذى يسمع الناس عنه كثيرا ، والذى يقال إنه سبب كثير من الشرور . فإن تلك النزعات ، لحرمانها من الإفصاح الصريح ، لا تستطيع أن تعيش إلا فى الخفاء ، مثل تلك الأقليات السياسية التى تعانى القمع فتضايق الحكومة بمعارضتها الدائمة . والنتائج المترتبة قد تكون تافهة وقد تكون خطيرة . فقد ينوى المرء وضع خطاب فى صندوق البريد ، غير أن اللاشعور قد يحوى فى خفاياه معارضة لهذا كثيرا ما تنجح فتحول دون إرسال الخطاب ، إذ ينسى المرء إرسال الخطاب ، أو يضعه فى مكان ثم لا يستطيع الاهتداء

إليه . وكل من اللص أو القاتل ينوى الهرب من غير أن يترك أثراً ، ولكن ضميره الآثم يهزمه فى أغلب الأحيان بحمله على ترك ما يسميه رجال البوليس السرى « بطاقة الزيارة » التى تؤدى إلى معرفة الجانى . والنتيجة هنا خطيرة فقد تؤدى إلى حتفه . وربما كانت أربعة أخماس الوفيات فى حوادث الطرق راجعة لمثل هذا السبب ، إذ يعترض اللاشعور السائق عند الخطر ويمنعه من التصرف الحكيم . ذلك الأمر أكبر شأنا من نسيان وضع الخطاب فى صندوق البريد أو وضعه فى الظرف الخطأ . وإنى أستطيع أن أقص عليكم حالات نجمت عنها نتائج وخيمة من مثل تلك الغلطات التافهة فى تصرفات العقل . فتلك النزعات التى تجعل الإنسان يهزم نفسه بنفسه ، ويعاقب نفسه بنفسه ، تلعب ، دورا كبيرا فى الحياة فهناك كثيرون اعتادوا أن يتصرفوا التصرف الخطأ ، وأن يسلكوا الطريق المعوج الضار بهم ، فى مسائل ذات أهمية حيوية لهم ، على أنه لا يوجد هناك إلا القليل ممن لا يضيعون جهودهم بأيديهم وممن يستفيدون فى حياتهم بخير ما فى طبائعهم .

تريدون الآن أن تعرفوا كيف يحدث كل ذلك ، ومن أين يأتى كل ذلك التضارب . من النتائج الأساسية التى وصل إليها التحليل النفسى ، أن الكفاح اللاشعورى يبدأ فى السنين المبكرة الأولى من الحياة . فقد أتى التحليل النفسى بأعجب كشوفه فى ميدان النمو العقلى المبتكر . وهى مع ذلك متفقة مع ما نعرفه من التطور البيولوجى اتفاقا يجعلها معقولة إلى حد ما . فهناك مثلا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد بأن الرضيع الصغير لديه نزعات فطرية غير مهذبة ورثها منذ أزمان غامضة قبل بزوغ الحضارة بكثير . وليس من المبالغة أن نقول إن على الرضيع فى السنوات الأربع

الأولى من حياته ، أن يلخص مائة ألف من سنى التطور العقلى ، أثناء انهماكه فى ملاءمة نفسه لسنن المدنية . فطبيعته الفطرية تتعارض وتلك السنن تعارضا تاما من جميع النواحى ، خلقية وجمالية ، بل وصحية أيضا ، فلا عجب إذن أن تحف بالصعاب جهوده لجعل طبيعته ملاءمة للحياة المحيطة به ، فهو لا يرى مانعا من أن يعض كل ما تقبض عليه يده أو يتلفه ، حيا كان أو ميتا ، كما أنه لا اعتبار لديه لممتلكات من عداه أو إحساساتهم . فعقله الصغير تومض فيه نزعات وأوهام غامضة ، لو خطرت بعضها لكبير لعدت شيئا فظيعا . ولكنا دفنّا تلك النزعات فى نفوسنا ونسيناها منذ أمد بعيد فأصبحت الآن لا شعورية ، ولذا لا نقدر المعنى الحقيقى لما يبديه الأطفال الصغار من العلامات الدالة عليها ، بل نتجاهلها بكل الطرق الممكنة فننظر إليها نظرة الاستخفاف عادة ، أو نعتبرها من قبيل المضايقات . غير أنها عند الطفل أبعد ما تكون عن الدعابة . فحين نهزأ من ثورة غضبة الوحشية التى قد تكون فتاكة ، لا بد أن حنقه علينا يصل إلى حد اليأس الفاجع ، ولذا فإنا ، نظرا لكبتنا لانفعالاتنا ، كأننا بحاجة إلى مجهر نرى به انفعالات الطفل ونفهم قيمتها الحقيقية له . وإن الولد الصغير ، الذى يستقبل أخاه الحديث الولادة بالصياح فى وجهه قائلا « أغرب عنى وإلا قتلتك » قد يدهشك قليلا ، ولكنا لا يخطر ببالنا فى الوقت نفسه ، أن هذا الذى عمّ الطفل ، هو نفس الشعور الذى استولى علينا ، عندما زارتنا مناطيد زبلين فى مدينة لندن أثناء الحرب الأولى .

ثم هناك أيضا مسألة الحياة الجنسية عند الأطفال ، وهى مسألة شائكة لن أقول عنها إلا النزر اليسير فى هذه المناسبة . فتلك الغرائز تختلف لدى الأطفال اختلافا بيّنا عن رأينا نحن الكبار فى الأمور الجنسية ، ولكنها

مع ذلك تشبهها شبها كبيرا فى بعض النواحى . فهى تمثل عالما مليئا بإحساسات غريبة ، وهواجس غامضة خفية ، ولذات عجيبة تتولد عن حركات مستترة . وتلك الاضطرابات المثيرة ترتبط كلها بعلاقة الطفل بأبويه ارتباطا وثيقا ، وفوق ذلك تختلط بالنزعات العدوانية والأحقاد الغضبية التى أشرت إليها منذ قليل . فتؤدى ، لهذين السببين ، إلى أنواع كثيرة من الفزع والخوف لا يسلم منها إلا الأطفال القلائل ، ولا يمضى عليها زمن طويل حتى تخلق شعورا عميقا بالخطيئة . نرى إذن مصدر الكفاح الباطنى الذى لدى الطفل ، وكيف يعسر عليه الاحتفاظ بالتوازن فى موقفه وسط كل تلك العوامل المربكة .

قد يكون رأيكم فيما قلته ، أنى بالغت من غير ما شك فى أهمية ما فى نفس الطفل من كفاح ومشكلات . ولذا أقول إنه لو صح نصف ما قلته ، فماذا هناك من فرصة لأى شخص كى يصبح عضوا عاملا فى الهيئة الاجتماعية متمتعا بالسعادة ، مليئا بالثقة ؟ وأجيب على هذا السؤال بسؤال آخر وهو كم منا يصلون إلى هذا ؟ إنك لو اختبرت ما يدور فى خلد امرىء ما ، كما يفعل المحلل النفسى ، لرأيت أن من النادر وجود تلك السعادة المبنية على الثقة بالنفس والتى يزعم الناس أنها أمر طبيعى شائع . بل إن ما تراه هو درجات متفاوتة من التذمر الشخصى ، والقلق الذى يحدد جهود المرء ، حين يحاول الاحتفاظ بثقته فى المآزق ، والتعلق المزعزع بأذيال السعادة . ومع هذا فإنى أسلم رأسا أن ما ذكر يقنّع ويستر بطرق عديدة . وإنى أسائلكم مثلا ، ما نسبة حالات الزواج الناجحة حقا ، لا نجاحا ظاهرا أمام الملأ ، بل التى يسودها دائما التفاهم المتبادل والسعادة المشتركة ؟ فإن الناس فى العادة يكونون على وفاق ما ، إذا لم تتعنت فى المستوى المطلوب ،

وما دام كل محتفظا بشروطه الخاصة ، حتى إذا ما هدمت تلك الشروط تلاشى الشعور بالثقة ، تلاشيا كثيرا ما يكون فظيعا .

وكم من الناس لا يريعهم التفكير فى ضياع وسائل معاشهم ، بل ما هو أكثر من ذلك ، وهو فقد أحبّاءهم ؟ إن المحن محك الصحة العقلية ، وما أكثر ما ينتاب الإنسان من شكوك فى جدوى كفاحه فى الحياة . وليس الناس الذين قد تأصل فى نفوسهم وجل دائم من الحياة بالقلة التى قد تظنونها أيها المرحون . ولعلكم تلاحظون أيضا أنى فيما ذكرته قد تحاشيت تحاشيا تاما ذكر شىء عن أنواع الاضطرابات العصبية المنتشرة انتشارا ذريعا ، كالهموم وضيق الخلق والأرق والمخاوف ، وعادات ضحايا الخمر والمخدرات ، ودع جانبا ذكر الكلمتين المريعتين « الجنون » و « الانتحار » . نعم ، إن قوة اللاشعور لحقيقية وعظيمة .

لنطرح الآن الموضوعات المقبضة ، ونختم حديثنا بخاتمة إيجابية ، فإنى أود أن تخرجوا بفكرتين واضحتين : أولاهما تلك الفكرة التى أحدثت انقلابا فى الرأى ، والتى تقول إننا لا نعرف من عقولنا إلا اليسير ، وإننا فى كل لحظة مسوقون بقوى تموج فى أعماق كياننا ولا نعلم من أمرها مثقال ذرة . تلك فكرة تحتاج وحدها إلى شىء كثير من الروية والتأمل . والثانية التى أذكركم بها هى ، أن تلك المنطقة اللاشعورية الشاسعة ، فى حالة من الكفاح الدائم ، إذ أن القوى الفطرية الدافعة تسعى من طريق الذات للتعبير عن نفسها بشكل ما ، والذات لا تفتأ تعارضها أو تفرض عليها مختلف القيود . فكلمتا « الكفاح اللاشعورى » تلخصان لنا معظم تعاليم التحليل النفسى . ففى الحالات العادية تفيض الطاقة اللاشعورية ، حرة لحد ما ، إلى العقل الشعورى ، بعد تعديلها بما يسمونه الإعلاء ،

وهناك تأخذ فى توجيه اهتمامنا ونشاطنا ، إذ هى الذخيرة العظمى لشخصيتنا رغم أننا لا نفطن لوجودها . أما فى حالات الشذوذ ، وأقصد بها أغلب الحالات ، فإن تلك الطاقة اللاشعورية تخفق فى الاهتداء إلى ذلك الطريق المرغوب ، فتلجأ مرغمة إلى طرق ملتوية ، حيث تعكر صفو الشخصية . وهذا أكبر سبب فى نقائص الحياة الإنسانية ومنغصاتها التى تفوق الحصر ، والتى تتمثل فى سخط الأفراد وشقوتهم ، وفى آفات حياتنا القومية والدولية .

الفصل الخامس

الأحلام

سأحدثكم الليلة عن الأحلام ، وأتوقع أن الكثيرين منكم سوف ينهضون لساعتهم عند سماع تلك الكلمة ليسكتوا المذياع . فهؤلاء الذين لا يعدو اهتمامهم الماديات لا ينتظر أن يطيقوا دراسة شيء على النقيض منها تماما . وأي شيء أبعد عن الماديات وأقل صلة بالحس ، من الأحلام ؟ حتى إنه ليحق للإنسان أن يتساءل عما إذا كانت دراستها تساوى ما يصرف فيها من عناء ، وعما إذا كان الأجدر أن ننصرف عنها بتاتاً كما ينصرف كثير من أصحاب العقول العملية عما يسمونه «صيد الأطياف» Spook Hunting وتصادفنا هنا فى مستهل حديثنا أول نقطة تسترعى الاهتمام فى موضوع الأحلام ، فليس من العسير علينا ، على ما أظن ، أن نرى الناس وقد انقسموا حيالها إلى فريقين . فبعضهم ، وهم الذين يصمون آذانهم عن حديث الأحلام ، ينظرون إليها نظرة الاحتقار ، معتقدين أنهم على حق ، فلا يعيرونها مثقال ذرة من التفكير ، وإذا سئلوا رأيهم فيها قالوا إنها هراء لا تعقل فيه من أثر مخ متعب ، وإنها فى سخفها وخلوها من المعنى تشبه هذيان المجانين . وربما كان هذا التشبيه الأخير جديراً بأن نتتبعه قليلا . فمنذ خمسين سنة قال أحد أساطين الأطباء فى لندن لزملائه : « استقصوا كل ما هنالك عن الأحلام تفهموا شيئا عن الجنون » ولكن هؤلاء الزملاء

قابلوا عبارته بالإهمال والازدراء . ولا شك أنهم ظنوا أن من الخرق أن يحاولوا فهم شيء خال من المعنى كالأحلام أو هذيان المجانين . وهؤلاء الزملاء يمثلون بلا شك أغلبية الناس . ولكن آخرين يشعرون نحو الأحلام بميل يشوبه شيء من النفور ، ولو أنهم لا يستطيعون تبرير موقفهم هذا ، فكثيراً ما يساورهم التفكير فيها ، حتى إن حلماً واضحاً أو وجدانياً يرونه فى الليل ، ليؤثر فيهم طيلة النهار التالى ، ويشعرون بأن لها مغزى غامضاً . فهم يرون أن للأحلام معنى ، وأن لها مصدراً ، وأنها لا بد لها من سبب بل ومن غرض . وكثير من هؤلاء يبالغون فى تأثرهم بالأحلام ، لدرجة الخرافة الصرفة ، فيفسرون أنواعا منها تفسيراً ماله من أساس ، وينسبون إليها الدلالة على المستقبل ، ويستخلصون منها إشارات يسترشدون بها فى تصرفاتهم . وكلكم لا بد تعرفون أناساً يراهنون أو يقامرون استناداً إلى أعداد أو اشارات يستمدونها من الأحلام ، ويؤجلون أسفارهم بسبب بعض أحلام ، وهكذا . على أنه مهما تكن النتائج التى نستخلصها من دراسة الأحلام ذاتها ، فمن الطريف ملاحظة وجود هذين الفريقين من الناس : أولئك الذين يزدرونها ويعتبرون الاهتمام بها من الخرافات ، وأولئك الذين يشعرون أن لها معنى خفيا وأنها قد تكون هامة .

ولا محيص للإنسان عن أن يتساءل عما بين الفريقين من اختلاف جوهرى وعن السبب فى أن الأحلام تثير هذين الموقفين المتعارضين ، ولهذا أضيف إلى ما ذكرته عن هذين الموقفين ، أن غالبية الناس فى يومنا هذا ، تنتمى إلى الفريق الأول على ما أظن ، أى الفريق الذى يزدرى الأحلام . ومما هو جدير بالذكر أن العلماء متمسكون بهذا الموقف تمسكا شديداً ، بما فيهم هؤلاء الذين يدعون علماً خاصاً بالمخ أو العقل ، أما الفريق الآخر وهو

الذى يشمل الكثيرين ممن يعتقدون فى الخرافات ، فجلهم من الطبقات التى لم تنل حظاً من التعليم . ولم يكن الأمر كذلك دائماً ، إذ كانت الغالبية العظمى من الناس منذ ثلاثمائة سنة مضت تأخذ بالرأى الثانى القائل بأن الأحلام لها أهمية خاصة .

وإذا رجعنا فى التاريخ إلى أبعد من هذا ، وصلنا إلى وقت كان كل شخص فيه يعتقد هذا الرأى ، وكلما كان الشخص متعلماً ازداد اهتماما بالأحلام ، وبعبارة أخرى كان الموقف إذ ذاك على عكس ماهو الآن تماماً .

فما السبب فى ذلك التحول الغريب ؟ هناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نقرنه بنشأة العلم الحديث ، الذى ولد منذ ثلاثة قرون ، ثم اطرد تقدمه وانتشاره اطراداً هائلا فى القرن الماضى ، فضلا عن أن ما ذكرته الآن عن تلك المقابلة التاريخية بين الرأيين ينطبق كذلك على اعتقاد الناس في الشعوذة والجن والسحر والعرافة وما شابهها ، فكل الناس كانوا فى الأزمان السابقة يعتقدون فى تلك الأشياء وكان اهتمامهم بها يطرد وزيادة تحصيلهم فى العلم ، أما الآن فقد انعكست الآية وأصبح الاعتقاد فيها من شيم الجهلاء .

والآن أسمعكم مابين مستريح وآسف ، تقولون إن كل هذا يعطينا الإجابة عن السؤال إن كان للأحلام معنى أو أهمية ، إذ لو صح أن العلم الدقيق يتفق تماماً مع الاعتقاد المتزايد فى تفاهة الأحلام وخلوها من أى معنى فمن العبث إذاً أن نقول كلمة أخرى عنها .

وإنه ليبدو حقيقة كأننا كنا نضيع وقتنا سدى فى معالجة موضوع يزيده الناس ازدراء كلما ازدادوا علماً ، غير أن المسألة ليست بهذه البساطة . نعم قد يقتنع العلماء بتفاهة الأحلام وبتجردها من المعنى ، إلا أن العلم ذاته لا يقر ذلك ، فليس من الروح العلمية فى شىء أن يقال إن شيئاً ما تافه أو

مجرد من المعنى . أما عن خلوها من المعنى فذلك مستحيل بالدليل القائم من محض وجودها . أما عن تفاهتها فالأمر لا يتعلق بوجهة النظر فحسب ، بل يتوقف إلى حد كبير على ما لدينا من معلومات عنها . فلقد كانت العلامات التى على أجنحة البعوض تعتبر تافهة لا تستحق الاهتمام ، حتى اتضح ما للصلة بين تلك العلامات ومرض الملاريا من أهمية وبذلك أصبحت تلك العلامات ذات أهمية حيوية لكل سكان الأقاليم المدارية . وهنا تنفتح أمامنا فرصة تسترعى الاهتمام حقاً . فليس من المستحيل عقلا أن يكون موقف العلماء نحو الأحلام ناشئاً عن أسباب إنسانية لا علاقة لها بعلمهم ، وكثيراً ما برهنت الثقة البالغة بالنفس على أنها سراب خادع فى العلم وفى غيره ، على حين أن الكشوف الهامة قد تجىء غالباً على غير انتظار . فلنفتح عقولنا إذاً إن استطعنا ، ولنكن على استعداد لأن نتقبل حتى مالم يكن متوقعاً ، فلن تكون هذه أول مرة يضل فيها العلم بتجاهل الحكمة المألوفة لسواد الناس ، وان ذلك لينطبق بصفة خاصة على علم النفس .

فمن ناحية لا بد أن يكون للأحلام معنى بالطبع ، أى أنها تقبل التفسير المعقول عند ما نعلم عنها القدر الكافى . وبهذه الطريقة يكون لهطول المطر معنى . ولكن يهمنا أكثر من ذلك أن نعلم إن كان للأحلام مغزى بالمعنى الضيق مثلما أن حديثى إليكم له معنى ، وكذلك أغلب أفكارنا .

لقد يحدث أن يصادف المرء فى بعض الأحيان أحلاماً واضحة الدلالة ، فكثيراً ما لوحظ أن المستكشفين الذين يجوبون الأصقاع القطبية ويحرمون بسبب ذلك من كثير من المتاع حرماناً بالغاً يغلب عليهم أن يروا أنفسهم فى أحلامهم ينعمون بأكلات شهية فى مطاعمهم التى ألفوها وأحبوها . كما أن الأطفال كثيراً ما يحلمون أثناء الليل أنهم يتمتعون بما حرموا منه

أثناء النهار ، كشهد ترويض الحيوان (السيرك) وغيره . ويروى فرويد قصة طريفة عن صبى كان مكلفا بحمل سلة من الفراولا إلى جده ، هديته فى عيد ميلاده ، فسُمع ذلك الصبى فى نفس الليلة يتمتم فى حلمه : « لقد أكل جونى الفراولا جميعها » فكأن الحلم قد أعاد الأمور إلى نصابها . ولا نكاد نجد فى هذين المثالين مناصاً من استنتاج صلة بين حوادث النهار والليل قائلين « نعم إن هؤلاء المساكين يحاولون أن يعوضوا فى عالم الخيال ما حرموه فى عالم الحقيقة » . فإذا سلمنا بتلك النتيجة خطونا خطوة جريئة واسعة إذ أننا بذلك ننسب للعقل أثناء النوم عملا مفهوماً ذا غرض معين ذلك هو استخدام الخيال لتخفيف وقع الخيبة ، ونكون عندئذ معترفين للأحلام بوظيفة معينة ، وهى تلطيف الآلام التى نصادفها فى عالم الحقيقة ، ومفترضين أن الأفكار المسببة للاضطراب تستمر من اليقظة إلى المنام ، وأن جزءاً من العقل يستمر أثناء النوم فى نشاطه بحيث يستقبل تلك الأفكار ويتخيل نقيضها تماماً .

فكأن الحلم عندئذ أشبه شىء بملاك يهمس فى أذن الطفل قائلا : « نم هانئاً سعيداً ، فليس صحيحاً انك قد منعت الذهاب إلى مسرح ترويض الحيوان . لا . لا ، أنت هناك فعلا فانظر ما يحيط بك من بهجة وسرور »

ولكن مهلا مهلا . إننا فى الحق نبنى نتائج بعيدة المدى تكاد تجاوز حد المعقول على أسس واهية . فالأحلام التى من هذا القبيل نادرة جداً . انظر إلى الغالبية العظمى من الأحلام وكلها أضغاث حافلة بالأفكار المستحيلة المتناقضة الخالية من المعنى ، والتى لا نعلم من تأويلها قليلا أو كثيراً . أو تأمل الليالى التى تعكرها أحلام الهموم والاضطراب وأحلام الرعب والاشمئزاز والفزع التى لا بد قد مارسها أغلب الناس يوماً ما ، فماذا كان

الملاك يعمل حينئذ ؟ لقد تخبطهم الشيطان من المس كما يقال . إن نظريتنا الجميلة السابقة لتتلاشى كالضباب أمام تلك الأحلام ، ولكن رغم هذا كله يرى التحليل النفسي أن تلك النظرية اللطيفة صادقة لا فى الأحلام النادرة التى شرحتها بها فحسب ، بل فى كل حلم يراه إنسان . لا بد أن هذا يبدو لكم كهذيان المحموم . ولكنى أرى أن الوقت قد حان لنسأل علماء التحليل النفسى إن كان لنظريتهم ، لا للأحلام فحسب ، أى معنى مفهوم . ومن يدرى فلعل لجنونهم سببا معقولا ، فأناشدكم أن توسعوا صدوركم وأن تستمعوا لما يقولون .

أظننا كلنا نوافق أولا على أن النوم الخالص من الأحلام هو النوم المجدد للنشاط والمفيد للصحة ، فكأن الأحلام إذاً لا بد لها علاقة بما يزعج النائم . نعم قد تعكر نوم الإنسان عوامل جسمية كالألم أو الضوضاء أو الأفكار أو الهموم المقلقة المستمرة من اليوم السابق ، كما أن الشخص العميق النوم قد يستطيع أن ينام خلواً من الأحلام وسط كثير من الضوضاء ، والشخص الخفيف النوم يحتمل أن يشعر بعض الشعور بمتاعبه حتى أثناء نومه . ولكن ما السبب فى أن خفيفى النوم يشعرون بمتاعبهم ذاتها أحياناً ، بينما يرون أحلاماً بدلا عنها فى أوقات أخرى ؟

إن هذا ليدل على أن الحلم يختلف عن المتاعب التى تعكر صفو النوم ، والأرجح أن يكون من قبيل رد الفعل لها . وفى الأحوال البسيطة قد نلاحظ من غير صعوبة أن الحلم يمنع الاضطراب ، فإنى أذكر من أيام الحرب أن مرضاى كثيراً ما عجزت عن إيقاظهم الأصوات المرعبة المنطلقة من مدافعنا وقت الغارات الجوية ، بل كانوا يحلمون أنهم يستمعون إلى ضوضاء غير مؤذية كصوت قاطرة أو ما أشبهه ، وبذا استطاعوا الاحتفاظ بنومهم .

ولقد صادفتني حالات كثيرة لنائمين متعبين لم يوقظهم رنين الساعات الدقاقة بل رأوا بدلا عنها في نومهم أنهم في مكاتبهم أو في غرف الدراسة ، كأنما وفروا على أنفسهم بذلك مشقة الاستيقاظ وجهد الذهاب إلى العمل . إن خلف ذلك الستار الذي ترتسم عليه الصورة الخيالية ، التي يرى فيها الإنسان نفسه منهمكا في عمله بمكتبه ، توجد من غير شك رغبته في أن يكون حاضراً هناك من غير أن يتكلف عناء النهوض والانتقال هناك . فهو إذاً التجاء إلى الخيال يعطى مجالا لتحقيق الأماني . وإنا لمدينون بنظرية الأحلام الحديثة واللاشعور للأستاذ فرويد ، وقد أتيتكم بخلاصتها فيما سبق من كلامي . فنظريته هي أن للأحلام غاية أو وظيفة وهي إبعاد ما هو من شأنه أن يعكر صفو النوم ، ولذا تسمى حارس النوم . نعم إننا كثيراً ما نرى أحلاماً مزعجة ، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن سبب الانزعاج ليس من الحلم بل من الأفكار والهموم التي يحاول العقل النائم أن يبعدها بتحويلها إلى حلم سار غير ضار . وكثيرا ما يعجز عن ذلك فنستيقظ حينئذ في حالة انفعالية سيئة أو مرعبة . ومعنى ذلك أن الأفكار المزعجة قد انتصرت وعجز العقل عن تحويلها إلى حلم سار وبذلك يستيقظ . ولا شك في أننا في اليقظة أقدر كثيراً على كبح جماح هذه الأفكار السيئة ، وغالباً ما نقذف بها بعيداً عن الأنظار ، أي أننا بعبارة أخرى ، نحتبسها في اللاشعور عن طريق « الكبت »

ويذهب فرويد إلى أن جزء العقل النائم الذي ينشيء الأحلام يمنع تأثير الأفكار المزعجة بطريقة غاية في البساطة ، ذلك أن يتمنى أن تكون الأمور على غير تلك الحال ، ثم يتخيل تلك الأمنية حقيقة واقعة . فهو يقول « إن كل حلم يمثل تحقيق رغبة لا أكثر ولا أقل » . فتلك بلا شك

أبسط طريقة لمعاملة فكرة غير سارة ، والشيء الوحيد الذى يؤسف له أنها لا تنجح غالباً فى الحياة الحقيقية . فالمرء عند ما تضيق الدنيا فى وجهه لبطالته من العمل يطلق العنان لخياله ، ويرى نفسه فى وظيفة مريحة وفيرة الكسب ذات مستقبل باسم . والشاب السيء الحظ فى غرامه يتخيل أنه يخطب ود فتاة حسناء فتستجيب إليه عن طيب خاطر ، فما أجمل كل ذلك . وعلى رأى المثل القديم « لو كانت الأمانى خيولا لركبها الفقراء » وفى هذا خلاصة الموضوع كله .

إنى واثق من أنك سوف تقول « نعم كل ذلك معقول ، وإنى أستطيع أن أفهم كيف تنطبق تلك الفكرة على نوع معين من الأحلام ، كأحلام كاشفى الأقاليم القطبية الذين يضنيهم الجوع فيحلمون أنهم فى فندق نخم ، أو كالطفل الذى لم يجب إلى ما يريد من الذهاب إلى مسرح ترويض الحيوانات ، فيحلم أنه هناك فعلا ، وكذلك الأحلام التى تحفظ علينا نومنا إذ تحول الضوضاء المقلقة إلى شيء آخر ، ولكن ذلك لا ينطبق إلا على عدد يسير جداً من الأحلام ، فما بال الغالبية العظمى منها ، وهى التى تحدث فيها أنواع شتى من الأمور المكدرة ، والتى قد نستيقظ منها متضايقين أو راجفين ؟ إن تطبيق النظرية هنا من الحمق بمكان ، إذ تنهار بشقيها ، فلا نومنا حوفظ عليه ، ولا بدا فى تلك الأحلام أى أثر لتحقيق رغبة ما . غير أنكم مررتم هنا مرور الكرام على كلمة واحدة صغيرة فيما أعطيته من وصف لنظرية فرويد ، فهو لا يقول إنه من السهل أن نتبين أن الأحلام تحقيق رغبات ، ولو كان ذلك واضحاً لما ضيعت وقتكم بالحديث عنه ، ولكنه يقول إنها تمثل تحقيق رغبات ، وهو يعنى بذلك أن الأحلام ، فيما عدا بضعة الأحلام البسيطة التى ذكرتها آنفا ، لا تؤول عما يبدو منها ظاهراً ، بل هى

زى التنكر الذى تلبسه الأفكار الأخرى . ولقد رأت فتاة فى حلمها زرافة ذكرا ترقص فى دائرة ، فاعترضت طريقه هرة ، فرفسها وقلبها على ظهرها . فما هذا الهراء ، ولماذا نعير ذلك الحلم السخيف أى اهتمام ؟ ! ولكنى مع هذا سألتها عن الأفكار التى تستدعيها فى ذهنها فكرة الزرافة ، فأجابت : « إن له عنقاً طويلا ، وذلك يذكرنى بشخص لطيف له عنق طويل ، ولكنه متزوج بامرأة كالهرة [١] » لاحظ هنا كلمة لكن ؟ . فلولا ذلك الزواج لكان ذلك الشخص طليقاً حراً ليقدم إلى صاحبة ذلك الحلم «دائرة» أى خاتم زواج . يبدو لنا الآن أن ذلك الحلم يحوى فى ثنايا هرائه بعض المعنى . ذلك المعنى الذى لم تكن الفتاة لتقبله عن طيب خاطر ، وعلى الأخص لأنه يتعلق بأفكار أخرى لم تكن على استعداد لأن تواجهها بأى حال من الأحوال .

ولأعطكم مثلا آخر . لقد رأت سيدة فى حلمها أنها تركب مع رجل معين فى عربته التى يجرها جواد من نوع يسمى بالإنجليزية (باى) [٢] حتى إذا وصلا إلى تقاطع الطريق بالسكة الحديدية ، رأت لوحة للتحذير ليس عليها سوى كلمة « قريب » . وأتى القطار مندفعاً ، فحاول الرجل اجتياز القضبان بالعربة ولكن الجواد رفض وأدار وجهه فى آخر لحظة فأنقذ حياتهما . ولقد استدعى الرجل فى ذهنها ابن عم لها كان قد خطب يدها أثناء رحلة فى عربة . واستدعت كلمة « قريب » أحد أعضاء الأسرة الشديدى القرابة ، وكانت تعتقد أن من الخطأ التزوج من أحد أعضاء الأسرة القريبين ، نظراً لما فى ذلك من الخطر على الأطفال ولذا رفضت خطبته رغم حبها الشديد له . وكان اسمها قبل الزواج « باى » ، والجواد الذى من نوع « الباى » والذى

(١) فى الانجليزية تشبه المرأة الخبيثة السليطة اللسان بالهرة فيقال إن فلانة هرية الطبع

(٢) Bay

أنقذ حياتهما فى الحلم يمثل صاحبة الحلم ذاتها ، وبذا يصبح الحلم حافلا بالمعنى بمجرد أن يفهم المرء ذلك التنكر الطفيف .

وهكذا قد تكون فكرة أو صورة عقليـة زيا تنكريا لأخرى دفينة ، أو كما يقال ، مطرودة من العقل . فلماذا تثير تلك الفكرة البسيطة كل تلك المعارضة ؟ أما نستخدم اللغة فى كثير من الأحيان لإخفاء أفكارنا عندما نكلم أناسا آخرين ؟ ذلك ما يحدث كل يوم فى البرلمان والمؤتمرات الدولية إن شئت أقل المناسبات خطراً . ولقد قال متهكم مرة إن فائدة اللغـة هى إخفاء الأفكار ، ونحن نفعل ذلك لا عمدا فحسب ولـكن عن غير قصد أيضا . فأى شخص لديه بعض الاستعداد لعلم النفس يسهل عليه فى كثير من الأحيـان أن يقرأ بين السطور فى خطاب ، وأن يستنتج من المكتوب أفكارا غير مكتوبة ، بل مستترة وراء الـكلمات الموجودة فعلا . غير أن المدهش حقا هو أن عقولنا فى بعض الظروف ، كما فى النوم مثلا ، تخترع أفكارا وصورا عقليـة لتخفى عنا أفكارا أخرى تحاول الظهور فيتجاهلها جزء آخر من العقل . إن ذلك ليبدو فى الحقيقة مبهما ، ومع ذلك فليس هناك أسهل من إثبات أن الأحلام تتألف من أفكار محولة أو مقنعة

وهنا ينهمر وابل من الأسئلة ، فما هى الطرق المختلفة التى بها تتحول الأفكار المستترة ؟ وهل لذلك التحول قواعد منتظمة ؟ وما هى الأسباب المحتملة لتلك العملية المعقدة ؟ وأى الأفكار تضطر لأن تتنكر ذلك التنكر التام ؟ وأهم من ذلك كله أهناك سبب ما لأن تتنكر فكرة جميلة ، كتحقيق رغبة فى عالم الخيال ؟ سأحاول أن أجيب على تلك الأسئلة ، ولـكنك قد تحب أولا أن تعلم شيئا أكثر عن كيفية دراسـة الأحلام للوصول إلى تلك الأفكار المستترة ، فليس ذلك بالأمر العسير ، وتستطيع تجربته بنفسك ،

فما عليك إلا أن تقسم الحلم إلى أجزاء مختلفة ، وتطبق على كل جزء طريقة التداعى الحر ، التى ابتكرها فرويد ، والتى تكلمت عنها فى الحديث الأول ، وبعبارة أخرى تركز فكرك فى كل جزء من أجزاء الحلم على التوالى ، من غير أن تحاول التفكير ، وتلاحظ المعانى والذكريات التى تخطر ببالك ، وقد يكون الأفضل أن تكتبها ، ثم تجمع كل نتائجك وتستعرضها فى ضوء ما تعرفه عن نفسك .

وهناك طرق محددة واضحة تتخذها الأفكار المستترة فى تنكرها ، منها أن تخلط فكرتين معا فتصبحا فكرة واحدة ، ويحدث ذلك أحيانا فى الكلمات بل الأسماء أيضا . مثلا اسم « ايستجيت »[١] الذى ورد فى حلم من الأحلام ، اتضح أنه متعلق بحادثتين ، إحداهما وقعت فى بلدة (ايستبورن) والثانية فى بلدة (مارجيت) والفكرة المستترة أشارت إلى شىء مشترك بين الحادثتين . وفى أحوال أخرى ينتقل الاهتمام أو الانفعال الرئيسى من الفكرة التى يتصل بها أصلا إلى فكرة أخرى أقل أهمية فينزعج صاحب الحلم مثلا ، لا من الخطر الحقيقى بل من مسألة فرعية غير هامة . وهناك أنظمة أو تدابير أخرى ، من أمثلتها استعمال الرموز أو طرق التنكر المعتادة ومعرفتها تسهل تأويل الأحلام .

والأفكار المستترة تصدر عن لب مركزى مكبوت أبدا ، أى ينتمى إلى المنطقة اللاشعورية من العقل ، وليس من الضرورى طبعا أن ينطبق هذا على الفكرة المزعجة التى كانت فى الأصل سببا فى الحلم . ولكن الظاهرة الغريبة التى كشفها فرويد فى تركيب الأحلام ، وهى من أبدع الكشوف ،

---

(١) Eastgate

أن العقل يعامل الأفكار التى تحاول إزعاج النوم معاملة ملتوية . فهو أولا يخترع علاقات تربط تلك الأفكار برغبة لاشعورية مكبوتة منذ الطفولة ، ويتخيل تلك الرغبة فى دور التحقيق ثم يحولها بطريق التنكر التى تحدثت عنها . تلك عملية غاية فى الغرابة ولكنها من حسن الحظ تفيد علماء النفس ، إذ تمهد لهم سبيل الوصول إلى أعمق طبقات العقل ، وإلى أعز أمانى الشخصية الإنسانية . وإن معرفتنا عما تدور حوله أحلام أى إنسان لتساعدنا مساعدة لا نظير لها على التغلغل فى أعماق الأسس التى يقوم عليها خلقه ، وفى هذا يقول فرويد إن الأحلام هى أهم طريق يأخذ بيدنا إلى اللاشعور . فلا عجب أن يظل ذلك الجزء من العقل الذى له تلك الحرمة الشخصية الكبيرة مستترا متنكرا ، حتى فى النوم .

يتضح إذاً أن الأحلام تحقيق رغبات الطفولة ، وتتركب من الرغبات التى توجه سلوكنا وتؤثر فيه أكثر من سواها على غير شعور منا منذ أوائل أيام طفولتنا ، إلى الوقت الحاضر ، وهى لا تنبىء بالمستقبل كما كان الاعتقاد سائداً ، ولو أنها تصدق فى كثير من الأحيان ، إذ أن رغباتنا الشديدة تلح دائماً فى أن تتحقق ، وقد تفلح أحياناً فيصدق عليها إذاً المثل القديم القائل بأن الحوادث القادمة ترسل ظلها أمامها . ولكن دلالة الأحلام ليست مقصورة على صاحب الحلم وحده ، فإن الرغبات الشديدة التى تنشأ عنها الأحلام ، ميراث لكل الجنس الإنسانى ، وفيها لمحات عامة عن تاريخ العقل الإنسانى وتطوره فى الأيام الأولى . فالأساطير والقصص والخرافات وغيرها من نتاج الخيال تنسج على نظام واحد ، ويسهل على الإنسان فهمها إذا ما ألم بتفسير الأحلام . وإذا حاولت دراسة الأحلام دراسة جدية رأيت أنها تفتح مشكلات لم تكن خطورتها على البال . ويمكننى أن أجمل ما حاولت إقناعكم

به فى جملة قصيرة جداً ، فإن ما كشفه فرويد عن الأحلام يتلخص فى أن مغزاها بالضبط مغزى أحلام اليقظة بالنهار ، فسواء أكان حلمنا بالليل أم بالنهار ، فما نفعله فى الحالتين هو التمنى . فما أبسط كل هذا ، ولكن ماهية ذلك التمنى فى مصادره العميقة أمر آخر جد مختلف . ولقد أدت دراسة الأحـلام بفرويد لأن ينشىء فرعاً جديداً كاملا من علم النفس أخذ يقلب كل معتقداتنا السابقة عن أنفسنا رأسا على عقب ، حتى إننا لنستطيع أن نقول إن الأحلام قد انطبق عليها المثل السائر وهو « أن الحجر الذى رفضه البنـّاء قد أصبح الآن حجر الزاوية »

كيف يعمل عقـــل الطفل

مشاكل نمو الأطفال

بقلم

ايمانويل ميلر

الرئيس الفخرى لعيادة شرق لندن السيكولوجية لإرشاد الأطفال

الفصل السادس

ما يبدأ به الطفل

لعله من الظريف أن نحاول معرفة كم من الناس يستطيعون تذكر السنوات الأولى فى طفولتهم تذكراً يكفى لإعطاء صورة موثوق بها عن عقل الطفل ونواحى اهتمامه. فإنا حين ننظر إلى الوراء يخيل إلينا أن الدهر قد مر بيده على سجل الذكريات فمحى بعضها وعفى عن البعض الآخر، حتى يسهل علينا الاشتغال بالأمور كما هى الآن، بدلا من تلك التى تبدو كأنها انتهت.

ولو أنك سألت أحد علماء النفس منذ ثمانين سنة السؤال البسيط الآتى وهو «كيف يعمل العقل؟» لأخبرك عن عقل الراشد، وعن عمل حاستى السمع والبصر، وعن كيفية تفكير الناس، ولكنه لم يكن ليستطيع إجابتك عن عقل الطفل، أى عن كيفية نمو العقل منذ بدايته الغامضة فى الرضيع، إلى نشاطه المعقد فى الرجل. وإن عقل الطفل وسلوكه ليسببان حيرة دائمة لكل من تجمعهم بالأطفال صلة. لقد كنا كلنا أطفالا يوما ما، ولكن من العجيب أننا قلما نفهم لعبهم وسلوكهم مع الكبار.

لقد أخذنا الآن نتفهم حاجات الطفل الجسمية، وانتشرت مراكز رعاية الطفل فى أنحاء العالم لمعاونة الأمهات على فهم صحة أطفالهن والعناية بجسومهم، فازداد الاهتمام بالتغذية، وأصبح ضيق خلق الطفل فى كثير من الأحيان يعزى إلى سوء الصحة الناجم من التغذية الخاطئة، إذ قد يكون

هناك نقص فى لبن الأم ، أو أن مواعيد التغذية والنوم غير منظمة ، أو أن ملابس الرضيع ضيقة تعوق تنفسه وهضمه . والحق أن صحة البدن وقضاء الحاجات الجسمية البسيطة يؤديان إلى السعادة النفسية .

وكلما رجعنا إلى الوراء فى حياة الطفل وجدنا العلاقة بين العقل والجسم تزداد وثوقاً . وذكرياتنا القليلة عن طفولتنا لا يخلو الكثير منها من الارتباط بالمضايقات الجسمية وشوائب التغذية [١] . ويقول أناس كثيرون إن عملهم اليومى يختل إذا تناولوا فى إفطارهم طعاما أبغضوه منذ الطفولة . وإنى أعرف رجلا كان يعتريه اضطراب عصبي كلما رأى طبقة القشدة الرقيقة على سطح اللبن المغلى ، ولما أمعن الفكر فى ماضيه اتضح له أن مربية له كان يكرهها لأسباب أخرى ، كانت تحتم عليه أكل تلك القشدة التى على سطح اللبن قائلة إنها مغذية ومفيدة له .

ومن الناحية العقلية المحضة نجد أن بعض الناس يعتريهم الضيق ساعات طويلة إذا قابلوا شخصاً يستدعى فى ذاكرتهم شخصاً آخر كانوا يبغضونه فى طفولتهم ، كما يحدث ذلك أيضاً إذا زاروا مكاناً أو رأوا منظراً يثير ذكرى حادثة وقعت لهم كانوا قد حاولوا نسيانها . ولقد كنت أعرف بنتاً صغيرة كانت تخاف النوم فى الليل ، لأن الظل الذى كان يحدثه طرف عصا الستارة كان يشبه المنظر الجانبي لوجه رجل ذى لحية سوداء أرعبها فى صغرها . فكم منا يفهمون حق الفهم انفعالات الطفل وهمومه ، وأن رغبة لم تتحقق له قد تغير شعوره نحو الشخص الذى كان عائقا له وسببا فى تحويل وجهته .

لقد مضى زمن طويل على طفولة الكثيرين منا ، وبدت فى حياتنا

---

(١) كره الأطفال لأصناف معينة من الطعام من غير ما سبب ظاهر .

آلاف من نواحى الاهتمام والمسئوليات الجديدة التى أصبحت كأنها ضباب يحجب تلك السنوات الأولى ، واختفت مشاعر الطفولة أو الرضاعة تحت شبكة معقدة من الانفعالات . ولكن لا بد أن تكون هناك طريقة نعلم بها شيئا عن تلك السنوات الأولى ونفهمها . وليس من الغريب أن يتساءل الإنسان منذ القدم عن مصدر الأطفال وعما يحبونه وما لا يحبونه . ولغير المتحضرين آراء غريبة عن أصل الأطفال ، فبعضهم ليست لديهم عن الأمومة إلا فكرة فى غاية الغموض ، ويرون فى الأطفال أشباح أسلافهم جاءت لتزور الأرض مرة ثانية . وآخرون يظنون أن الأطفال أقرب إلى الحيوانات والطيور منا معاشر الكبار ، وأنهم يفهمون لغة البهائم وحفيف النسيم وحسيس النار ، وأنهم لاينسون كل هذا إلا بتقدمهم فى اللغة . نحن اليوم لا نصدق تلك الأقاصيص طبعا ، رغم أننا لا زلنا نهتم بعالم الخيال الذى كنا نعيش فيه فى طفولتنا . ولكنا بدأنا نؤمن بشىء آخر ، ذلك هو التناسق فى الطبيعة ، وما بيننا وبين كل الكائنات الحية الأخرى من شبه . فإن العلماء قد درسوا كيفية هضم الحيوان لغذائه مثلا ، ووجدوا أن جسومنا تحوى عصارات لهضم الطعام تشبه ما لدى الحيوان . ولما درسوا حواس الحيوان لم يجدوا اختلافا بينها وبين حواسنا ، ووجدوا أن مخ الفيران والقردة وجهازها العصبى يشبهان فى تركيبهما العام مثيليهما عند الإنسان . كما أن التجارب التى أجريت على عمليات التعلم البسيطة فى حيوانات مختلفة كالكلاب والقردة والأطفال الصغار دلت على وجود أساس واحد عند الجميع ، ورغم الفرق الشاسع فى الذكاء بين الرضيع والشمبانزى النبيه ، فإن كلا منهما يأتى أعمالا شبيهة بأعمال الآخر مما يجعل الفرق بينهما غير كبير . فالشمبانزى إذا وضع فى حظيرة وترك معه عصوان يمكن إيصال إحداهما

بالأخرى ، وعنقود من الفاكهة بعيداً عن متناوله ، فإنه فى نهاية الأمر يثبت العصوين معا ويصل إلى الفاكهة ، وكذلك الطفل الذى فى الثالثة من عمره يصل إلى نفس النتيجة بنفس الطريقة .

والوليد الحديث يبدى نفس الاهتمام بالعالم الخارجى ما تبديه الكلاب والقطط . فالحيوان يجذبه الشىء المتحرك ، وكذلك الطفل يهتم بالأشياء المتحركة أكثر من الثابتة . تأمل أيضا حركات الحبو والتسلق فى أول عهد الرضيع بالمشى ، فلقد درست تلك الأعمال دراسة دقيقة ، دلت على أن بعض الحركات لا يمكن إلا أن تعتبر من قبيل الرجوع إلى السلوك الحيوانى . فبعض الأطفال يزعجون أبويهم بعادة الحبو على أربع بعد أن يبدأوا فى المشى . ومع ذلك فليس فى هذا ما يدعو إلى الإزعاج أكثر مما فى إمساك الطفل بقلم بين أصابع قدمه على هيئة صنيع القردة . ولقد عرض علىّ منذ زمن طفل كان متأخراً فى النمو العقلى إذ كانت عقليته وهو فى السادسة من عمره تشبه طفلا دون الثالثة . ولم يكد يأخذ يدى حتى عضها ، وأخذ يقرض أطراف مكتبى وعمد إلى كل شىء فى الغرفة مما يمكن تحريكه وأعرض عما لم يستطع تحريكه ولم يترك شيئاً إلا خبره بفمه . وكان كثير الحركة والنشاط حتى إن أمه ظنته نبيها حقاً . ويظهر أنه مما زاد محبتها إياه أن سلوكه كان يشبه سلوك الحيوان الصغير . وها كم مثل صبى آخر اسمه جورج وهو ذكى جداً وودود للغاية ولكن انفعالاته لا يكاد يمكن ضبطها ، وهو شديد النهم ، ولكنه إذا أكل إكلة كبيرة استقر على الأرض ، وانطوى على نفسه ونام كما ينام الكلب على السجادة أمام موقد النار . ألا تظن أن هذه الأنواع من السلوك تشبه سلوك الحيوان؟ ثم ألا تظن أن هذا يدل على قرابة بين الحيوان والأطفال على الأقل؟ راقب ابنك وانظر كم مرة فى اليوم يبدو من

حركاته واهتمامه ما يشبه الحيوانات تمام الشبه ، فالطفل الآدمى كطفل الحيوان كلاهما قد ورث عن أسلافه قوى معينة وجسما يعينه على استخدامها . وتلك القوى أو الغرائز كقوة الرضاع ، أو الإمساك بالأشياء أو الصراخ وما إليها تعتبر على هامش الحياة العقلية . وهى إلى جانب ذلك مرتبطة بالتعبير عن الانفعالات . والغدد التى فى الجسم والتى علمنا عنها الشىء الكثير فى الأيام الحديثة تؤثر فى نمو الجسم وفى التعبير عن الانفعالات وفى السرعة والاشتياق اللذين يتم بهما تلبية الغرائز البسيطة . والأطفال الذين يولدون بغدد مرتبكة فى عملها ، ينشأ فيهم شذوذ ، لا فى التعبير عن الانفعالات فحسب ، بل فى الذكاء أيضاً . فالطفل ذو الغدد الدرقية الضعيفة ينشأ مشوه الخلق خاملا غبياً . وهناك غدد أخرى إذا حدث فى تركيبها مرض ، أسرع نمو الطفل إسراعاً شديداً .

ألا يثير هذا مسألة وراثة الصفات العقلية الشائق . فإذا كانت الصفات الجسمية الخاصة تورث ، وإذا كانت غرائزنا وانفعالاتنا نتيجة لأجهزة جثمانية معينة تؤثر بدورها فى سلوكنا ، أفلا نستطيع إذاً أن نستنتج أن عقلية الناس يرجع شكلها إلى بعض الصفات الخاصة الموروثة ؟

لقد سمعنا كلنا حكايات عن صفات عقلية فى الأجداد ظهرت فى الأحفاد ، ولدينا أمثلة ناطقة عن وراثة القدرة الموسيقية والقدرة الرياضية(١) . ولقد اشتغل علماء النفس زمنا طويلا بدراسة الكيفية التى يورث بها الضعف العقلى وكيف أن عائلات ذات شهرة سيئة قد كثر فيها ضعاف العقول والمجرمون كثرة فاحشة . ولكن يجب أن أضيف أيضاً أن سلالة تلك العائلات الرديئة قد ظهر فيها عدد غير قليل من الرجال والنساء الممتازين .

---

(١) علم الرياضيات

وبينما نجد أن معرفة الخصائص الجثمانية الموروثة أمر سهل نوعا ، نجد أن معرفة الصفات العقلية الموروثة ليس بتلك السهولة . وربما كانت ملاحظة الآباء لصفة ما من الصفات العقلية فى الطفل من قبيل التنبؤ أو الانقياد للأمانى .

ولدى تحت العلاج أطفال كثيرون درسنا تاريخ عائلاتهم ، فالبعض آباؤهم مجانين ، ولكن الأطفال أنفسهم لا يبدو عليهم أى اختلال فى السلوك ، وآخرون لا غبار على أنسابهم ، ومع ذلك تجدهم أغبياء أو فريسة للاضطرابات العصبية . ولذا ترانا دائما عند ما تعرض علينا أطفال شاذو السلوك ، ندرس الخواص الخلقية لأبويهم وأقربائهم ، بالإضافة إلى الحالة الاجتماعية للعائلة ، والبيئة التى نشأ فيها الأطفال . فإنه ليس بالأمر الهين أن نقرر إن كانت تلك الخواص قد ورثها الطفل ، أم أنها ترجع إلى السنوات الأولى ، وما فيها من ضغط وكفاح وجدانى بين الوالدين وأطفالهما ، وبين بعض الأطفال وبعض .

وإن ما نستطيع التصريح به ، اعتماداً على ملاحظاتنا للأطفال وعلاقتهم بأبويهم وأسلافهم ، هو أن الخواص المزاجية تورث ، وأنها بمثابة التربة التى ينمو فيها السلوك فى المستقبل . ولأضرب مثلا بولد فى العاشرة من عمره ، هادئ الطبع ، متحفظ ، بطىء الفهم ، ولكن مقاييس الذكاء دلت على تفوقه فى الذكاء . ومن صفاته الأناة والدأب على العمل ، ومع ذلك فهو قليل الحركة ، أى يعوزه النشاط نوعاً ما ، ويميل إلى الانزواء ، وهو كذلك هياب ولا ينام وحده . وفى المدرسة يجلس فى الفصل وكأنه ليس به ، ولا يعلم أحد بمواهبه ، فهو بحاجة إلى التشجيع الدائم المستمر لإظهار مواهبه ، وتراه دائما خائفاً من أن تبتعد عنه أمه فيحرم عطفها وحمايتها . أما الوالد

فيشبه ابنه لحد كبير فى حالته النفسية العامة ، فهو هادىء متحفظ . وبطىء ، ولكن انتاجه العقلى قويم ثابت وهو رجل متزن احتفظ بوظيفته سنين عديدة من غير أن يبدو عليه أثر للاضطراب العصبى ، كما إنه لم يظهر فى صغره شيئاً من الأعراض العصبية التى تظهر فى ابنه . غير أن تاريخ العائلة دل على أن الطفل لم يتمتع بالطمأنينة فى حياته ، بسبب اعتلال صحة والدته ، حتى لقد كان يخشى أن يحرم منها فى أية لحظة . وخلاصة القول فى هذا المثال ، أن كلا الطبيعة والتربية قد خلقت مشكلة هذا الطفل ، وأن مساوىء وراثة نوع معين من المزاج قد استمرت فى حياة الطفل التى لم تكن برّة ولا مشفقة ، فها هنا أم تطبق عليها عوامل خارجية قبيل وصول وليدها ، حتى إذا جاء ، وجب أن نذكر أن كل ما هنالك هو أن فرعاً من الأسرة اتخذ وجهة جديدة ، وأن السلالة سارت فى اتجاه جديد ، نتيجة لاختلاط ماء الأبوين ، فليس هنالك فى الحقيقة بدء جديد ، بل مجموعة جديدة من العوامل .

ومع أن العقل كما نعرفه فى أنفسنا ، لم يجىء إلا متأخراً فى تاريخ الكائنات الحية ، فإنه على ما يظهر ، قد أثر كثيراً فى بناء الثقافة الإنسانية ، كأنظمتنا الدينية والاجتماعية والفنية ، حتى لنشعر بضرورة الاحتفاظ به وبصفاته المكتسبة عن طريق الوراثة . وإن الرضيع لا يبقى كالحيوان الأعجم الذى لا مهارة يدوية له إلا وقتاً قصيراً . فإذا طال أمد هذه المرحلة أحس والداه أن هناك انحرافاً خطيراً فى نمو الطفل . فإذا كان للكلام والمهارة اليدوية هذه الأهمية الجوهرية فى ميراثنا ، وهما متوقفان على الجهاز العصبى ، وحتى مع تسليمنا بأن هاتين الموهبتين تعتمدان على عضو مادى وهو المخ ، فلم لا نولى مثل تلك الأهمية أيضاً للعمليات العقلية المعقدة ، التى تتمثل فى الموهبة الرياضية أو الموسيقية أو الفنيــة . إن الطفل لينمو تبعاً لعوامل

خارجية ، وعوامل داخلية أو موروثة معا ، فالوراثة والبيئة لا يمكن فصل آثارهما كل على حدة ، كما أنه لا يمكن التفريق بين الصفات العقلية والجسمية ، إذ أن شخصية الإنسان وحدة لا تتجزأ ، فما نسميه العقل هو جهود الإنسان الدقيقة المستترة لإيجاد التوافق بينه وبين حاجاته المتغيره ، وذلك مانشاهده فى الطفل أثناء نموه . وإن الأفعال الكبيرة غير المهذبة التى نرثها فى غرائزنا لتهذب تهذيباً دقيقاً تبعاً لما نصادفه فى بيئتنا من تغيرات .

سأعود الآن إلى حاجات الوليد الأولية البسيطة ، لأوضح كيفية بزوغ الأشعة الأولى من الحياة العقلية ، والبذور الأولية لحياته الوجدانية المستقبلة . فمطالب الإنسان والحيوان واحدة فى جوهرها . ويبدأ كثير من الكائنات الحية حياته مجهزاً بما يجعله معتمداً على نفسه ، فالتمساح الصغير حين خروجه من البيضة ليس بحاجة إلى أم تعنى به وتذرف دموع التماسيح عليه إذا ما فشل فى اقتناص أول ذبابة يهم بها وهو رابض يستمتع بدفء الشمس . ولا أظننى بحاجة لأن أؤكد الحقيقة المعروفة ، وهى أن الحيوانات الدنيا لا تنتظر طويلا قبل خروجها لصيد الفريسة للغذاء والنضال فى سبيل الحياة . أما طفل الإنسان فما أشد اعتماده على غيره حين ولادته ، وفى شهور الضعف التى تليها ، فتراه يتحسس صدر أمه بحثاً عن عن ثديها على غير هدى أو دراية واضحة بالاتجاهات ، وليس لديه إلا فكرة ضئيلة عن أطرافه وموقعها حوله . فكثيراً ما ترى طفلا بدأ يدب على الأرض فإذا برأسه يصطدم بحافة المنضدة ، وربما لمس بيده بقعة غير البقعة الموجعة محاولة منه لتخفيف ألمه . وإن الطفل لفى حاجة لمعونة أمه فى التغذية ، ولا بد له من العناية ، وإلا مات تحت تأثير العوامل الخارجية ، على عكس الحيوانات الدنيا ، التى لا تلبث إلا قليلا حتى تقوى على مواجهة تلك الظروف ،

ولكنه مع ذلك يولد مزوداً بغرائز بسيطة تعينه على جهوده الأولى للمحافظة على حياته ، فما أسرع اهتدائه بنفسه إلى استدرار لبن أمه ، ولو أن هذا العمل بسيط يحتاج إلى شيء من الإغراء . وهو مزود كذلك بغريزة من أهم الغرائز وهي غريزة النوم ، التي تسبغ عليه الراحة التامة وتعهد له فرصة النوم والاستجمام . وتبدأ عملها في الرضيع بمجرد أن يشبع جوعه .

وباطراد نمو الطفل تبدو مظاهر جديدة لغريزة المحافظة على النفس . ويختلف الأطفال اختلافاً كبيراً في سرعة حلول تلك المظاهر ، ولذا تترقبها الأمهات لتعرف إن كان نمو الطفل طبيعياً . فبعض الأطفال يزيد وزنهم قبل البعض الآخر ومنهم من يبطيء في إظهار الميل لاستطلاع ما حوله ، وفي معرفته لأمه أو مربيته . ولا شك أن من المعلومات المهمة في نمو الطفل قدرته على معرفة الوجوه المألوفة وشعوره بنظام طعامه ونومه ، وهي أول خطوة في تربيته . ومن المعروف أن البنات يسبقن البنين في نموهن سبقاً غريباً ، ولدى الآن حالة توأمين طفل وطفلة . أما الطفلة فقد تقدمت عقليتها تقدماً كبيراً فاقت به أخاها وتمت لها السيطرة على انفعالاتها قبله ، فنشأت بذلك مشكلة في السلوك إذ حقد عليها أخوها تقدمها عليه وسبقها إياه في في المدرسة ، ولا سيما أن أمه كانت تعطف عليه أكثر منها . وكان رد فعله على هذا الموقف أن احتفظ بالكثير من عادات الطفولة حتى يستبقي عناية أمه التي كان يخشى أن تتحول إلى أخته النجيبة .

ولا يقتصر نمو الطفل على كبر جسمه بل إنه لتطرأ عليه تغيرات فعلية تجعل منه إنساناً آخر . فالرضيع يختلف جهازه الهضمي عن جهاز الطفل ذي الأسنان ، وأهم من ذلك أن انفعالات جديدة تظهر أو أن الانفعالات البسيطة نفسها تتعدل تبعاً لذلك النمو الجسمي . وهكذا يتحول الرضيع

الضعيف الكثير الاحتماء بصدر أمه إلى مخلوق جائع باغ ذى أسنان ، إذا جاع أمر وصخب ، ويداه اللتان كانتا بالأمس تتلمسان مصدر الدفء والحياة على غير هدى أصبحتا الآن تقبضان على الأشياء ، وتضعانها فى الفم . وأصبح العالم الخارجى يمسك به ويعتبر جزءاً متمماً للذات ولم يكن كل منهما أولا مميزاً عن الآخر . فدنيا الطفل فى أول الأمر ليس فيها سوى الذات أو « أنا » مختلطة بشوائب ومتاعب بسيطة ، ثم يلوح له أن تلك الأمور ليست دائمة الحدوث ، فمن هذه الدنيا ما يأتى ويروح وبعض أحداثها لا يأتى عند الحاجة إليه دائماً . فقد يكون الطفل ذات يوم ناعماً قرير العين بالدفء ، فاذا هو يحرمه فجأة ، وقد يؤخذ الثدى منه قبل إتمام شبعه ولكن صرخة من أعماق نفسه قد تستعيد كلا منهما ، وعندئذ يشعر لأول مرة شعوراً غامضاً أن هناك شيئاً غير ذاته يعارضها فى عناد أو يتغاضى عن رغباتها ، ولكن صراخه يعيد إليه ما سلب كأنه موهبة سحرته فيعاود الصراخ مرة أخرى . ويصبح الطفل ملكاً أو على الأقل يظن ذلك فى هذا العالم السحرى الذى تغدو فيه الأشياء وتروح رهن إشارته . ومما يدعو للدهشة ، أن صراخ الطفل يعبر عن يأسه واستغاثته أكثر مما يعبر عن رضاه . أما أصوات الضحك والسرور فتأتى بعد ذلك بكثير ، وقد يكون من الطريف أن تتأمل تلك الحقيقة على ضوء خبرتك مع الأطفال فإنك بلا شك ستستعيد الشىء الكثير عن السيكولوجيا البسيطة للأطفال الرضع ، وقد تصل كذلك إلى معرفة شىء عن منشأ الضحك .

وترتبط الأم ارتباطا وثيقا بعالم الطفل الغامض وما فيه من شهوات ومشاعر ، وتلعب دورا هاما فيه . فهى أقرب الهيئات إليه ، إذ فيها دفئه وقوام حياته ، وإشباع رغباته ، وهى التى تعدل رغباته البسيطة وتعين

لها الزمان والمكان ، ولذا تعد أم الطفل سواء أكانت أمه الحقيقية أم التى تبنته ، وكذلك حاضنته ، أولى عوامل التربية فى حياته ، إذ أنهن ينظمن أوقات الإشباع والحرمان لرغباته ، ويضعن النموذج البسيط الأول لسلوكه المستقبل القائم على أساس التغذية وما يتصل بها من شهوات ومشاعر . فالأم تعين أوقات تغذية الرضيع ، وأوقات نومه ، وبذا تعطى الطابع الخاص لسروره وآلامه ، حتى إذا أخذ الطفل يميز الفرق بين ذاته والعالم الخارجى كان شخص أمه فى أعلى مكان من عقله لأنها مرتبطة أشد الارتباط برغباته الأولية العاجلة . فهى وثيقة الصلة بحاجاته وحركاته البدنية وهى التى توجه إلى حد كبير أول فهمه للأشياء الذى يتمثل فى الألفاظ وفى العبث بالأشياء . نعم إن الأم لا تخلق ذكاء رضيعها ولكنها بلا شك توجهه وتعطيه الصبغة الوجدانية التى يصطبغ بها فى النهاية . وإن أول فكرة لدى الطفل عن الأحجام والأمكنة والمواقع يجنيها من اختباره لجسم أمه . كما أن معرفته للفترات بين مواعيد التغذية تزوده بأول فكرة عن مرور الزمن فى علاقته بالحوادث المتغيرة التى لا يلبث أن يقرنها بالعالم الخارجى . وفى أثناء كل هذا يصطبغ نمو معارفه بصبغة وجدانية . وإننا عرضة لأن نبالغ فى الفرق بين الذكاء والوجدان ، ولكن لا فرق بينهما عند كل من الرضيع والطفل . فإنا نرى الطفل يتحرق شوقا من شدة اهتمامه حين يمد يده فى ذكاء ليقبض على شىء ما أو ليعبث بلعبة من اللعب ، ويتملكنا العجب من شدة استغراقه واهتمامه بالشخشيخة التى يضربها بيده أو الخيط الذى يشده ، وتلذ لنا مشاهدة غضبه أو سروره . وبالاختصار نرى أن نشاطه شديد التأثر بوجداناته المرتبطة بغرائزه . فالطفل الذى لا يقبل على غذائه بشهية قد يكون مريضا أو لا يحب ذلك الغذاء لأسباب معينة . والواجب أن يبعد

عن الطفل جهد المستطاع كل ما من شأنه أن يشغله عن أوجه النشاط الجوهرية له . فمطالب الطبيعة لا تنتظر ، ويجب إشباعها من غير توان أو تأجيل . ومن المستطاع بل من الواجب أن تنظم عاداتها بمواعيد منذ البداية من غير التجاء إلى الإرغام ، وبأقل ما يمكن من التململ وقلق الوالدين .

وليكن معلوما أن وجود ما يشغل الطفل يخلق له ميولا متضاربة تؤدى إلى الاضطراب فى انفعالاته ، وهذا بدوره يعوق نشاطه الطبيعى الذى هو رغم بساطته حيوى له . وقلق الوالدين إذا زاد عن الحد جعل الناشىء يغالى فى أهمية بعض الظواهر البدنية المعينة ، كما أن عرقلة بعض تلك الظواهر بأى شكل كان يثير انفعالات ارتباطية تحفظ فى الذاكرة وتؤثر فى مستقبل سلوكه . فالأمهات اللاتى يعطين أهمية زائدة لأطعام الطفل أو لعملية تبرزه مثلا يبذرن بذور الاضطراب فى حياة الطفل الوجدانية ولا يبعد أن يضعن أساس اعتلال صحة بدنه أيضا . وكذلك الأمهات اللاتى يطعمن أولادهن فى غير نظام حسب الهوى أو يمسكنهم فى غير رفق أو عناية عند الاستحمام أو غيره يثرن فيهم اضطرابات وجدانية ضارة بنموهم . فالطفل الذى يعود من غير اضطراب أن يأكل فى مواعيد منتظمة ، وأن يراعى النظافة فى الطعام لا يتأصل فيه شذوذ التغذية . أما إذا عود الطفل تناول طعامه أثناء لعبه حين يكون متمتعا بنشاطه التلقائى فسيكون عرضة لاعتلال صحته بالتخمة فى المستقبل كلما عوق نشاطه التلقائى أو حيل بينه وبين لعبته . وكثيرا ما يقترن شذوذ التغذية بالشخص الذى كان سببا فيه ، فإذا كانت مربية الطفل هى السبب فيه كره الطفل كل المربيات بعدها . وقد رفض مريض راشد ذات مرة أن يذهب إلى المستشفى رغم حاجته الشديدة لأنه كما قال يكره تعنت الممرضات فى شأن طعامه ، وكان هو أيضا فى

صغره قد صادف من الممرضات ما جعله يكرههن ويكره أشباههن . وهكذا نجد أن مثل هذه الأخطاء تؤدى إلى ارتباطات فى عقل الطفل البسيط المباشر مما يؤدى إلى تصرفات شاذة فى مستقبل حياته .

وإن الكائنات الحية لتخضع كلها لنظام منسجم ذى فترات منتظمة فدقات القلب وسرعة التنفس وتعاقب النوم واليقظة كل أولئك أمثلة من ميل الحياة إلى الانتظام . وحركات الجسم الكبرى تتعاقب بين انقباض مجموعة من العضلات وارتخاء أخرى . وإذا اختل هذا النظام تعطلت الحركة . فعمل الأم يتلخص فى مساعدتها للطبيعة فى هذا النظام الدقيق التوقيت ، وفى تنظيم النشاط التلقائى للطفل حتى يسود التوافق الطبيعى حياته . أما إذا اختل هذا النظام فإن الطبيعة تثور ويثور معها الطفل لا عقليا فحسب ، بل جسميا أيضا . فإذا ما شكا الطفل ألما فى معدته ورفض النوم فى مثل تلك الحالات المرضية التى تتطلب استدعاء الطبيب ، فالذنب ذنب الأم مهما يكن عن غير عمد ، لأنها قد عرقلت التعاقب المنتظم فى حياته وأثارت أول مظهر من مظاهر السخط والثورة . ولا بد لإصلاح تلك الأخطاء الأولى من جهد كبير لإعادة تنظيم تربية الطفل . فالأم أول عامل فى وضع نظام حياة الطفل وتشجيعه لأنها أول مرب له ، ثم يجىء بعدئذ دور الأب فى هذا العمل الحيوى كما سنرى .

وتلك السنوات الأولى من تربية الطفل ، هى المرحلة التى ترتكب فيها أخطاء يترتب عليها الشذوذ فى السلوك المستقبل ، وبخاصة تلك الانفعالات التى تبديها الأم أثناء تربية الطفل ، فهذه تحدث اضطرابا فى حياة الطفل الوجدانية أيضا . وإن تلك الاضطرابات التى يسببها الوالدان لا يقف أثرها عند حد إحداث الشذوذ فى حياة الأطفال فرادى فحسب ، بل يتعداها إلى

حياة المجموعة كلها . وإنى أعتقد أن الكثير من عيوبنا ومشكلاتنا الاجتماعية يرجع إلى تصرفات الأمهات اللاتى لا يفهمن كيفية معاملة أطفالهن وهم أعضاء الهيئة الاجتماعية فى المستقبل .

وبهذا ندع جانبا هذا الرضيع ولبن أمه لم يجف على ثغره بعد ، فماذا علمنا عنه إلى الآن ؟ لقد بينت صعوبة استرجاع الشخص العادى لذكريات طفولته أو فهم طبائع الأطفال من غير دراسة . وقد فهمنا الآن أن الطفل يولد مزودا بأجهزة معينة كالجهاز العصبى الذى يحدو به إلى الاختلاط بالعالم ، ويؤدى إلى استثارة تلك الغرائز التى ورثها منذ القدم عن أسلافه من بنى الإنسان والحيوان ، والتى لا تكفى إلا لسد حاجاته الأولية إلا أن بها قابلية كامنة لأن تنمو وتتعدل وتتهذب . وقد لاحظنا ما بينه وبين الحيوانات الدنيا من شبه يرشدنا إلى وجه آخر من وجوه الإخاء العام ، ذلك هو اتصال سلسلة الكائنات الحية كلها . وأخيرا نرى الطفل فى كل مظاهر اعتماده على أمه التى تطعمه وتحميه من الضير . وتملك مع ذلك أن توجه نواحى اهتمامه البسيطة وتعدلها إما إلى الخير ، وإما إلى الشر ، والرضيع حينئذ لم يكد يصبح له بعد عقل ولكنه مع ذلك يكون معه قوى حافلة بضروب الاستعدادات . غير أن تلك الأشهر الأولى مليئة بالحوادث . فالتربية قد بدأت والوجدانات قد أخذت تتشكل وتقررت صنوف المحبة والكراهية فى نفسه . وسنراه فى الفصل التالى قادما على أول مرحلة من الحياة الاجتماعية وهى التى فى قلب الحظيرة العائلية .

الفصل السابع

الحظيرة العائلية

حدثتكم فى الفصل السابق عما تزود به الطبيعة كلا من الرضيع والطفل الصغير ، وعن حياتهما الوثيقة الصلة بالأم ، وحاولت أن أبين لكم أن الرضيع ، فى أشهره الأولى ، يكاد يكون مجرد حزمة من الغرائز والانفعالات التى لم تتخذ شكلا محدداً بعد ، وأن هذه وتلك موجهة نحو المحافظة على حياته الوثيقة الصلة بالأم التى تعينه على تحقيق ذلك الغرض . وإن الأم لذات أهمية حيوية للطفل حينئذ حتى إنه لا يستطيع أن يميزها من نفسه ، فهى مصدر الخير والسرور والراحة ، ولذا نجد أن شعوره الأول بالسرور والطمأنينة والراحة مرتبط بذلك الجزء من العالم الخارجى الذى يعرف فيما بعد باسم الأم . فهى التى تزيل كل الإحساسات المكدرة له إذا كانت على بينة من واجبها ، وهى التى تنظم كل أعماله وتبعد ما يشغله عن الاهتمام بها إذا كانت تتبع الطرق المثلى . فالانفعالات سارة كانت أم مؤلمة والغرائز التى تهيئ سبل الحياة المرضية والتجارب التى تبدو كأنها تعوق طريق تلك الحياة مرتبطة بوجود الأم حين يكون عقل الطفل شبيها بصفحة بيضاء لم يخط فيها سوى بضع جمل بسيطة ، وعلى هذه الجمل البسيطة ينبنى كثير من تأثرات الطفل فى المستقبل وتأثرات الكبير أيضاً .

كل هذا يجرى فى عقل لم تتوفر له بعد الألفاظ التى يعبر بها عما يدور به ، وإنما هذه تخط فى ذلك العقل كأنها رسوم وأشكال فى جهازه العصبى

أو لو شئنا تشبيها أحسن ، هى فى الحقيقة طرق ومسالك عبدت فاتخذها السلوك المستقبل لسهولتها . ولذا فإننا نستطيع القول إن الطفل لا يكاد يصل إلى المرحلة التى يمكنه فيها أن ينتزع نفسه من أحضان أمه ليدب فى أنحاء الغرفة ويمسك بالأشياء ويعض عليها ويضعها فوق بعضها ويرمى بها على الأرض ، حتى يكون قد ارتسمت فى عقله صورة شخص تحوطه انفعالات معينة قوية ولو أنها غير واضحة كل الوضوح . فما أكثر أن يأتى الطفل لأمه بأشياء طالباً موافقتها ، وما أسرع اكتشافه لما يسرها ويجعلها تظهر العطف ، وما أسرعه كذلك فى إدراك عدم الرضى فى ملامح وجهها وحركاتها . تأمل حالة الصغير حين يصحو فى الليل فيجد نفسه وحيداً فى سريره الخاص فى غرفة موحشة وأمه فى سرير آخر ، يهيأ إليه أنه بعيد عنه ، أو حين يبكى فلا تحضر أمه لبكائه . وكلكم تعلمون كيف يسهل نوم الطفل حتى فى الظلام حين يسمع غناء أمه ولو خافتا ويحس يدها ولو خفيفة ، ولذلك يعمل الطفل للحصول على اهتمام أمه بل إنه ليعمل على احتكاره فى جشع بصرخات الضيق والحركات الهائجة التى قد تحير الأم أحيانا إن لم تكن مصدر شقاء لها فعلا ، ولذا وجب على الأم إن كانت تود الطمأنينة لنفسها والصحة لطفلها أن تمنعه من التمادى فى تلك المحاولات المؤدية إلى التحكم المطلق .

فهذا هو الوقت المناسب لتنظيم سلوك الطفل الذى ذكرناه وهنا أول فرصة يجنى فيها الطفل فكرته عن العالم الخارجى وعن الحياة المنتظمة . وبعبارة أخرى نقول إن ذلك الوقت هو أول عهد الصغير بالقواعد ومن يسر تلك القواعد وانتظامها وعدم التراخى فيها ينشأ فى نفس هذا الكائن الإنسانى الصغير أول نموذج للنظام والقانون . وإنه ليتقبل بارتياح ذلك النظام الذى تغرسه فيه أمه إذا لم يعترض غرسه بإظهار الانفعالات أو كان هناك

ما يصرفه عنه ، أى ما يعوق حاجاته الجوهرية . وإن مما يسهل على الأم فرض ذلك النظام عليه أنها مصدر كل خير يأتيه ، فهى تمده فى نظير ذلك بالغذاء وبالملذات ، وما دام النظام والمحبة يأتيان من مصدر واحد فإن الطفل ليتقبل بسرور ذلك السلوك الذى يطلق عليه فيما بعد اسم السلوك الخلقى .

غير أن هناك فى المنزل شخصاً آخر يتصل عن قرب بالطفل ولكن لا كاتصال الأم ، ذلك هو الأب ، فهو لا يظهر على مسرح حياة الصغير إلا بعد الأم كجزء من العالم الخارجى ، وهو أقل ارتباطاً من الأم بحاجات الرضيع البدنية المباشرة ومشاعره . كما أن معاملته إياه فى كثير من النواحى ليست فى رقة الأم فى أغلب الأحيان كما هو معلوم للجميع ، فلمس جسمه إن شئنا أن نقول أقل نعومة من جسمها وصوته يختلف نوعه عن نوع صوتها وقد يكون صوته مثيراً لخوف الطفل الصغير ، ووجوده إلى جانب الطفل أقل بالطبع من وجود الأم ، فلن يألف الطفل رؤيته بسهولة . وإن الأب يظل دائماً بعيداً فى الأشهر الأولى على الأقل ، فهو جزء من بيئة الطفل التى تذهب وتجىء ، وهو حادث عرضى لا حقيقة دائمة . ولذا فإن الأب بمحض اختلافه عن الأم فى الحجم وفى الطباع لا بد وأن يعطى الصغير فكرة تختلف عن فكرته عن الأم ، وذلك عند ما يدخل فى حياته فى وقت يكون قد نشأ لديه فيه بعض الاستقلال وأخذ يتنقل فى أنحاء الغرفة ويلمس الأشياء ويكسرها .

ولقد جرى العرف فى الأسر العادية منذ القدم على أن تتمثل فى رب البيت سلطة وضع القانون والقواعد والنهى عن أشياء معينة وتحريم غيرها ، وليست بوعز هنا بأن الأب يجب أن يسلب تلك الحقوق التى اكتسبها منذ القدم وأن نمنعه من حفظ النظام فى بيته ، ولكن يجب أن نفهم كيف يرى الطفل

الذى لم ينضج بعد تلك القوانين التى يضعها الراشدون للحياة النظامية وهو لم يزل بعد تحت سيطرة الانفعالات الأولية والرغبة فى إرضاء غرائزه بطريقة تلقائية . ولذلك فإن الأب يتمثل أمام الطفل فى المحرم والمكروه . ولكن ليس هذا كل شىء بأى حال ، ففكرة الطفل عن الأب يشوبها أيضاً الإعجاب والمحبة ، وعلى الأخص إذا كان الطفل ذكراً ، فهو يقال له منذ نعومة أظفاره إنه رجل صغير وإنه سيصير يوماً رجلا كبيرا طويلا كوالده ، فينشأ لديه حينئذ الإعجاب به والرغبة فى السمو إليه ولا سيما أن أهم ما فى خبرة الطفل تأتيه عن طريق المحسات ، فالحجم والقوة المادية والقدوة هى التى تدهشه إن لم تخفه قليلا . ولذا كان إرضاء تلك الشخصية العظيمة من أعز أمانى الأطفال الصغار ، فرضاه قد يخفف من صرامته ، وطاعته قد تجلب شيئاً من ذلك الحب الذى تعطيه الأم أيضاً .

وهكذا نرى أن الحب والنظام اللذين يتحولان فيما بعد إلى طاعة يختلطان سويا ، وأن إحاطة الطفل بالأشياء من العالم الخارجى يساعده على النمو وجدانياً وعقليا . أما الذكاء فينمو باستخدام الطفل لقدراته الموروثة فى اختبار الأشياء وفى تعلم عناصر اللغة البسيطة . وما دام سلوك الطفل ينجم عن تعديل الحوادث البسيطة جداً لغرائزه وانفعالاته فإن سلوكه سيصطبغ بالانفعالات التى استثارها هؤلاء الذين فى عالمه الصغير والذين يحبهم ويعجب بهم ويخافهم ويطيعهم ، حتى إنهم ليصبحون جزءاً لا يتجزأ من كيانه الوجدانى والعقلى . فالطفل فى حبه لأبيه وأمه يجعلهما جزءاً من نفسه كشخصين محبوبين ، وفى إعجابه بهما يتخذ لنفسه نموذجاً للكمال لا يتطلبه من غيرهما فحسب ، بل يعمل على احتذائه هو نفسه . وهو حين يخافهما ويطيعهما يضع لنفسه نظاماً للسلوك يحق أن يتخذ ذخراً عزيزاً

على نفسه لأنه استمده من مصدر محوط بالمحبة والإعجاب . وكثيراً ما وجدت في حديثي مع الأطفال الصغار أثناء عملي وملاحظتي للعبهم أنهم يتمثلون بمن يحبون لدرجة تقليد حركاتهم كتقليد الأب في عرج بسيط مثلا . ولقد رأيت منذ أيام ولداً صغيراً أرهقته أفكاره الأخلاقية إرهاقا كثيراً وكان أبوه خبازاً نال حبه وإعجابه فأعطاني ذلك الصبي وصفاً غاية في الدقة لخبز العيش ، وكان حماسه شديداً لدرجة أدهشتني ، ثم قال إنه يود أن يكون خبازاً ولكن لا أظن أن أبي يسمح لي . وذلك الطفل كثير المخاوف التي يصل بعضها إلى حد الهذيان فهو يرى أيديا تمتد إليه من خلف الأبواب ، كما أنه دائم التلفت خوفاً من أشخاص وهميين يتبعونه . ترون إذن أن ذلك الصبي الغض قد تشربت نفسه منذ نعومة أظفاره آراء عن السلوك ومخاوف متعلقة به وإعجاباً ومثلا عليا على نمط أبيه . ويتضح لنا المدى الذي قد تصل إليه هذه العملية في نفس الطفل من حلم مريض راشد كان أبوه قد مات وهو صغير في سن الثامنة ، فإنه رأى الله في السماء وقد حفت به سحب الجلال وأنه لابساً بذلة جاويش من فرقة المشاة الأولى (الجرنادير) ، وقميصاً أحمر قرمزيا ، وقبعة من الشعر من طراز بزبي ، فاعتراه رعب شديد ، ولكن ذلك الشيخ مد إليه يده قائلا : (لا تخف يابرت) . وكان أبو المريض جاويشاً في فرقة الجرنادير ، ولذا كان ذلك الصبي يتحرق شوقاً منذ صغره ليلتحق بالحرس في تلك الفرقة فلما أتت الحرب كانت أكبر ضربة لآماله أن استبدل اللون القرمزي بلون الكاكي الأصفر .

وإنه لمن الصعب في السنوات الأولى على الطفل أن يعبر باللغة في ألفاظ عن كل تلك المشاعر التي يكنها لأبويه فضلا عن أن الكثير منها لا شعوري . فما السبب في كونها لاشعورية ؟ وما تأثير بقائها لا شعورية على السلوك ؟ .

إن العناصر اللاشعورية فى موقف الطفل نحو والديه مقترنة بمشاعر وانفعالات وغرائز كلها محرم وممنوع . فالشهوات البسيطة يجب أن يكبح جماحها والعمليات الجسمية لها مواعيدها . وقد يمنع منها الطفل كلية حين يود الاستغراق فيها . فهذه النواحى كلها مقترنة طبعاً بالأبوين اللذين يسيطران عليها ، فيكظم الطفل غيظه منهما لأنه لا يستطيع المصارحة به ، فيأخذ هذا الغيظ أشكالا تنكرية عديدة ، ويحاول التعبير عن نفسه بوسائل غير متوقعة . ولقد لوحظ أن طفلا فى غرفة اللعب كان لا يفتأ يضرب الحيوانات واللعب وبخاصة الحيوانات إذ كان يلذ له أن يقتلها . وفى ذات يوم حين كنت أتحدث إلى أمه فى غرفتى إذا به قد انطلق من غرفة اللعب وبيده عصا وضربنى بها قائلا فى حدة « ماذا تفعل بأمى ؟ » . وقد قالت الأم إن تلك الحادثة كثيرة الحصول فى البيت إذ ينهال دائماً بالضرب على أبيه ، وفى الحقيقة على كل شخص يظن أنه قد احتكر اهتمام أمه وقتاً ما .

وكثيراً ما نصادف رأياً تؤيده بعض نظريات واسعة قائمة على بحث عميق فى العقل الإنسانى ، مؤداه أن هناك نزعة بل ميلا عاما فى الحقيقة لدى الأطفال الذكور إلى التفانى فى حب الأم منذ البداية ، بينما تكلف الإناث بآبائهن . ويقول ذلك الرأى أيضاً إن حب الطفل لأحد الوالدين من الجنس الآخر يؤدى إلى كره الوالد الذى من جنس الطفل بنفس الشدة . ولقد ظهرت هذه النزعة واضحة من غير شك فى سلوك الولد الصغير الذى حدثتكم عنه الآن ، فحبه لأمه واعتماده عليها جعله ينظر إلى أبيه كفرد دخيل . والحالات التى تشبه هذه ليست بالقليلة . وإنى لأستطيع أن آتيكم بأمثلة لبنات صغيرات ونساء أيضاً أظهرن بطرق شتى منها ما هو واضح ومنها ما هو ملتو حباً شديداً لآبائهن وكرهاً عميقاً لأمهاتهن . ولقد اختلفت

الآراء فى تعيين السن التى يبدأ فيها ظهور هذا الحب والكره ، بل إن هناك من ينكر صراحة ظهورها فى سن مبكرة على الإطلاق . ولقد قيل إن موقف أعداء هذا الرأى يقوم على كره دفين لهذا الموقف الوجدانى . وليس من شك فى أن ذلك الكره الدفين متمكن من نفوس جميع المتحضرين بله المتوحشين . ويذهب البعض إلى أنه قد أدى إلى كبت مثل تلك المشاعر أى دفنها فى أعماق النفس لدى كل الأصحاء أو العاديين من الناس ، وأن المرضى باضطرابات عصبية أو عقلية هم الذين يناضلون للسيطرة على تلك الانفعالات والرغبات الشديدة المرتبطة بتلك الحالة من الحب والكره التى يرجع أصل نشأتها إلى سنوات الطفولة . ولعلنا جميعاً على اتفاق فى أن انفعالات الطفل تعوزها الرزانة والتحديد وأنها لم تتأثر بعد بتلك العادات الاجتماعية التى جعلت منا معاشر الراشدين أناساً متحضرين ، وأن تلك العاطفة التى يسميها الراشدون عاطفة الحب ، لا يسهل معرفة مدى ارتباطها بالذكور والإناث فى السنوات الأولى من حياة الطفل إلا على من لهم اتصال وثيق بنمو الأطفال النفسى وعلى من درسوا عقول الراشدين فى نضالها وكفاحها . إن موضوع الحب فى صلته بالحياة ليلعب فى عقل الطفل دوراً أهم مما نعترف به . لنلق نظرة عاجلة على تلك القصص الخرافية العديدة التى يتسلى بها الأطفال فى جميع البلاد على ممر الأزمان ، فكم منها يخلو من قصة الأمير والأميرة وقصة البنت الجميلة مع الوحش الكاسر ، ومن تصوير الحب تصويراً خيالياً جذابا ثم مخيفاً تصبح فيه الوحوش أمراء وتتسلط الأفاعى والكائنات الوحشية الغريبة على أميرات بريئات ، وكم منها كذلك يخلو من قصص صبيان صغار يقتلون عمالقة كبار ، وغير ذلك مما يشبع نفوس الأطفال ولا يتحقق إلا فى عالم الخرافات .

هذه القصص الخرافية التى أتتنا فى ميراثنا الثقافى الشعبى تمثل طفولة العقل الإنسانى الكامنة فى قرارة نفس كل فرد منا مختفية فى الظاهر، ولكن تستثار عندما نسمع تلك القصص، وتتمثل فى أحلامنا بل وفى حياتنا أيضا. فالآباء والأمهات هم ملوك القصص الخالية وملكاتها وآلهتها، والأطفال هم الصغار المجهدون وأبناء الفقراء من قاطعى الأخشاب والسجناء من الأمراء والأميرات. فإذا رأينا كيف تظهر الانفعالات فى حياة الطفل أثناء اختلاطه بأبويه أو فى القصص الخرافية والتراث الثقافى الشعبى علمنا مقدار تغلغل هذه الأشياء فى عقله. فالبنت الصغيرة تتخيل نفسها أم المستقبل حين تلعب بعروستها وتقلد غسيل الفوط واستحمام الرضيع وإدارة المنزل وهى تضرب عروستها وتأمرها بالنوم كما تفعل معها أمها. والولد الصغير يتخذ تحت السرير أو المنضدة قباء كقباء الهنود الحمر يلعب فيه مع أخواته الصغيرات أو صويحباته دور الأم والأب ويمثل ما يراه فى البيت من مهازل بل مآس مليئة بالسخرية أيضا، فتراهم يمثلون التنافس فى الحب والرغبة فى السيطرة وهم فى لعبهم هذا تتفتح شخصياتهم أولا فى عالم الخيال، ثم فى عالم اللعب الذى يتخذون فيه لنفسهم أدوار الأبوة والأمومة. ولقد رأيت أطفالا يلعبون، فيما بينهم أو بلعبهم، فإذا الموقف العائلى الذى كان غامضا على يتضح بصورة مؤلمة أو مضحكة.

ولا بأس بأن نبسط حياة الطفل الوجدانية باعتبار مجموعتى الانفعالات اللتين يقوم عليهما سلوكه وما ينتابه من اضطرابات تؤثر فى تقدمه فى السنوات الأولى من حياته. هنالك طائفتان متضادتان: الأولى تشمل الانفعالات التى تصدر عن الحب وما يؤدى إليه من شعور بالاعتماد على الغير. والثانية تشمل حالات الخوف والغضب والكراهية التى تنشأ من اعتراض

سبيل الحب . فالرضيع كما لاحظنا لا يتنازل بسهولة عن اعتماده على أمه ، وما ينطوى عليه من لذة وسعادة . ولكن الطفل الذى يسعد بأم حكيمة لا تغدق عليه العطف جزافا ولا تدعه يتحكم فيها أو فى رغباته الملحة ، بل تغرس فيه الشغف بالعالم الخارجى وتشجعه على الاتصال به ، مثل هذا الطفل يكون حرا طليقا فى اتصاله بما فى العالم الخارجى من أناس وأشياء . أما إذا فشل فى التحرر من أمه فإن نموه الوجدانى يعترض فيعجز عن توجيه حبه وإخلاصه نحو غيرها من الناس ، ويظل هكذا مقيدا إلى أمه . وإن طفلا هذا شأنه لتعوزه الشجاعة فى مواجهة صعاب الحياة أثناء نموه ، تلك الصعاب التى تذكى مواهبه وتكسبه المرونة الوجدانية ، فإذا نشأ مثل ذلك الطفل « المقيد إلى أمه » هيابا لانفعالاته ونفسه ، أو إذا نشأ غيورا على حب أمه أو خائفا من أن يسلبه أحد ممن حوله حبه لأمه أو حبها له نما فى نفسه الخوف والغضب المتولدان من الهزيمة . فإذا تمادى فى غضبه أصبح طبعا من طباعه وولد الكراهية ، ذلك الانفعال الذى يعمل الآباء كل مافى وسعهم للحد من سطوته . فالطفل كما قدمنا حساس لما يلقى من رضى أو سخط ، ولذا فإنه حين يحاول إرضاء من يروم حبهم وإزالة خوف المشرفين على سلوكه لا يتوانى فى طرد مثل تلك الانفعالات من نفسه ، وهكذا ترى صورة غريبة لانفعالات متضاربة متمكنة من نفسه ، ولا بد مهما كان الثمن من شق طريق فيها ليسير فيه تيار الحياة . وقد يحدث أحيانا أن ينعكس جريانه فيظل الطفل محتفظا بعادات الطفولة التى تتستر بقناع المرض أو الخوف من أشياء ليس بينها وبين الخوف الأصلى إلا وجه شبه ضئيل ، وليس من النادر أن تنشأ اضطرابات فى السلوك تبعا لذلك فيثور الطفل فى نوبات غضبية معرضا عن محبة هؤلاء الذين يود هو أن يقربهم من نفسه . وقد

يصل الأمر به إلى الابتعاد عن بيته وهو لا يكاد يعلم إلا علما غامضا أنه يفعل ذلك طلبا للمحبة التى تمنعه انفعالاته المتضـاربة من التعبير عنها فى الحظيرة العائلية ، ويقبع فى جو من اليأس وعدم الاكتراث فى النهاية وقد يصل به الأمر إلى أن يوصد أبواب نفسه عليه ، أو أن ينسج من الأوهام عالما يشبع فيه رغباته التى لم تتحقق وينال فيه مشتهاه من الحب أو السيطرة . وهكذا يركب الطفل مطية الخيال ، وفى عالم الأوهام وأحلام اليقظة يرضى شهواته ويحقق آماله . ولذا فإنه من المفيد أن نسمح للطفل باللعب لأن ذلك النشاط الحر يعلمه كيف يبنى لنفسه عالما صغيرا خاصا به ويزوده بالمهارة كما يسمح له بأن ينفس عن كثير من مشاعره فى لعبه الوهمى . ولو استطعنا فهم تلك المشاعر كما يمثلها فى لعبه ، لعلمنا لا موضع خطأ الطفل فى فهمه لغيره فحسب ، بل أيضا كيف أخطأنا نحن فى موقفنا نحوه .

أو تدرى إلى أى حد ينفس الأبوان عن شعورهما فى موقفهما مع الطفل ؟ إن الأم التى خابت أمانيها قد تنفس عن كدرها باغداق العطف الشديد على الطفل لدرجة تربطه وإياها بقيد يغل تقدمه . وأزيد على ذلك شيئا قد ننساه خجلا منه ، ذلك أن المعاملة التى كنا نعامل بها فى صغرنا ، والتى لا نكاد نذكرها تؤدى بنا إلى التنفيس عما بنفوسنا من بغضاء بمظاهر مقنعة للغيرة لا نميل للاعتراف بها . أفنكون مغالين إذاً لو قلنا إن الطفل يحس بسخط والديه وغيرتهما ، فينشأ فى نفسه شعور بأنه محتقر منبوذ مما يستثير فيه انفعالات الانتقام ، وقد يضع أساس الإجرام فى المستقبل .

غير أن الحظيرة العائلية فى أغلب الأحيان ، لا تظل طويلا مقصورة على الثالوث الأبدى من أم وأب وطفل ، وإلا نشأت مشكلة الطفل الأوحد ، حتى لقد قيل إن مجرد كون الطفل أوحد ، مرض فى حد ذاته . والعادة أن

يغمر الأبوان طفلهما الأول بالعناية البالغة فيؤكدان بذلك تفرّده ، فتراهما يعجبان بكل حركة من حركاته ويحرصان على محبته حرصهما على شيء ثمين جدا مما قد يؤدى إلى الغرور ونزعة الاكتفاء بالنفس . فما دام الطفل غير معرض للنقد فإنه ينزع إلى الزهو والشعور بالعظمة وهو شعور طبيعي لديه . ويظل هذا الشعور يؤثر فى سلوكه المستقبل فيبالغ فى كلا غضبه ومحبته على تضادهما ، فضلا عن أن تفرده يؤدى إلى تركه ونفسه فى كثير من الأحيان فيأخذ فى تأمل أفكاره ومشاعره . أما إذا كانت العائلة كبيرة فإنه ينشأ ما يشبه جمهورية صغيرة ، إذ يكون الاتجاه نحو توزيع الحب الوالدى وكثر الأخذ والرد ويتسع المجال لخلق المواقف الاجتماعية فى سن مكبرة حين يكون العقل مرنا سهل التقبل . نعم قد يحدث من آن لآخر فى بعض الأسر الكبيرة أن يولد أطفال غير مرغوب فيهم لأسباب اقتصادية أو شخصية . فطفل هذا شأنه لا يلبث أن يشعر باختلافه عن الآخرين وبأنه لا يعطى مثل غيره من العطف والاهتمام ، وهو سرعان ما يلحظ ذلك فينشأ الشذوذ فى أخلاقه . فأحيانا يؤدى هذا إلى تقوية خلقه بإيجاد الحافز إذ قد يقول الطفل فى نفسه « لأثبتن جدارتى بالتفوق ولأستردن حقى من الحب بالإخلاص » .

كذلك الطفل الذى يكون آخر إخوته فى الأسرة الكبيرة ، له مشاكله وخصائصه ، فهو يولد بعد زمن طويل وربما يكون الأبوان قد أخذا يملان تربية الأطفال ، ولكنهما من جهة أخرى قد يجدان فيه تحفة سارة ووسيلة لإعادة ذكرى أيام الزواج الأولى عندما أعجبا بالمولود الأول وسرّا به . ومع ذلك فقد يكون كما فى قصة سيدنا يوسف مثل بنيامين عند والديه ، ومثل يوسف عند إخوته . وهو بلا شك يستفيد من مجيئه بعد

إخوته لما استفاده أبواه من المعرفة والخبرة ، فيبدو لذلك كأنه ما هو عنهم . ولكنه يكون أيضا بمعزل عن إخوته الذكور والإناث ، وقد يؤدى به هذا لأن ينسج لنفسه عالما خاصا ينشأ فيه وحيدا ومتعاليا معا . وكما أنه يغلب فى هؤلاء الأطفال أن يكونوا نبهاء ، فإنهم كثيرا ما يصابون بأمراض عصبية .

ولنعد النظر فى حالة الأسرة لندرس مسئولية الآباء فى تنشئة أطفالهم والصعوبات التى يجدها الأطفال فى سبيل الوفاق مع أولئك الذين تعتمد عليهم حياتهم المستقبلة . ولنسأل أنفسنا سؤالا فى هذا الصدد وهو : أيعوق الآباء نمو أطفالهم ؟

إن هناك فى الأيام الحديثة كما تعلمون رأيا آخذا فى الانتشار . يقول إن الحياة العائلية فى كفة الميزان ، فلقد وصل إلى علمنا الشيء الكثير عن نفسية الإنسان وعن أهمية الانفعالات فى النمو العقلى حتى لقد يتطرق إلى ذهننا أن الأبوين لا يستطيعان فهم أنفسهما ، أو عقول أطفالهما ، فهما كافيا لمنح الحرية لميول الطفل الطبيعية . وأظن أن مثل هذه الفكرة نجمت عن المبالغة فى نقط الضعف لدرجة تنسينا أهميتهما فى تشكيل خلق الطفل ، وربما استحققت اللوم أنا نفسى على شرح أخطار الأخطاء الوالدية لكم ، ولكنى عالم كل العلم بالصفات الخلقية القوية التى تنتج حتى من الكفاح الوجدانى . فإن الرغبة فى الظهور بالمظهر الحسن أمام الوالدين المحبوبين والعزم على بلوغ المثل العليا تنتج فعلا شخصيات من أبدع ما ورد فى التاريخ ، وصفات جذابة فى أناس من أوساط الناس فى الهيئة الاجتماعية ، هذا على شريطة أن لا يكون الحب شديدا خارقا والمثل الأعلا قاسيا .

إنى لم آت بكل ما هنالك فى موضوع نمو عقل الطفل وإنما أترك

لزميلى تناول نمو العادة وأهمية نشاط اللعب للطفل وما إلى ذلك . والآن ألخص فى إيجاز ما ذكرناه . فلقد رأينا أن كلا الوالدين ذو أثر هام فى النمو الوجدانى للطفل ، فهو يولد مزودا باستعدادات وجدانية تستثار وتتشكل بتأثير الوالدين وبموقف الطفل تجاه ذلك التأثير ، ولقد بحثنا طائفتين متعارضتين من المشاعر لأنهما يؤثران تأثيرا بالغا فى إخراج النموذج العقلى النهائى وهو عقل الشخص الراشد ، فالمحبة والكره يبدآن منذ أول نفس يتنفسه الطفل ، والانفعالات تنتقل وتتحول فى كل اتصال إنسانى ، ويتمهد طريق النمو الهادىء بفعل العوامل الناتجة عن سلسلة من المعارضات بين الحب والاعتماد على الغير والخوف والغضب والغيرة ، وكلها تعطى اللون الخاص لتلك العملية الجوهرية وهى عزيمة الإنسان على أن يحيا أحسن حياة ممكنة . ومن الصفات العقلية اللازمة للحياة الاجتماعية أن يكون للمرء موقف خلق . وأظن أننا قد رأينا كيف أن كفاح الطفل ليس إلا جهادا لتكوين ذاتية خلقية تحيا فى انسجام مع انفعالاتها ورغباتها الغرزية العميقة الأساس ، وذلك الانسجام الذى يتولد عن التربية الدقيقة التى لا تقوم على اضطراب وجدانى ، فهو الكفيل بنشوء الأطفال سعداء ، وكبارا ثابتى الجنان .

الفصل الثامن

مخاوف الأطفال

سأتكلم فى هذا الفصل عن مخاوف الأطفال وعن كيفية تولد الخوف وأثره فى سلوك الطفل . لقد سبق أن قلت شيئاً فى ذلك الموضوع ، ولكن ذلك كان عرضاً فى سياق الحديث عن غرائز الطفل وانفعالاته وعن تلك المخاوف الخاصة التى تظهر فى الحياة العائلية . أما الآن فإنى أحدثكم عن الموضوع من أوله . يستجيب الطفل منذ ولادته تقريباً لما يدور فى العالم الخارجى ويقع على حواسه ، فالضوء الساطع يجعله يحرك عينيه وإذا مرّ خيال فجأة على عينيه لا يغمضهما قبل بلوغه اليوم الخامس والستين . أما الرضاعة فيقبل عليها من غير تحريض كثير . وتدعوه الأصوات العالية وإزالة ما يرتكز عليه إلى الصراخ والإتيان بحركات دفاعية معينة وتتصلب عضلاته حينئذ كأنها تستعد لدرء الخطر . هذه الاستجابة أو بعبارة أخرى سلوك الطفل نتيجة للحادث الذى يهدده يسمى خوفاً وقد يصعب عليكم معرفة أنه من الخوف . ولذا يجب علينا أن نبحث فى معنى الخوف ، فهو مجموع الحركات والصراخ وتغيرات اللون كالاصفرار الفجائى واتساع حدقة العين وسرعة ضربات القلب مما يقترن بالخطر المفاجىء ، فهذه التأثرات الجثمانية كلها فى الحقيقة تمثل جهود الطفل للنجاة من خطر يهدد حياته ولو كان فى استطاعته أن يمشى أو يحبو لباعد بكل ما فى وسعه بينه وبين مايهدده . فالخوف باختصار إذاً هو التأثرات الجثمانية التى تصحب الهرب أو التى يستعاض بها فعلا

عنه . وبعبارة أخرى هو غريزة الهرب . وإن ردود الفعل ، أو الاستجابات البسيطة التى ذكرتها قد درست دراسة دقيقة فيما يسمى معامل الحضانة وهى أماكن يدرس فيها علماء النفس كل حركة وكل صرخة للطفل فى أوقات مختلفة من الأسابيع الأولى فى حياته ، وبعبارة أخرى تدرس هذه « الاستجابات » قبل أن تبدأ عوامل العالم الخارجى العارضة التى لم نستطع تسجيلها تسجيلا دقيقاً بعد تأثيرها فى جسم الرضيع وعقله الأولى البسيط . ولقد دلت البحوث التى أجريت فى مثل تلك المعامل الخاصة على أن الطفل الذى حيل بينه وبين مؤثرات العالم الخارجى التى يتعرض لها غيره من الأطفال ، سواء أكان بسبب إهمال مربياتهم أم عنايتهن لا يبدى شيئاً من أعراض الخوف فى الظلام عند ملامسته للطيور أو القطط أو الأسماك أو الثعابين بل والورق المتقد أيضاً .

ولقد ذكرت أن البحوث دلت على وجود شيئين يبعثان الخوف فى الرضيع الحديث الولادة بصرف النظر عن العوامل الخارجية ، وهما الضوضاء العالية وزوال ما يستند إليه ، فإذا ما « اقترن » الظلام أو حيوان ذو ملمس صوفى أو نار متقدة بأحد هذين المؤثرين الأولين نتج عنه الخوف فى كل المناسبات التالية إذا ما تكرر ذلك الاقتران بضع مرات ، ويطلق إذاً على حدوث الخوف هكذا بالترابط اسم « الاستجابة الوجدانية الشرطية » ، أو بشكل أبسط ، ينبعث انفعال الخوف الآن بشروط معينة ليس من الضرورى أن تكون باعثة للخوف فى أول الأمر . وبعبارة أخرى الخوف من الكلب هو الخوف من نباحه قبل الخوف من عضته . ولعلنا نستطيع أن نقول إن كلا من الصوت العالى والخوف من السقوط مؤلم للطفل ، فإن غريزة المحافظة على النفس تستثار فى الطفل ، ولا بد للطفل أن يبذل بعض الجهد لإنقاذ نفسه .

ولذا يمكن أن نقول بوجه عام إن أى ألم وأى حادث يعترض سبيل المحافظة على النفس لدى الطفل يبعث الخوف كما يستثير الحركات الجثمانية التى تقترن به . والجوع نوع من الألم وتقييد الحركة مؤلم ، فيلوح إذاً أن الكثير مما يحدث فى حياة الرضيع الصغير من الحوادث الأساسية البسيطة قد يبعث الخوف ، فألم الجوع مثلا الذى من شأنه أن يستدعى أم الطفل إلى جانبه ، يرتبط بإحساس أن هناك شيئاً ناقصاً وبشعور بالوحدة والحرمان . وهكذا نعلل شعور الطفل بالخوف لأول مرة عند ما يترك وحده . فليس الظلام سبب خوفه بل الشعور بالانفصال والوحدة والحاجة التى كثيراً ما تقترن بالظلام . كذلك ليس الحيوان سبب خوف الطفل وإنما الأصوات التى يحتمل أن يرسلها الوالدان والمربيات تقليداً له عند ما يقدمون إلى الطفل دمى صوفية اللمس ليلعب بها . وإن الحركات الفجائية التى نأتيها عند ملامستنا لأشياء تدب أو تزحف أو تنطلق فجأة ليست حركات خوف فى حد ذاتها وإنما حركات دفاعية لدرء الأذى المفاجىء . ويصحب الخوف تلك الحركات لأنه ينبعث عن طريق الترابط ، فإن عقل كل من الحيوان والرضيع على بساطته يتكون بطريقة الترابط هذه ، أى باقتران حادثين لا يشترط أن تكون بينهما علاقة وإنما يتكرر حدوثهما سويا . ذلك أمر بالطبع مرغوب فيه . ولكن من المرغوب فيه أيضاً أن تكون الارتباطات مفيدة فى الحياة بدلا من أن تكون عائقاً لها . ففى تربية الطفل فى أول الأمر ينبغى للوالدين والمربيات أن يكونوا من الارتباطات ما يرونه مفيدا وأن يمنعوا ما يرونه غير مرغوب فيه . فمثلا من الأمور المرغوبة أن يخاف من النار طفل احترق بها وأن ترتبط بعض الأطعمة فى عقل الطفل بالخطر وأن يشجع على بعض أنواع بسيطة من السلوك الاجتماعى يجعلها سارة . هب طفلا

نشأ مع مربية لا تفتأ تقفل الأبواب بضوضاء شديدة وتتكلم بصوت عال ، فإن لم يكن أسلوبهـا فى إطعام الطفل ساراً صار من المحتمل أن تصبح هى نفسها باعثاً للخوف وأن يصبح وقت الطعام بغيضاً ، وهكذا يصبح كل من المربية والطعام شيئاً مكروها لدى الطفل إذا ما حضرا معاً .

تعلمون أن الطفل كثيراً ما يقبل طعامه من أمه ولـكن يرفضه من مربيته أو بالعكس . وكذلك الرضيع قد يقبل بكليته على شخص ما وترتعد فرائصه خوفاً إذا ما دفع به إلى أحضان شخص آخر . ولعلـكم تذكرون أنى حدثتكم عن حالة بنت صغيرة كانت تخاف من الخيال الذى يحدثه طرف قضيب الستارة فقد اتضح أنه كان يتهيأ لها فى صورة وجه رجل ذى لحيـة كان فى الأصل سبباً فى خوفها . وهكذا ترون كيف يوضع أساس الخوف . فأغلب المخاوف كما ترون معقدة نوعاً ما ، كما أن الأطفال كثيراً ما يخافون أشياء لمجرد ارتباطها بشىء آخر كالضوضاء مثلا ، فعلينا دائماً أن نحاول معرفة السبب « الحقيقى » فى خوف الطفل . ولـكن قبل أن نستمر فى حديثنا يجدر بنا أن نقول إنه بمجرد أن يشعر الطفل بالخوف مرة يصبح فرقا يترقب الخوف إذا ما تكرر الحادث الأصلى تكرارا كافياً . وعلى سبيل التمثيل أذكر لـكم أنى كنت أعرف طفلة اعترى جسمها المرض لأن أبويها كانا كثيراً ما يتشاحنان فى جلبة وضوضاء فى الليل ، وشفيت هذه الطفلة حينما سوى النزاع بين الوالدين . غير أن هناك مخاوف أخرى أكثر تعقيداً وتنشأ فى نفس الطفل عند ما يخوض غمار الحياة العائلية . فى هذا العالم الذى يتداخل بالتدريج فى العـالم الأوسع خارج البيت وفى المجتمع يرتبط الخوف فى الغالب بالأشخاص وبالمشاعر التى تنشأ فى نفس الطفل نحوهم .

لقد تكلمت فى الفصل السـابق عن الانفعالات التى يثيرها فى نفس

الطفل اتصاله بوالديه وعن تلك التى ترتبط بحبه لهما وما يتبع ذلك الحب من اعتماد عليهما . وحاولت أن أبين كيف يحنق الطفل عند ما يشعر بأنه مهمل وكيف يثور على من يقفون حجر عثرة فى طريق حبه بأى شكل كان . فمن الطبيعى أن يغضب أى شخص يشعر أنه معترض أو منبوذ ولا سيما الطفل . وذلك الغضب يؤدى إلى الكراهية بل إلى المقت . ولا يكون هناك شعور بالبغضاء فى أوائل تربية الطفل الأخلاقية ، وبالتأكيد لا يكون هناك شعور بالتسامح فتتكون فى نفس الطفل قواعد بسيطة للمشاعر والانفعالات والأفعال بالنسبة للأشخاص الذين يعلم الآن أنهم أخيار أو أشرار حسب الحالة . وهو يعلم أن طائفة من المشاعر يرتاح إليها الوالدان وأن أخرى لايستحسنانها ، ولكن يحدث فى بعض الأحيان أن يكون الشعور بالكراهية أو الغضب أو المقت قوياً جداً فينزع الطفل إلى أن يخفى حتى عن نفسه تلك المشاعر التى تحتاج إلى تعبير شديد حتى يستطيع أن يتقبل القوانين الوالدية رغبة فى المحبة والسلام . وتدخل العقوبة على أشكال منوعة فى حياة الطفل كلما كانت أعماله غير مرضى عنها ، فينتقل الخوف من العقاب أى الألم الناجم عنه والخوف من الشخص الذى يوقعه ، إلى الانفعال والمشاعر التى تتأجج فى نفس الطفل ولكنه يعلم أنها محظورة . وبهذه الكيفية يتعود الطفل أن يخاف بعض نفسه ، ويصبح فى الحقيقة كما يقال خائفا من نفسه . وما أكثر ما نسمع أناساً يقولون إنهم خائفون من أنفسهم ولا سيما العصبيين الذين يخشون أن يسيطر عليهم ما يسمونه الأهواء أو النزعات فتزل ألسنتهم بالشىء فى غير موضعه ، ونقول فى العرف إنا لنفضل قطع ألسنتنا على أن تتفوه بكيت وكيت ، وهكذا ينشأ الخوف فى الكلام على الإطلاق .

دعنا الآن نعود هنيهة لنبحث بشكل أوسع فى خوف الطفل من شعوره

ونزعات نفسه نظراً لخطورة ذلك الموضوع . إن النقطة الهامة التى ينبغى إدراكها هى أن نشوء الخوف فى نفس المرء من انفعالاته وأفكاره ونزعاته يترتب على الموقف الذى يتخذه حيال سلوكه هو نفسه بالنسبة لهؤلاء الذين يشرفون على تصرفاته . ولقد حاولت فى المرة الأخيرة أن أوضح لكم كيف يبعث الإعجاب والمحبة استعدادا فى الطفل لقبول السنن التى يضعها الولدان للمباح والمحظور ، وحاولت أن أبين أن الطفل حين يحب أباه ويعجب به يتخذ لنفسه منه مثلا أعلا للرجولة يود أن يحتذيه ويسمو فى النهاية إليه . من الواضح إذاً أن لدى الطفل الآن فى عقله الصغير انفعالات كثيرة يود الإفصاح عنها ومجموعة أخرى من الانفعالات والاتجاهات التى تنزع نحو السيطرة على هذه الانفعالات الخاصة التى قد تكون غيرة أو غضباً أو مقتاً . هذه الانفعال والاتجهات الطيبة التى فى عقل الطفل تقف كأنها حارس أو شرطى صغير فى داخل عقله يوجه المرور الوجدانى ، بل يقف حائلا دون اندفاعه وخروجه عن نطاقه كقطاع الطرق الذين يعبثون بالقانون والنظام ولا بد من الضرب على أيديهم مهما كلف ذلك من ثمن . فالذات ، التى تشبه قاطع الطريق أو الإنسان المتوحش ، وفيها انفعالات الغيرة والمقت غير المهذبة ، كل أولئك يتضاءل أمام الشرطى الأخلاق الذى يمثل الآن فجر الضمير عند الطفل . ومن هذا ترون كيف يشعر الولد الصغير أو البنت الصغيرة بالسعادة إذا كان الواحد منهما حائزاً للرضى ، أو بعبارة أخرى عند ما تكون انفعالاته مكبوحة والشرطى راضيا . ولكن يحدث أحياناً أن تكون تلك الانفعالات الغضبية التى فى أعماق عقل الطفل قوية لدرجة تقلقه فيصبح وجلا منها ، فكيف يستطيع أن يواجهها ؟ وكيف تتوفر له الطمأنينة ؟ إنه لا يجرؤ إلا فى نوبات الغضب أن يقول (أنا غيران)

أو « أنا غاضب » أو « أنا حاقد » . كلا فإنه يشعر بالضبط نفس الشعور الذى يعلونا نحن الكبار عند ما يعترينا الخجل من وجداناتنا فنقول عندئذ إنا نبغض أنفسنا أو نحتقرها . وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها العقل للكف من ذلك الجفاء القائم بين الضمير والنزعة المحظورة . إننا نخاف ويأخذ خوفنا مظاهر متنوعة ، وقد شوهد فى الأطفال الذين درسوا بعناية وكذلك فى الكبار أن المخاوف التى تنشأ فى العقل بسبب الانفعالات المتضاربة كثيراً ما تفصح عن نفسها بأن تتمثل فى شىء من الحياة الخارجية ربما كان فى الماضى ظرفاً لخوف معين ، كالظلام والحيوانات والوحدة والفضاء الواسع والأماكن العالية والقناطر والماء . دعونى الآن أوضح بالأمثلة ذلك الارتباط الذى يحدث بين خوف داخلى وشىء خارجى غير ضار فى حد ذاته . كانت بنت صغيرة فى السابعة من عمرها تخاف المشى فى الطريق لئلا تهوى عليها الأبنية ، فلما قصت تاريخ حياتها تبين أنها كانت قد اقترفت إثماً من شأنه أن يجلب عليها سخط أمها لو علمت به ، وكانت قد أتت فعلتها هذه فى شارع ضيق أثناء إعادة بنائه ، ثم علمت بعدها بأيام أن بعض الأحجار تساقطت من أعلى جدران المنزل الذى بذلك الشارع الضيق ، فجعلت منذ ذلك اليوم ترفض الخروج إلى الشارع ما لم تكن فى صحبة أحد ، وقالت أيضاً إنها لا تستطيع أن تمشى فيه قط إذا صاحبتها أمها ، أفلا تظنون أن ضمير تلك الطفلة كان يؤنبها تأنيباً شديداً وأن الخوف من معرفة فعلتها تحول إلى خوف من تلك الأماكن التى ذكرتها تذكيراً غامضاً بما اقترفته . عند ما باحت لى تلك البنت الصغيرة بما كانت قد اقترفته ، وعند ما جعلتها تبوح به لأمها فى حضرتى زال هم كبير من عقلها وشفيت من خوفها .

وها كم مثلا آخر : « هارى » صبى فى العاشرة من عمره دائم الخوف من

الوحدة ، وهو نبيه شديد الحذر فى تصرفاته يكره القذارة لدرجة أنه رفض لمس شىء فى غرفة اللعب يحتمل أن يوسخ يديه ، وهو يريد دائما أن يأتى أعمالا طيبة . وقد ابتدأ خوفه ذات صباح فى الساعة السابعة عند ما نزل إلى المطبخ ليجهز لوالديه فنجاناً من الشاى ، فلم يكد يفتح البـاب حتى سقط حزام أبيه على كتفه وكان معلقاً فوق الباب ، فارتعدت فرائصه وانطلق مسرعاً من المطبخ وأصبح منذ ذلك الحادث لا يطيق البقاء وحيداً فى مكان ما ، ويرى أيدىَ ممتدة من خلف الأبواب وخيالات ترقص فى الغرفة لترعبه ، ويتوهم دائما أن الناس يرمقونه بأبصارهم . ولقد علمت من دراسة حالة الأسرة أن أباه سيد مطاع فى منزله وهو ممن يفخر بطريقته فى التأديب ولـكنه مع ذلك يحب أطفاله حباً جماً ويعز بصفة خاصة هذا الطفل الذى يعجب بأبيـه أيضاً . ذلك هو الصبى الذى وصف المخبز وصفاً بليغاً فى محاضرتى الماضية . وأظن من الواضح أن هذا الصبى مصاب بعذاب الضمير فرغبته فى أن يكون محبوباً نظيفاً مطيعاً هى كل أمله فى الحياة الذى يملك كل جوارحه . كما أن رغبته فى التشبه بوالده والحصول على رضاه أقصى ما يصبو إليه ، وهو يخاف أن لا يصل إلى مستواه مع ذلك . ولـكن لدى فكرة ثاقبة توحى إلىّ أن الطفل لا يود الوصول إلى ذلك المستوى بل يود لو يسمح لنفسه بالتراخى قليلا ، لولا حزام والده المعلق فوق رأسه والأيدى الممتدة من خلف الأبواب والأشباح التى تتبعه والأبصار التى ترمقه .

وإذا نظرنا نظرة عامة فى المخاوف التى تنتاب الأطفال وجدناها تنقسم إلى نوعين تبعا لتقدم نمو الطفل . فالنوع الأول بسيط وليس به التواء ويتعلق بغريزة المحافظة على النفس . وهذا النوع يشمل مخاوف الأطفال العادية التى تظهر فى الحياة اليومية وتسهل ملاحظتها . فالخوف من الضرر

يشمل رعب الطفل من الظلام ومن الحيوانات ومن الاختطاف ومن سطو اللصوص . ولكنكم لا بد لاحظتم من شرحى للمخاوف التى تنشأ من خشية غضب الوالدين والتعاليم الخلقية ، أن المخاوف التى ذكرتها الآن منذ قليل قد تكون ذات وجهين ، فمن المسلم به أن الظلام مثلا قد يعتبره الطفل من نوع الوحدة لأنه الحالة التى يترك فيها المرء وحيدا بلا وقاية أو طمأنينة ، وهو المكان الذى لا يرى فيه شىء ، والذى يحتمل مجىء الأخطار فيه من أى جهة ، وهذا ما يسمى بالخوف من المجهول ، وينتاب الكثيرين من غير المتحضرين فيحتاطون ضده بأساليب عجيبة كالتعاويذ والكلمات السحرية . ولعل الصبى حين يصفر لنفسه تصفيرا خفيفا أثناء صعوده الدرج المظلم ، أو حين يعد من واحد إلى عشرة أو يدق الأرض بقدمه ليحس بالطمأنينة والأنس من وقع أقدامه يحاول كما يفعل أهل الفطرة إبعاد الخطر الكامن فى الظلام بالتعاويذ . ولكن الظلام نظرا لما يحدثه من الرعب يصبح كأنه ذو شخصية ويتمثل فى المكان أو الشخص الذى سينزل العقاب . ولعل اللصوص والأوهام التى تطرأ ببال الطفل فى الظلام ، ليست إلا الأشكال التى يتخذها ضميره الذى يؤنبه . فإن أردنا أن نحول دون نشوء الخوف الذى من النوع الأول البسيط وجب علينا أن نعود الطفل النوم وحده منذ البداية وقبول الظلام باعتباره الحالة المقارنة للنوم الهادىء . فإذا عود الوالدان أو المربية الطفل على ذلك فى رفق منذ نعومة أظفاره فى السنوات الأولى قبل أن تحدث الارتباطات بالأوهام فى حياته فلن يكون هناك داع لتعويده الشجاعة ، إذ لن يكون عنده خوف يحتاج التغلب عليه . والتمسك بالشجاعة موقف أخلاقى ، معناه أن الطفل قد تكونت لديه القدرة على ضبط النفس تلك القدرة التى يكون قد استعارها من شخص آخر هو معجب به ، أو أنه

قد تقبل مستوى من الجرأة لعله رآه مجسما فى أبيه . وإن تدريب الأطفال على النوم لمسألة ذات أهمية كبيرة لأن النوم وقت الاستجمام والراحة من عناء اليوم . وينبغى أن لا يوضع الطفل فى فراشـه فجأة ، حين يكون عقله مليئا بأوهام اللعب ، بل بعد فترة من الراحة يتناول فيها آخر وجبة فى يومه من طعامه البسيط من غير اعتراض حتى يتهيأ جسمه وعقله تدريجيا من غير أن يشعر بقبول الخطوة التالية من حياته اليومية وهى النوم .

والمخاوف التى من النوع الثانى وهى التى ذكرت أنها تستعير شكلها من المجموعة الأولى ترتبط من غير شك بالشعور بالإثم الذى ينشأ فى نفس الطفل فى صلته بالمشرفين على سلوكه . والأمثلة التى ذكرتها يمكن أن يقاس عليها إلى ما لا نهاية وهى توضح كيفية نشوء الشعور بالإثم فى النفس ، وكيفية نشوء المخاوف كأنهما عقوبات يستمدها الطفـل من فـكرته عن الخير التى تسيطر على ما تعود أن يعتقد أنه شر فى نفسـه .

وإن الآباء الهادئين لينشأ أطفالهم غير هيابين ، ذلك لأنهم أولا عقولهم رزينة وانفعالاتهم منظمة فيصبحون قدوة حسنة لأطفالهم الذين هم سريعو التقليد واستهواؤهم سهل للغاية . والسبب الثانى أن الآباء الهادئين لا يبثون فى نفس الطفل شعورا بالخير من شأنه أن ينغص حياته ، فإن ذلك الشعور يتحول إلى ضمير ذى مطالب مرهقة ، ونظراً لأن خيـال الطفل أوضح بكثير من خيال الراشد ، ولأنه يغذى عقله بكل ما يراه ويسمعه فإن هذه الأشيـاء تندمج فى مخاوفه منتجة بذلك شخصيات مرعبـة يستمدها من عالم القصص الخيالية ومن حياة المتوحشين . لقد ذكرت لكم أن القصص الخرافية عبارة عن الأشكال الجميلة التى يحاول بها الطفل التعبير عن آماله وشكوكه بالنسبة للراشدين المتصلين بحياته ، وهى أيضا تشمل

أغلب مخاوفه ، فتجد فيها مثلا التنين والمردة ، بل ما هو أغرب من ذلك ، وهو تحول الوحوش إلى بشر . فكم من طفل يمثل أباه فى لغته الخاصة بحيوان معين . ثم يستعمل الكبار هذه الاستعارات فى شعرهم . لاشك أن ذلك يستثير شكوكهم فى قيمة القصص الخرافية للأطفال . ولقد أخبرنى كثير من الأمهات أنهن حاولن شفاء أطفالهن من مخاوفهم بالمباعدة بينهم وبين القصص الخرافية . نعم إن تلك القصص تغذى خيال الطفل ، غير أنها لا تخلق خياله ، فإن الطفل يؤلف القصص الخرافية بمحض طبيعته ، كما أن النباتات من طبيعتها أن تزدهر أزهارها ، ومع ذلك فإن تنقية خيال الطفل من الأشياء المخيفة والمرعبة تتطلب العناية فى تربيته فى سنواته الأولى ، وتعويده ضبط النفس بوسائل غير شديدة الصرامة تمنع نشوء ضمير قد يكون شبحا مرعبا فى حد ذاته .

وبالاختصار تنشأ مخاوف الأطفال بسبب ما يصادفونه فى خبراتهم من أخطاء فى التربية . وهناك أولا المخاوف التى ترمى إلى حماية النفس وهى تنذر بالخطر ، وتهيىء المرء للفرار من الضرر . وثانيا المخاوف التى ليست من طبيعة الطفل ، ولكنها تنشأ من احتكاكه الأول بالمشرفين على نموه الخلقى من بنى الإنسان ، ذلك النمو الذى يتطلب خضوع السلوك لقواعد نظامية تؤدى إلى حياة اجتماعية منتظمة . فإذا جعلنا من تنظيم السلوك كابوسا للطفل بالضغط عليه والحد من حرية دوافعه الطبيعية البدنية فلا بد أن نتوقع حدوث اضطرابات تأخذ شكل الثورة وضيق الخلق والخوف ، وهذا الخوف ينشأ عند ما يكون الطفل وجلا من نفسه . وتؤدى مثل تلك الحالة إلى انقسام الشخصية إلى قسمين : قسم طيب وقسم خبيث ، ولكن النمو المنسجم وحده هو الذى يلتئم فيه الطيب وما يبدو كأنه خبيث ، ويكونان شيئا جديدا ، وهو الشخص المتزن .

الفصل التاسع

الغريزة والعـــادة

إن الذى كتب فى موضوع الغرائز كثير ، ومع ذلك فليس هناك كبير اتفاق على طبيعتها ، بل ولا عددها ؛ على أن الجميع يعتقدون أن كلا الإنسان والحيوان — من غير تعليم أو مثال — يستطيع القيام ببعض عمليات معقدة كل التعقيد ، ضرورية للحياة والبقاء .

فرضاع الوليـد ، والهرب من الخطر ، والرغبة فى الزواج ، والنزوع إلى حماية الصغار ، كل أولئك أمور غرزية ظاهرة للعيان ؛ ولـكن هناك ميولا أقل وضوحاً من هذه ، كانشغال الصغير بذاته وقد بدأ يدرج على قدميه ، وكروح الجماعة فى الطفل ذى العشر السنوات ، وكالنزعة الفلسفية عند المراهق ، كل أولئك يصح أن يدخل فى عداد الغرائز . وسنجرى نحن هنا على هذا التصور الواسع فى كلامنا عليها .

والعـادة أيضاً لفظ صعب التحديد ؛ فنحن نتكلم عن عادات حميدة وعادات ذميمة ، وعن تعود عادة التصرف بشكل خاص . وقد صرف المفـكرون وقتاً طويلا فى مناقشة المعنى الدقيق لهذه الـكلمة ؛ إلا أنه يكفى فى مقامنا هذا أن نعتبر العادة سلسلة أعمال تـكرر من وقت إلى آخر ، تـكراراً آليا فى الغالب ، استجابة لظرف خاص . فنحن مثلا نتخذ عادة الاستيقاظ من النوم فى وقت معين كل صباح ، فما تـكاد الساعة تؤذن بحلول ذلك الوقت حتى ننهض ونشرع فى ارتداء ملابسـنا ثم نمضى

سحابة اليوم فى نظام مطرد من عادات لا حصر لها ، وبعض هذه العادات قليل التعقيد لدرجة أننا لا نعيه وقت حدوثه ، بل إننا لننكر وجوده لو نبهنا إليه . وما أقل أولئك الذين يشعرون بتلك العادات الصغيرة المعروفة « باللوازم الشخصية » والتى كثيراً ما تكون مصدر فكاهة — وأحياناً مصدر مضايقة — لأصدقائنا وذوى قرابتنا ! بل العادات المعقدة كارتداء الملابس مثلا ، قد نأتيها ولا نكاد نشعر بها مادام نظامنا اليومى سائراً على وتيرته ، حتى إذا ضاع منا أثناء اللبس زر ياقة — أو انقطع رباط حذاء — كان ذلك كفيلا أن يردنا فجاءة وبقوة إلى عالم الواقع . ومن العادات ما يكون مصدره السلوك الغرزى إلا أن كثيراً من الأعمال التعودية يكون نتيجة تعلم وتدريب .

قبل أن نستمر فى معالجة هذا الموضوع يحسن أن نقف لحظة نبحث فيها سر اضطرارنا إلى التفكير فى عقولنا وعقول أطفالنا ، وأساليب هذه وتلك فى العمل ؛ فإن بحث أساليب الأشياء فى عملها أمر طبيعى سائغ ، ونحن إذ نتساءل عن كيفية عمل العقل إنما نخطو خطوة أرقى من مرحلة الطفل الذى يفكك لعبته الميكانيكية ، ودون مرحلة العالم الرياضى الذى يبحث عن قانون ضابط لمدار نجم النجوم . فأسئلة الطفل عن الكيف والسبب قد ترهق والديه إرهاقاً شديداً ، كما أن إتلافه لعبته قد يضايقهما ، ولكن هذه كلها ليست إلا مظاهر الرغبة فى المعرفة وهى من أسس التقدم الإنسانى . وإن إحاطتنا بعقول أطفالنا لتجعلهم مصدر لذة واهتمام ولو لبعضنا على الأقل ، كما أن فهمنا لسيارتنا يزيد متعتنا بقيادتها .

ومن الأساسى عند التفكير فى عمل العقل ألا نحصر انتباهنا فى العقل الشاذ فحسب . وإن دراستنا لعقول أطفالنا لتزيد عنايتنا بهم ، وفهمنا لهم ،

فلا تعود تثيرنا أو تقلقنا مشكلات سلوكهم البسيطة . فلنذكر دائماً أن الطبيعة تتجه فى عملها إلى المستوى العادى ، غير أنها فى كثير من الأحيان تتبع فى ذلك خطة المحاولة والخطأ . فإذا ما رأينا لها أخطاء — وهو أمر مستمر الحدوث — وجب أن نتذكر أن الطبيعة فى معظم الأحوال تصلح أخطاءها بنفسها ، وتتحاشى وقوعها ثانية . وهذه القاعدة قاعدة المحاولة والخطأ — تلعب دوراً كبيراً فى تطور الغرائز واستمرارها ، وفى تكون العادات . ومن علامة الخطأ أن تحس معه بعدم الرضى أو يستدعى فى ذهنك أفكاراً غير سارة ، فتميل إلى نبذ ذلك الفعل وتجريب طريقة أخرى فى المستقبل غالبا .

وينشأ السلوك الغرزى من ميول تكون موجودة بالفعل فى عقل الطفل عند ولادته ، وهو يحدث تلقائياً من غير أى تأثير خارجى . فالرضيع الجائع يبحث عن الطعام ، فإذا لم تشبع حاجته أعلن عنها بالطريقة الوحيدة التى يعرفها . غير أن غريزة الرضيع تقابلها غريزة الأم التى تمسك به ، فتهيئ له سبيل الوصول إلى مصدر غذائه . فإذا سار كل شىء فى مجراه تكونت عادة الغذاء الصحيحة ، وإلا نشأت صعوبات فى التغذية لا تخلص منها إلا بالاهتداء إلى عوض يسد حاجة الرضيع ، وعندئذ تحل عادة غذائية جديدة محل العادة السابقة . فالرضاع من أوائل الأفعال الغرزية ظهوراً ، وسرعان ما يتبعه غيره ، كرفع الرضيع رأسه عند نومه على وجهه — تفاديا للاختناق — وكالانقلاب على الظهر ، وكالحبو والمشى وما إليها .

وإذا أريد أن تتطور الحياة الغرزية عند الطفل تطوراً طبيعياً كاملا وجب أن يكون القائمون على رعايته هم الأشخاص الذين يهيئون له بيئة وجدانية طبيعية ينشأ فيها . ولست أقصد بهذا أن وجود الأسرة كاملة

— من أب وأم وإخوة وأخوات — ضرورى ؛ فإن هذا غير متيسر فى كثير من الأحيان ، وليس عدم إمكانه بمانع النمو الطبيعى من أن يأخذ مجراه . وإنما أريد أن ألفت نظركم إلا أنه كما يلعب الطفل والوالد دوريهما الغرزيين فى حالة الرضاع التى أشرنا إليها ، كذلك تؤثر غرائز كل من الوالد والطفل بعضها فى بعض فى المراحل التالية ، ثم تأخذ غرائز كل من الطرفين تؤثر فى غرائز الطفل الآخر ، وإذا كانت العلاقة بينهما طبيعية كان النمو الطبيعى للطفل أسهل .

لقد ذكرت منذ قليل أن الغرائز فى نظامها الطبيعى تظهر وتتطور وتختفى ، فلأضرب لذلك مثلا غريزة الحبو : إن كل طفل عند سن ما — تختلف باختلاف الأطفال — يكشف فى نفسه القدرة على الحبو ، وبعد مران بضعة أيام يستطيع أن ينتقل هنا وهناك من غير ما عناء ، وهو يستمد من هذا متعة كبيرة ، ويصبح عالمه أرحب وأوسع . غير أنه عند ما يأخذ جهازه العصبى فى اكتمال نموه ، يتجلى له أن الطريقة الأجدى فى الانتقال هى المشى كالكبار ، فلا يلبث أن يتحول عن الحبو . ومن المفيد والمهم معاً أن نلاحظ أن عدّة الحبو فى الحقيقة لا تفقد ، وأن الكبير قد يلجأ إليها فى ظروف خاصة كالانفعالات الشديدة ، فإننا حين نجد أنفسنا فجأة فى موقف خطر — على حافة مرتفعة ، مثلا ، أو جسر ضيق لا سند للأيدى به — ننزع إلى أن نحبو على أيدينا وركبنا شاعرين أن ذلك أسلم لنا . غير أن هناك عاملا آخر يدخل فى موضوع النكوص إلى السلوك الفطرى الغرزى ؛ ذلك أنه إذا كان السلوك الغرزى قد سبب كثيراً من اللذة والارتياح فى بدء تكوّنه كان احتمال الرجوع إليه بعدُ أعظم ، فإذا حرم الطفل إرضاء رغبة حاضرة كان من الطبيعى أن يحاول الرجوع إلى نوع قديم من السلوك قد استمد منه لذة فى الماضى . وهذه العملية فى كثير من الأحيان لا تجىء

نتيجة تدبير أو تفكير وإنما يقوم بها العقل الباطن . فالطفل الذى تعلم أن يربط بين الارتياح القوى وعملية الرضاع ، ربما لجأ إلى مص إصبعه فى حالات الضيق والعناء ، ولو بعد الفطام بمدة طويلة . على حين أن طفلا آخر استمتع بما أعطى من كبير اهتمام أثناء فطامه الصعب ، قد تنشأ عنده بعد صعوبات فى التغذية . هذا النكوص شائع فى سلوك الأطفال الذين تحيط بهم صعوبات وجدانية ؛ ومن هنا يسهل علينا أن نفهم ضرورة تعرّف النسق الطبيعى لنمو الغرائز وأهمية تركه حراً دون مغالاة فيه أثناء أية مرحلة من مراحل النمو .

إن البواعث الغريزية فى بواكر الطفولة كفيلة بضمان تناول الغذاء وجذب انتباه الأبوين كلما مست الحاجة . وبجانبها ميول أخرى كثيرة أقل أهمية ، كالقبض على الأشياء الصلبة ، طلباً لنصيب من الأمان أكبر ، وكميل الطفل إلى رفع رأسه وهو مستلق على وجهه كما أسلفنا . وفى خلال هذه المدة يجد الأبوان نفسيهما مضطرين بحكم الغريزة أن يتصرفا فى طريقة معينة : الأم نحو الطفل ، والأب نحو الأم ، وكذلك نحو الطفل إلى درجة أقل . وإذ يبدأ الوليد يحبو ، بعد اجتيازه مرحلة الفطام ، يصبح أكثر استقلالا ؛ على أنه لايزال بالطبع يعتمد على أبويه إعتماداً متفاوت الدرجات . ثم يقرب الوالدان إلى درجة التساوى من حيث اعتماد الطفل عليهما فى العناية بجسمه . غير أن الأم تظل أكثر أهميـة ، وأكثر حرصاً على وقاية الطفل . وهنا يواجهنا موقف يسبب شيئاً من الصعوبة أحياناً ؛ ذلك أن الأب ، وعلى الأخص فى حالة الذكور من الأطفال ، كثيراً ما يقلق لما يرى من مبالغة الأم فى الوقاية . والحق أنه لا موجب لهذا القلق ، فشدة عناية الأم فى هذه المرحلة قلما تسبب كبير ضرر ، اللهم إلا إذا جاوزت الحد المعقول .

وحيث يترقى الاستقلال عند الطفل يزداد شعوره بأنه شخص ، ويصبح أكثر انشغالا بنفسه ، هذا إلى أنه يحاول فى العادة أن يزيد فى قيمته الشخصية بإظهار قوته على الآخرين وباستحواذه على شىء يملكه ؛ وهو كثيراً ما يطلب هذا التملك من طرق غير مشروعة ، ويحاول أن يسيطر لا على أقرانه فحسب بل على أبويه أيضاً . ومن الطرق التى يستعملها لزيادة أهميته الشخصية طريقة لعلها مرت بنا جميعاً ، وهى أن يسرد عن أفعاله أقاصيص من محض الخيال . كل هذه الأنواع من النشاط طبيعية ، وليس من اللازم أن تبعث على القلق . إلا أنه يجب أن نتذكر أن خير علاج لهذه الأحوال هو أن نسهل للطفل ارتياح النفس من طريق العمل ، فاذا وهبناه الحب ، وهيأنا له رفقاء اللعب ، وسخرنا منافذ لنشاطه ، جرى كل شىء على طبيعته ، وانتهى هذا الدور بسلام . أما المدة التى يمر فيها الطفل بهذه المرحلة فهى بين الثانية والخامسة من العمر . ولكن التطور بالضرورة آخذ مجراه طول الوقت ، فالشئون التى يهتم بها الطفل دائمة التغير ، وتبدو فيه علائم الترقى فى الغرائز الاجتماعية استعداداً لاشتراكه بعد فى أنواع النشاط الاجتماعى . ويميل صغار الأطفال إلى رفقاء من سنهم ، ولكنهم لا يهتمون كثيراً بالتعاون مع مجموعات كبيرة ؛ وهم يلعبون لعبهم التخيلى مثنى وثلاث ، ولكنهم لا يحبون تقاسم الأشياء ، أو الاندماج فى جماعات تعمل لغرض مشترك . أما النشاط الجمعى ، أو نشاط الفرق ، فانه يجىء متأخراً ، ويظهر تطوره حوالى سن السابعة . وهذا هو السر فى أن فرق الصغار من الكشافة إنما تنظم حوالى تلك السن .

وإنك لتجد فى سن السابعة روحا جمعية راقية مصحوبة برغبة غريزية فى العمل للصالح العام ، وفى أن يشغل الطفل مكانه بالنسبة للداته وأترابه ،

وهذه الغريزة إيجابية إلى حد كبير . وإن نجاح الفرد أو فشله ليتوقف كثيراً على التوازن بين شيئين : أولهما زهو الطفولة عنـده وميله إلى حماية نفسه — وعلى هذين يقوم نزوعه إلى النجاح — وثانيهما مقدرته على أن يكسب ذلك النجاح غير غافل عن سعادة المجموع وحقوق الآخرين . هذا العمل لرفع شأن النفس ليس دائماً شيئاً مستهجناً ، بل هو ضرورى — إلى حد ما — للنجاح ؛ غير أنه ليس من العسير أن ندرك كيف يجب فى الوقت نفسه حفظ التوازن بين حماية النفس وكسب النجاح لها . وإن المحافظة على هذا التوازن لتزداد صعوبة فيما بعد حين تضاف إلى مصالح النفس الذاتية مصالح الزوج والأسرة .

إن بين الأطفال — لحسن الحظ — فوارق ، ولكنهم على الرغم من هذه الفوارق متشابهون على العموم تشابهاً كبيراً . ونحن نعلم أنهم يجتازون مراحل متعددة فى ترقيهم فى الغرائز والسلوك ، وفى الخلق (character) إذا ساغ أن نقول ذلك . ونعلم أيضاً أن الأطفال — من حين إلى آخر — تبدو فى نموهم انحرافات عن المجرى الطبيعى ؛ وإذا لم نبالغ نحن فى أمر هذه الانحرافات ، أو نتسبب فى تثبيتها بجذب الانتباه إليها ، جاء كل شىء فى النهاية على ما نرضى ونحب .

أليس شأننا مع الصبى الذى يحاول المشى فيتعثر ويقع أننا لا نلومه ، ولا نكثر الكلام حول ما قد يكون أصابه من أذى ، بل نمد إليه يد المساعدة ونعطف عليه بكلمة تشجيع ، وأهم من ذلك — لا نمنعه من محاولة المشى مرة أخرى !

إن واجبنا أن نفهم تمام الفهم أن الغرائز موجودة ، وأنها تنمو وتختفى تبعاً للتطور الطبيعى عنـد الطفل ، ومن واجبنا أن نمد الطفل بالعون

والنصيحة ؛ وأهم من ذلك أن نهيء لكل نوع من أنواع السلوك الغرزى حرية العمل ليتطور كما تقتضى طبيعته فى الوقت المناسب له .

وكما يمر السلوك الغرزى خلال تغيراته ، كذلك تجىء العادات المناسبة لكل تطور وتذهب . ولكن العادة — كما قلنا قبل — تشمل نطاقا واسعاً من الأعمال الغرزية . فالعادات استجابات ، تتطلب أقل مقدار من الجهد الذهنى ، نستعملها نحن فى الحالات المألوفة لدينا ؛ وتكاد العادات تكون آلية ، وربما ظهرت دون وعى وإدراك .

والعادات قد تكون خدما صالحين ، وقد تكون سادة رديئين ؛ فالرجل الذى يستطيع أن يجعل من مسائل حياته اليومية عادة إنما يخفف عن عقله عبء التفكير ، ويحتفظ بنشاطه الذهنى للفرص ذات الأحوال الجديدة التى تتطلب منه حكما وسداد رأى ؛ ونجد العقل المنظم الذى يسير على نظام معبد خبيراً فى الغالب بتكوين العادات . ومن الجهة الأخرى نجد العادة السيئة — أى رد الفعل الذى يعتاده صاحبه من نوع غير مرغوب فيه — سهلة التكوين كذلك ، إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأن اكتساب العادات الرذيلة أسهل من كسب العادات الحميدة ، فليس هذا هو الشأن دائماً . ولقد أشرت سابقاً إلا أن العمل الاعتيادى يميل إلى أن يتكرر ، عند مواتاة الفرصة ، إذا كانت نتيجته باعثة على الارتياح ؛ ومن الضرورى لتربية العادات فى الطفل أن يؤخذ الحذر فى اختيار النظام والترتيب ، فلا يشجع التأثر الاعتيادى إلا عند تشابه الحالتين تشابهاً تاما ، ولتتجه العناية إلى أن تكون النتيجة النهائية لذيذة . كذلك فى التخلص من العادات الرذيلة يجب — قدر المستطاع — أن نعمل على ألا تحدث الظروف المشجعة على التعود ؛ وإذا حدثت تلك الظروف وظهرت العادة

فلنعمل على ألا تكون النتيجة محببة ، أو على أن تكون غير لذيذة قطعاً . ومن الأهمية بمكان فى أى محاولة لتكوين العادات الجديدة ألا يتبع الفشل بالعقوبة ، فإن ذلك يخلع على الموقف صبغة غير لذيذة يزداد معها التدريب صعوبة ؛ فالثناء والمكافأة على النجاح أجدر أن يثمرا نتائج طيبة ، من اللوم والعقوبة على الفشل . وفى حالة العادات الرذيلة تستطيع — بحرمانك الطفل من مزية يحرص عليها كثيرا ، أو بعملك على أن تكون النتائج غير لذيذة — أن تجعل التطبع بهذه العادات غير لذيذ ، وبذلك تساعد على اختفائها .

على أن من المستحيل التعميم فى مسألة العقوبة ، فهى موضوع شائك متعدد النواحى . وإن أنجع طريقة مع صغار الأطفال للتخلص من العادات الرذيلة أن تستبدل بها أنواع من النشاط يجنى منها الطفل مقداراً من اللذة أعظم . وإن الطفل الصغير ليقتنى العادة الرذيلة ، فى معظم الأحيان مجرد صدفة واتفاق ؛ فهو خلو العقل واليدين ، وسرعان ما يعثر بشىء يشغله فيجد فيه لذة ومتعة ، وبالطبع يكرر التجربة فتنشأ العادة . والمثل يقول « الشيطان يجد الشر للأيدى العاطلة » وهو مثل عام الصدق . وإن إيجاد العمل المشروع للأيدى العاطلة ليذهب بعطلها ، وما هو إلا زمن يسير حتى يقضى على الشر . غير أن الزمن مهم ، ولا يمكنك أن تتوقع فى الحال ذهاب عادة إذا كانت تلك العادة قد رسخت وتأصلت . ومن الضار دائماً أن تربط بالعادات غير المستحسنة فكرة خبث أو شر ، فإن الطفل لا يعى خطأه ، ولا يشعر بالمسئولية من أجله ، ولا يدرك ما ينطوى عليه عمله من سوء ؛ ولومك إياه على شىء خارج فى الواقع عن دائرة تصريفه — وهو يشعر أنه منه براء — مخالف لما يتصوره هو عن العدالة ؛ فالأطفال فى جوهر طبيعتهم عادلون

منطقيون ، ومثل هذه الأحوال قد تكدر — إلى حد خطر — صفو العلاقات بينهم وبين الكبير الذى يتولى تهذيبهم .

إن هناك نواحى من تكوين العادات لا يمكن أن تفرض على الطفل فرضاً ، لأن فى طيات جسمه عوامل تتوقف عليها بعض العادات ؛ فما هو عديم الجدوى — مثلا — أن ترسم نظاماً جامداً لإطعام الطفل دون أن تنتبه إلى اعتبارات كثيرة من شهيته وحجمه ونوع رياضته وآناء نومه ؛ فبعض الأطفال — نظراً لمقتضياتهم الجسمية الخاصة — يتطلبون نظاماً خاصا من التغذية ، وليس من اللازم أن يسد حاجتهم طعام قد ثبتت صلاحيته من قبل لآخرين . وهذا الذى نقرره صادق على الطفل الصغير ، وهو موضوع بحثنا هنا . أما كبار الأطفال الذين وصلوا إلى درجة من النمو يعرفون بها ما يدور حولهم وما يعمل ومالا يعمل فالشأن معهم مختلف .

إن من الخير دائماً لمن يتعهد صغار الأطفال أن يدع اعتبارات القيم الأخلاقية جانباً ، وأن يستعمل الطرق البسيطة المباشرة فى غرس أنواع السلوك الحميدة فيهم وإبعاد أضدادها .

ولأختم هذا الموضوع بأن أكرر ماقلته سابقاً — لأهميته — ذلك أنه يجب علينا أن ندرس أطفالنا ، وأن نذكر دائماً أن مثل هذه الدراسة جديرة أن تجعل علاقاتنا بهم أكثر لذة وأبعث على الرضا والارتياح ؛ وخليقة أن تسعدنا على أن نلاحظ — فى هدوء — كل ما يظهر لنا فى شكل خصائص أو لوازم تعرض من وقت إلى آخر فى كل طفل سليم ؛ وأن ننظر إلى هذه الخصائص نظرنا إلى أخطاء طبيعية فى مجرى التكيف والنمو ، بدلا من أن نطلق العنان لخيالنا يبالغ فى مغزاها .

الفصل العاشر

الطفل فى لعبه

كثيراً ما نميل إلى اعتبار اللعب شيئاً عديم النفع ليس له غاية مرتقبة ، وكثيراً ما سمعت الآباء يأمرون أطفالهم بألا يضيعوا وقتهم فيه ؛ ولكن اللعب ليس على الاطلاق مضيعة للوقت ، وإن كانت المبالغة فيه تعتبر كذلك.

وأرى أن مما يسهل بحث هذا الموضوع — على الراجح — أن نفصل أنواع اللعب ونعالج كلاً منها على حدة : فهناك أولا نوع يتعلم الطفل منه حقائق عن الأشياء المحيطة به ، ومن هذا ما يتعلمه الطفل الكبير عن الآلات وعمل القاطرات والمحركات والعجلات وسكة الحديد . وهناك نوع ثان يتعاون فيه عدد من الأطفال يلعبون معا فى جماعات متقاتلين أو متدافعين أو مشتركين فى لعبة منظمة . والنوع الثالث ينبعث من الثانى ويتميز بما يظهر فيه من تخيل وإيهام ، وأسهل ما يكون ذلك بالطبع فى مجموعات من الأطفال .

وإذا كان من الشائق أن نراقب لعب صغار الحيوان من جراء وقطيطات ، فألذ من ذلك كثيراً أن نراقب الأطفال يصبغون لعبهم بصبغة التخيل والإيهام . وإذا عنينا بالإنصات إلى الملاحظات المتسلسلة التى يقرن بها الطفل لعبه ، اجتمع لدينا الكثير من مفاتيح أفكاره ؛ فالأب الذى يصغى لطفله يناجى دميته أو حيوانه الصغير ، يستطيع أن يتعرف الشىء الكثير عن نفسه وخاصة آراء الطفل فيه ، إذا أثار الموضوع شيئاً من التفكير .

ومن الشائع الكثير أن تسمع الطفلة الصغيرة تنسب أخطاءها ومصاعبها إلى دميتها أو حيوانها ؛ فلقد أذكر أن طفلة أرتني عروسها ذات يوم وقالت فى شىء من الإعجاب : « إن العروس لا تبكى إذ يُغسل شعرها الآن ! » مميزة كلمة « الآن » فى جملتها بكثير من التأكيد ، وقد رجحتُ من هذا أن غسل شعر هذه الطفلة كان فى المبدأ مصدر عناء لها ، وأن الأمور الآن أحسن مما كانت عليه من هذه الجهة ، وبادرت أمها فأخبرتنى أن ما توقعتُه صحيح . وهذا يريك كيف تحتجب أفكار الأطفال تحت ستار خفيف وكيف يمكن تأويلها بسهولة .

يحدثنا علماء النفس أن اللعب غريزة ، أى أنه واحد من تلك الميول التى تولد معنا — كالنزوع إلى الأكل والنوم ، وأن كل شخص طبيعى النمو مجبول على أن يلعب ، ما له من ذلك بدّ . فكلنا يجب أن يلعب ، حتى فى هذا العصر المتعب المزدحم . إننا إذ نتكلم عن لعب الكبار لا نستعمل كلمة « لعب » وحدها ، ولكننا نتحدث عن « تمضية الوقت » وعن الاستجمام — والاسترواح — وأنا شخصياً لا أحب التعبير بتمضية الوقت لأن معناه أن نعمل شيئاً لصرف الوقت فحسب ، وهذا ليس فى الحقيقة لعباً ؛ ولكن التعبير بالاستجمام — أو استعادة النشاط — يعطى فكرة أصح وأنسب ؛ ذلك لأن الكلمة (recreation) تشير إلى إعادة بناء الفرد ، أو ما يقرب من خلقه خلقاً جديداً ، بنوع من النشاط مسلّ مريح ؛ والتعبير نفسه يشير إلى طرد السآمة والملل وبعث روح جديد من النشاط فينا نستعد به لاستئناف العمل . أما الحال فى الأطفال فمختلفة ؛ وذلك أن اللعب عمل الطفل ، وأنه ضرورى لنموه وتنشئته ، وأنه تدريب للحياة ، فكلما أجهد الطفل نفسه فى لعبه كان أكثر صلاحاً للحياة المستقبلة .

والآن فلنفكر قليلا فيما يحمل الطفل على أن يبذل فى لعبه جهد طاقته . إن الغرائز كلها مرتبطة بتوليد الطاقة ، فالخوف يملؤنا طاقة ويجعل هربنا أسرع ، والغضب يجعل أفعالنا أكثر عنفا ، والنزوع إلى اللعب يدفع الطفل إلى الصخب أو الرقص هنا وهناك ، أو تصريف طاقته الغرزية فى وجه من الوجوه ، والطفل الذى لا يُعطى الفرصة لتحرير هذه الطاقة يصبح بَرِماً سريع الغضب .

هذه الطاقة يمكن أن تستعمل أحياناً فى نشاط عقلى ، وإن قسطا صالحاً من اللعب العقلى لحسن مفيد . زد على هذا أن الطفل الذى لا يستطيع الجرى والحركة لسبب ما — كالمرض — يستطيع أن يعمل بعقله الشىء الكثير . ولكن فى حالة الصحة ينبغى أن يحفظ التوازن بين ما يسمى لعباً عضلياً ولعباً ذهنياً — أو لعب الجسم ولعب العقل .

إن صغار الأطفال ليكون لعبهم فى الغالب كله عضلياً ، حتى إذا كبروا ازدادت حاجتهم إلى اللعب العقلى ، وكثير من الكبار يصدفون بتاتاً عن الأخذ بنصيب من اللعب العضلى . ومن واجب المدرسة أن تزود الأطفال بما يحتاجون من لعب عقلى ، وهى فى الغالب تقوم بهذا الآن ، فقد أصبحت الدروس فيها شائقة ممتعة لدرجة أنها لا يمكن أن تسمى فى الحقيقة عملا .

إذا نظرنا إلى اللعب من هذه الوجهة — إذاً — وجدناه منفذا لا بد منه للطاقة التى تتولد من غريزة اللعب . ولكن هناك نوعين آخرين منه أشرنا إليهما فى مقدمة هذا الفصل فلنقف عندهما ولندرس مغزاهما : إن الطفل الصغير يلعب فيمارس الأشياء البسيطة التى تقع فى متناول يده ، ممسكا حيناً بملعقة يضرب بها بلاط الحجرة ، أو — عند ما تتقدم به السن — يقذف بها ؛ متناولا حينا آخر شيئين أو (كتلتين) يقرع أحدهما بالآخر ،

أو مشتغلا بعمل ما من هذا الطراز . وهو فى خلال كل ذلك يتعلم الشيء الكثير ، فهو لا يتعلم استعمال عضلاته فحسب ، ولا تنسيق حركاته كما يقول النفسانيون (أىْ جعل عضلاته تعمل معاً فى انسجام) ولكن يتعلم كذلك شيئاً كثيراً عن صفات الأشياء التى يمارسها : صلابتها ووزنها ودرجة حرارتها وسهولة انكسارها أو صعوبته ، وبهذا يبدأ يعرف شيئاً عن دنياه التى يعيش فيها . حتى إذا اشتد ساعده وأصبحت حركاته أثبت ، وعقله أقدر على التفكير المعقد ، أخذ يستعمل الأشياء لغرض يترسمه ، كاستعمال الأدوات فى بناء شيء ما ، فقد ثبت أنه لا شيء من الحيوان — إلا القردة الراقية — يستطيع استعمال العدد والأدوات ، وإن كان الكثير من الحيوان يستطيع القيام بعملية البناء .

يبدأ الطفل فى بناء القوالب بعضها فوق بعض ، وربما استعمل عصا يقرّب بها الأشياء نحوه ، ويرمى بالأشياء ، وكلما ازداد تعلمه زاد حبه لممارسة الموضوعات المعقدة . وإن الطفل الصغير — بالطبع — ليقنع بقوالبه وبقطع الورق الصغيرة ، ولكن الولد الأكبر سناً لا يرضى بأقل من أن تكون لديه مجموعة كاملة للبناء ، والبنت الكبيرة تحرص أن تكون لها عروس تقوم هى بإلباسها وبنزع ملابسها .

إن أطفال هذه الأيام لسعداء الحظ بما يستطيعون الحصول عليه من مختلف أدوات اللعب ، ولكن هذا فى الواقع سلاح ذو حدين ، فقد كثر الميل إلى إعطاء الأطفال لُعبا لا يستطيعون فهمها أو تدبيرها ، وهذا من الأسباب التى تحمل صغار الأطفال على تكسير هذه اللعب أو تمزيقها بدلا من اللعب بها ، فإن اهتمامهم بكيفية عملها يفوق اهتمامهم بجعلها تتحرك أو تسير .

والمقدرة على اللعب التقليدى — كأن يتخذ الطفل من آلة صغيرة قاطرة تتحرك — تجيء متأخرة فى الظهور عن نزعة البحث فى السبب والغاية . ومن أقوى الميول عند الأطفال رغبتهم فى معرفة كيف يتحرك الشيء ، فتراهم — لهذا — يفكون الآلة قطعاً وأجزاء بدلا من أن يحاولوا تسييرها ، وأشد ما يكرهون اللُعب التى لا يستطيعون فهمها .

هذا اللعب بالأشياء العادية يعطى الطفل مراناً عظيم القيمة فى استعمال أصابعه ، ويمده بالمعلومات عن الأشياء التى تحيط به فى حياته اليومية . غير أن ممارسة الطفل شيئاً ما واستعماله إياه يختلفان بالطبع حسب سنه ، وإلى حد ما حسب نوع تعليمه ؛ فطفل يقلد فى لعبه ، وآخر يلجأ إلى التخييل والإبهام ، وثالث تغلب عليه النزعة الواقعية وممارسة الأشياء الحقيقية .

والآن فلننتقل إلى النوع الثانى من اللعب : إن الطفل إذا نما ، وابتدأ يختلط والآخرين من الأطفال ، وأصبح اجتماعياً فى تفكيره ، تطور تبعاً لذلك لعبه ، وغلبت عليه صبغة النشاط الجمعى . وهذا اللعب الجمعى طريقة عظيمة القيمة فى تعليم الطفل كيف ينبغى أن يعاشر الأعضاء الآخرين من الجماعة فى كبره . وقد يتألف هذا النوع من عدد ما من الأطفال يخترعون لعبة يلعبونها معاً ، أو من فريق يلعب لعبة منظمة . هذه التجربة تعود على الطفل بالنفع ، إذ تعلمه كيف يتصرف ليكون عضواً مقبولا فى الجماعة ، فالأطفال سريعو الملاحظة للأشكال غير المقبولة من السلوك ، سريعو التصحيح للعادات الاجتماعية الرديئة يلمحونها فى واحد منهم .

نستطيع أن نقول — إذاً — إن اللعب بالأدوات واللُّعب ، ومع الرفقاء ، يعتبر نشاطا ضروريا للأطفال ، وليس هناك أى شك فى أنه أساسى لنمو كل طفل .

غير أن للعب جانباً آخر عظيم الأهمية ، هو ثالث الأنواع التى أشرنا

إليها من قبل : ذلك أن كثيراً من الأطفال — إذ يلعبون — يطلقون العنان لخيالاتهم الجامحة ويتوهمون الخيال حقيقة فيما يلعبون به من الأشياء ، وقد يحصل هذا أحياناً فى مجموعات منهم ، كأن يكون لأسرة بتمامها لعب خيالى يقوم به أفرادها جميعاً فيتخذ كل واحد منهم اسما وصفة متميزين ، وإذا تلاقوا مرة ثانية ساروا فى القصة الوهمية من حيث انتهوا فى المرة السابقة . وإنى لأعرف — جيد المعرفة — أسرة تعود أفرادها وهم صغار أن يلهوا بمثل هذا النوع من اللعب ، ويجنوا منه لذة وسرورا ، ولهؤلاء الأفراد الآن شهرة كبيرة فى عالم الكتابة .

هذا اللعب الأسرى الخيالى طريف جداً ، وهو نوع طبيعى من أنواع اللهو والتسلية ، ولا يعود على صاحبه بأى ضرر . إلا أن اللعب التخيلى الذى يقوم به طفل بمفرده قد يكون — وقد لا يكون — شيئاً حسنا ، فبعض الأطفال ذوى الخيال الواسع يستعملون اللعب للتخفيف عن مشاعرهم ، كأنما يعوضون فى هذا اللعب ما تسلبهم إياه الحياة الحقيقية . وإذا قضت الظروف — لسبب من الأسباب — على بعض الأطفال أن يكونوا وحيدين وألا يستطيعوا اصطناع الرفقاء ، فقد يلجأون — إذاً — إلى اختراع رفقاء وهميين ، يحيون وإياهم حياة اجتماعية ، وهذا شائع كثير الحصول عند من لا رفقاء لهم . ولكن إذا رأيت الأطفال لهم رفقاء ولكنهم لا يختلطون بهم ، مؤثرين أن يحيوا حياة الانفراد والخيال ، فاعلم أن الشأن مختلف ، وأن من الواجب البحث عن سبب هذا الأمر ، فإن الطفل الذى يختار لنفسه موقف الانزواء الشديد سيكون شأنه بعد فى الحياة أن يتجنب القيام بمسئولياته ، وأن يفر من مواجهة الحقيقة .

ومن الجوانب المهمة فى اللعب ما ينطوى عليه من معنى المقدرة على العمل والإنجاز ؛ فالطفل الذى يبنى قلعة ، أو يسابق فى لعبة ما ، قد يتأثر

تأثراً عميقاً بنجاحه أو فشله ، لا فى لحظة اللعب فحسب ، بل فى موقفه العام من الحياة أيضاً . وهذا من الأسباب التى تستوجب أن يكون اللعب — أياً كان نوعه — مناسباً لقدارت الطفل . وفى حالة ألعاب المهارة يجب أن يشجع الطفل على المران ، حتى إذا جاء وقت السباق ظهر بمجهود لائق فى سباقه بين أقرانه . غير أننا فى هذا — كشأننا فى كل الأشياء — مطالبون أن نحفظ التوازن بين اللعب فى طريقة خاملة مهملة ، وبين التحمس له والاندفاع فيه اندفاعاً خارجاً عن حد القصد والاعتدال .

وخلاصة ما قلناه إلى الآن أن اللعب نافع وضرورى ، وأنه فى الواقع الطريقة التى يمرن فيها الطفل على الحياة ، وأن النشاط الذى يبذله الطفل فى لعبه نشاط طبيعى تولده الرغبة الغرزية فى اللعب .

إن اللعب يمد الطفل بالمعلومات عن الدنيا التى يعيش فيها ، والناس الذين يحيا معهم ، والذين سيختلط وإياهم فى حياته المقبلة . وينبغى لنا أن نذكر دائما أن الطفل ينمو ، وأنه فى كل مرحلة من مراحل وجوده يستعمل أدوات للعب مختلفة ، تكون فى المبدأ بسيطة ، ثم تزداد تعقداً كلما ازداد هو نمواً ، وبنفس الطريقة يتغير لعبه الجمعى : فإذا كان صبياً صغيراً أحب اللعب بمفرده ، وإذا نما ودرج أحب اللعب فى جماعات صغيرة ؛ فإذا ترعرع فأصبح يفعاً آثر اللعب فى فرق منظمة. وعلى هذا فإذا أردنا مساعدته على أن ينمو نمواً طبيعياً ، وجب علينا أن نتأكد أن لديه رفقاء للعب مناسبين ، وفرصا يتمكن فيها من ملاقاة هؤلاء الرفقاء ، وأدوات للعب تناسب سنه وقواه .

إذا تنبه الآباء دائما لهذه النقط البسيطة ، وخصصوا جزءاً من تفكيرهم للعب أطفالهم ، وجدوا فى النهاية أن تعبهم لم يضع سدى . فينمو أطفالهم من جميع الوجوه ، وتزول متاعبهم السلوكية ، المقلقة — على ضآلتها — ويصبحون أكثر هناءة وأوفر سعادة .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة الفكر الحديث

كيف يعمل العقل

الكتاب الثاني

في المجتمع

تأليف : سِرِل بِرت

تعريب : محمد خلف الله

العدد العاشر ١٦

مقدمة المعرب

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

فهذا هو الجزء الثانى من كتاب « كيف يعمل العقل » . والكتاب بجزأيه خلاصة شاملة ومبسّطة معاً لجهود علماء النفس فى مختلف ميادينهم فى الخمسين سنة الأخيرة ؛ وقد اشترك فى تأليفه « سِرِلْ بِرْت » ونخبة من زملائه العلماء فى انجلترا . وكان لصديق الدكتور عسكر ولى شرف تعريبه . وتفضلت « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فحفظت له مكانا فى « سلسلة الفكر الحديث » .

وقد حرصنا — ما وسعنا الجهد — على أن نحفظ على الكتاب طابعه الذى أراده له مؤلفوه ، والذى عبّر عنه « برت » فى المقدمة بقوله : « كان غرضنا الأساسى أن نبيّن — فى أمثلة بسيطة وعبارة واضحة — كيف نما الاهتمام بفهم طرائق العقل الإنسانى فى سلوكه حتى أصبح دراسة علمية جادة ؛ وأن نعرض الآثار التطبيقية لنتائج هذه الدراسة على معضلات الحياة اليومية . إن المدنية الحديثة قائمة على العلم ، وإذا كان يراد لها أن تستمر يجب أن يوجّه التفكير العلمى إلى دراسة الإنسان كما وُجه من قبل إلى دراسة الطبيعة غير الحية » .

ويقع الكتاب فى جزءين رئيسيين : أولهما كيف يعمل العقل فى حياة الفرد . والثانى كيف يعمل فى حياة الجماعة . والجزء الأول بدوره ينقسم إلى قسمين : يتناول أحدهما الحياة العقلية — شعورية ولا شعورية — عند الكبير ، فيبيّن الطرق التى تستعمل فى دراسة عقول الآخرين ، وفى

دراسة المرء عقل نفسه ، ويصور الأسس التى يقوم عليها التحليل النفسى
وآثار العقل الباطن فى الحياة الإنسانية ، ويبحث الأحلام وما لها
دلالات . ويتناول الثانى عقل الطفل وما يُزَوَّد به منذ نشأته من ميـ
وقوى ، وما لمحيط الأسرة من أثر فى تكييف سلوكه ، ثم يدرس مخاو
الأطفال ، ولعبهم ، وعمل الغريزة والعادة فى حياتهم . هذان القسمان
(كيف يعمل العقل فى الفرد راشداً وصغيراً) هما موضوع الجزء الأ
(عدد ٩ من سلسلة الفكر الحديث — تعريب عسكر . والفصلان التا
والعاشر فيه من تعريب خلف الله) .

***

أما الجزء الثانى — وهو موضوع كتابنا الحاضر فقد استقل بكتا
الدكتور « سرل برت » أستاذ علم النفس بجامعة لندن — هذا إلى مسا
فى الجزء الأول أيضاً . والذين كان لهم حظ الدراسة على « برت » —
من بينهم — يعرفون فى أسلوبه دقة العلم ورقة الفن ، وفى شخصيته حـ
المحاضرة وجاذبية الحديث . وقد استفاضت شهرته فى عالم الدراسـ
السيكلوجية بما نشر من مختلف البحوث والكتب ، وبما عالج ولا
يعالج من مشكلات التربية والاجتماع فى انجلترا ، وبما شغل هناك من أ
تُوِّجت باختياره لكرسى علم النفس — فى ينفيرستى كولدج —
لصديقه (المرحوم) سپيرمان ، وزعيماً للمدرسة الإنجليزية فى درا
علم النفس الحديث .

عالج « برت » فى هذا الجزء طرائق العقل فى أهم نواحى الحياة الاجتماعية
واختار من بين هذه النواحى ميادين الفروق العقلية بين الشعوب ، والطو
الاجتماعية ، والجنسين ، والأسس العقلية العامة فى السياسة ، والفـ

الدين ، ونبّه إلى أن هذه معضلات ، لكل إنسان من التفكير فيها نصيبه
رأيه ؛ ولكن الدراسات العلمية الحديثة قد اقتحمت عليها معاقلها ،
أخضعت كثيراً من ظواهرها للبحث والتجريب . وكانت مهمة مؤلفنا
هنا — كما يقول — أن يصف فى اختصار أحدث نتائج هذه الدراسات
جدرها بالاعتبار ، وأن يبين الاتجاه الذى تتجه إليه البحوث الحاضرة فيها

ولقد أدى المؤلف هذه المهمة على وجه نموذجى ؛ فلم يترك فى هذه
ميادين ناحية طرقها البحث الحديث إلا فصّل القول فيها ، ونقد نتائجها فى
قصد وإجمال ، وبين صلاتها بمشكلات الحياة الحاضرة . وجاءت معالجته
موضوعىْ سيكلوجية الشعوب وسيكلوجية السياسة عنواناً على سعة أفقه
صدق حدْسه العلمى . فقد ناقش النزعات السياسية والعنصرية التى كانت
سائدة فى أوربا قبيل الحرب الأخيرة (١٩٣٩ — ٤٥) ، وتنبأ (فى ١٩٣٣)
المصير الذى لا مفرّ منه إذا ظلت تلك النزعات سائرة فى طريقها . وعندى
أن دراسة المشكلات الجوهرية التى يطرقها هذان الفصلان ، والوصول فيها
إلى فلسفة تطمئن إليها النفس شرط لا بد من توفره فى كل سياسى صالح .

وليس هناك من شك فى أن النتائج التى عرضها « برت » — فى
موضوع الجنسين وما بينهما من فروق مزعومة أو أصيلة ، وفى موضوع
الفراغ ومكانه فى الحياة الحاضرة — جديرة بأن يُعنى بها المربون والمصلحون
الاجتماعيون ، ولا سيما فى مصر والشرق ، حيث يتجدد النقاش كل يوم
حول شئون الجنسين ، وحول نواحى النشاط التى يشغلان بها فى أوقات
الفراغ .

ولقد أطال « برت » إطالة محمودة فى بحث النواحى العقلية من إنتاج
الفن والاستمتاع به ؛ فساهم بذلك مع الذين فتحوا لدارس الأدب وناقده

أفقاً جديداً فى البحث ، وهيأ الفرصة للمنزع النفسانى أن يأخذ مكا
الأصيل فى الاتجاهات النقدية . ومن الإنصاف أن أقر أننى أفدت م
هذا البحث كثيراً فيما نشرتُ من دراسات لبعض نواحى النقد العرب
القديم والمعاصر ، كما أفدت من بحوثه وكتبه الأخرى فى كتابى (« الطف
من المهد إلى الرشد » . القاهرة ١٩٣٩) . أما سيكلوجية الدين فقد ش
« برت » طريقه إليها فى تؤدة ورزانةٍ محمودتين ، وقد أفلح فى أن وفّ
بين دقة العلم وحريته ، وحرمة الدين وقدسيته ، ووقف الموقف النزيه الذ
يتطلبه العلم والحق معاً فى معالجة الشعائر والمذاهب الدينية .

هذا ولعل نقل أمثال هذه البحوث إلى العربية يحدث أثره المطلوب ف
توجيه الانتباه فى مصر والشرق العربى إلى دراسة الإنسان دراسة علم
منظمة ، وإلى إقامة نواحى الحياة من سياسة وإصلاح واجتماع على أس
الفطرة القويمة ، كما يكشف عنها البحث العلمى الصحيح .

الإسكندرية — يناير سنة ١٩٤٦ محمد خلف الله

فهرس الجزء الثانى

كيف يعمل العقـــل فى المجتمع

مقدمة المعرب

الفصل الحادى عشر : سيكلوجية الجنسين (ص ١٣٣ — ١٥٠)

انقسام عالم الحيوان وجزء عظيم من عالم النبات إلى ذكر وأنثى . الغرض الذى يخدمه هذا الانقسام . الفروق الجنسية الجوهرية فروق فى الغدد والأعضاء التناسلية . الفروق الثانوية فى الجسم والعقل . رأى « شوبنهور » فى المرأة . الخصائص العقلية عند المرأة أكثر غموضاً .

آراء الفلاسفة فى تعليل الفروق العقلية بين المرأة والرجل : أهى وليدة المؤثرات الاجتماعية ، فهى — إذن — سطحية غير عميقة (مِل) ؟ أم هى عادات مكتسبة تأصلت فأصبحت خصائص متوارثة (لمبروزو) ؟ أم هى نتيجة الانتخاب الجنسى دارون) ؟ أم أن كلا الجنسين يرث تكويناً جسمياً متشابهاً ، ولكن التغير الذى يطرأ عند البلوغ على الجهاز التناسلى فى الأنثى يجاب معه وقوفا مبكراً فى تطورها (هربرت سبنسر) ؟ أم أن جسمى الذكر والأنثى على طرفى النقيض فى خصائصهما الكيماوية (جدس وتومسون) ؟

البحث العلمى الحديث والفروق بين الجنسين : قياس الفوارق العقلية ، اختبارات الحركة البسيطة (جولتن) . المهارة العضلية . الاضطراب فى ضبط الحركات العضلية الدقيقة عند الأولاد والبنات . حاسة اللمس . الألم . الشم والذوق . السمع والبصر . عمى الألوان . الذاكرة والخيال . الذكاء والنظر الفكرى . الشهرة فى الرجال والنساء

اختبارات المعارف المكتسبة : الموضوعات الأدبية . الحساب . الدراسات اللغوية . الجغرافيا والتاريخ . العلوم الطبيعية والكيماوية .

المزاج . الغرائز . الصفات الأخلاقية . الوجهة الاقتصادية .

الخلاصـة .

الفصل الثانى عشر : سيكلوجية الشعوب (ص — ١٥١ — ١٧٤)

هل يختلف عمل العقل فى الأجناس والطبقات المختلفة ؟ هل التعاون الوطنى والدولى مستحيل ؟

منشأ الفروق بين الشعوب . (١) نظرية الشعور الجمعي (هربرت سبنسر) . القياس على الكائنات العضوية — نقد هذه النظرية — سلوك الجماهير — خطابة الجماهير وعدوى الجماعات . المشاركة الوجدانية الفطرية ، والشعور بالعطف نحو الجماعة .

(٢) نظرية وراثة الأجناس : الثقافة والتفرع الجنسي . الأجناس الأوربية . جنس البحر الأبيض المتوسط . أجناس أوربا الوسطى . أجناس شمال أوربا . سكان الجزائر البريطانية . هل الفروق الجسمية تجلب معها فروقا عقلية ؟ اختبارات ذكاء الشعوب . . الفروق المزاجية بين الشعوب . المزاج المنبسط والمزاج المنقبض . الفروق في الآداب والفنون . العمليون والنظريون . الآراء التي كانت رائجة قبل الحرب العظمى الأولى . الفكر الإنجليزي والشك في أمر الخصائص الفطرية للأجناس .

(٣) نظرية التقاليد الاجتماعية : العادات والتقاليد المتوارثة . «لوك» والصحيفة البيضاء . البيئة الجغرافية . التقليد . الأنظمة السياسية والدينية .

النظريات الثلاث ونصيب كل منها من الحقيقة .

خلاصة التطور القومي .

الفصل الثالث عشر : سيكلوجية السياسة (ص ١٧٥ — ١٩٤)

الانتخاب والعوامل التي تؤثر في الناخبين . البواعث غير المنطقية . مُنظِّم الحزب يجب أن يصبح عالم نفس . تقدم المدنية وصعوبة التفكير المنطقي في المعضلات السياسية . السياسة ليست في الواقع سوى علم نفس تطبيقي . تعريف السياسة . علم النفس والفيلسوف السياسي .

جانب الدولة وجانب الفرد : مذاهب الحرية والمحافظة والاشتراكية . المثاليون الألمان في القرن التاسع عشر ونظرية الدولة (هيجل) . فاشستية إيطاليا وشيوعية روسيا . الدولة والشعور الاجتماعي . الضمير المشترك للعالم . الطوائف الاجتماعية والروح الجمعي .

الفرديون الإنجليز والحرية (جرمي بنتام) . سلطان اللذة والألم . نقد مذهب المنفعة . الاشتراكيون الفلسفيون . المذهب النفعي وعلم الاقتصاد الحديث . سياسة عدم التدخل . تغير التفكير في هذا الموضوع . اضطرار الدولة إلى التدخل . أمثلة من هذا . معارضو المبادىء البنتامية من رجال الأدب . دعاوى الفرديين . « دارون » ووجهة النظر البيولوجية والقضاء على مذهب المنفعة .

طبيعة الدوافع الغريزية . غريزة القطيع . الزعامة والخضوع . الحماية . العدوان . المثل العقلية الشعورية . الذكاء الفطري ومبدأ المساواة في التصويت . الآراء المختلفة في هذا . نسب توزيع الذكاء في الشعوب . الدولة وسلم القيم .

الفرد والدولة يتمم أحدهما الآخر .

الفصل الرابع عشر : سيكلوجية الفراغ (ص ١٩٥ — ٢١١)

ازدياد أهمية الفراغ في الحياة الحاضرة . الانقلاب الصناعي والانقلاب الآلي .

التعب الجسمي . حقيقة الإعياء العقلي . الأسباب الوجدانية للتعب . الاستجمام وتنويع العمل العقلي .

تغير الفراغ في مقداره وفي طبيعته . تميز المدنيات الراقية بمنتجات فراغها ، الولايات المتحدة وشواغل الفراغ . المستحدثات الجديدة ومحو الفروق بين الطبقات . ازدياد سرعة السفر . اختلاط الفقير والغني . تلاشي الفوارق بين الريف والحضر . تقارب العالم بعضه من بعض . أثر التغيرات الجديدة على الجنسين . المساواة وحرية الاختلاط .

المخترعات الجديدة وأوقات الفراغ عند الأطفال . التربية للعمل والتربية للفراغ . السينما والأخلاق . تنبيه الغرائز الفطرية وإشباعها . الرغبات الفطرية المكتومة . تدريب الغرائز وإعلاؤها . اللذات الرفيعة . حركات الشباب في دول أوربا . العمل واللعب والحياة .

الفصل الخامس عشر : سيكلوجية الفن (ص ٢١٢ — ٢٥١)

المعضلتان الأساسيتان : خلق الجمال والمتعة بالجمال .

هل الميل الفني ملكة خاصة ؟ دراسة حيوات الفنانين . إجراء التجارب عليهم .

المصادر الأولى للفن . هل الفن في أصله نوع من اللعب ؟ اللعب بالانفعالات . الأشكال الأولى من الفن في حياة الطفولة . تصريف النشاط الغرزي الزائد . غريزة إظهار الذات . تطهير العقل من وجداناته المتعبة . اللعب الفني وصلته بالماضي والمستقبل . الفن وتحقيق الرغبات . الفن واللاشعور . « ستيفنسُن » . « هوسمان » . الفن والتجربة الذوقية . الهزة الروحية . التعبير والتبليغ .

التجارب التي أجريت على التذوق الفني . طريقة الموازنة الثنائية (ا) النوع الربطي : الأثاث وموضوعات الفن الصناعي . الأدب وإثارة الروابط في أذهان الآخرين . (ب) النوع الذاتي : التأثير الانفعالي والفيزيولوجي . الفن التجاري وإثارة الانفعالات . الفن والتعبير عن الانفعالات . (ح) النوع التشخيصي . نظرية الاتحاد الفني . (د) النوع الموضوعي .

أحكام الجمال . هل الجمال ذاتي محض أم أن هناك عنصراً موضوعياً ؟ الأدلة على هذا . دراسة برت للتفضيل الفني . نتائجها . البصيرة الفنية وازدياد السنّ . الشعب البريطاني والحاسة الفنية .

مم يتألف الجمال ؟ الجمال والتركيب . النسبة الذهبية . النسب والعلاقات . التوازن والانسجام . الادراك الذوقي ومكانه من الادراكات العقلية الأخرى . إدراك الموضوع

فى علاقات معينة . حركة العين وحركة الانتباه . الطفل وتعلم القراءة . الفرق بين النظر العقلى والذوق الفطرى .

خلاصة فى سيكلوجية إدراك الجمال .

الفصل السادس عشر : سيكلوجية الدين (ص ٢٥٢ — ٢٧٢)

الشعور الدينى والبحث السيكلوجى . وجوب النزاهة فى دراسة شعائر الفرق والأجناس المختلفة .

كيف ينشأ الدين وكيف يتطور وينمو . اعتقاد الهمج الفطريين فى الأرواح . « تيلور » وفكرة حيوية الأشياء . الصور الذهنية البصرية عند المتوحشين . أطياف الموتى والغائبين . « فريزر » والتفرقة بين الدين والسحر .

الدين وغرائز الخوف والعجب والخضوع والاعجاب . الظواهر الرائعة (الرعد والبرق والأجساد الميتة والدم ...) وتأثيرها فى الانفعالات . الهمجى واعتقاده فى القوى المؤثرة . كشف تطور الشعور الدينى لا يلزم عليه الحط من شأن الدين أو إبطاله

الدين فى بحث القرون الوسطى . الدين ليس مجرد استنتاج منطق هادىء . الدين والتقاليد . الدين والعقل الباطن .

ظاهرة التحول الدينى : « بنين » . « فوكس » . « وزلى » . « كارلايل » بعض الحركات الدينية . التحول الدينى والبلوغ . التحول الدينى والنزعات الجنسية . التحول الدينى فى الكبر . « بولس » . « أوغسطين » . « تولستوى » . حالات التصوف .

الصلاة ومعناها الاصطلاحى . أحوال الوجد . تأثير المخدرات أحياناً . الأزمات العصبية . « دستويفسكى » . الصرع . بعض الأحوال التى كانت تعترى الأنبياء . التجارب الدينية والبصيرة الكشفية . المتصوفون الشرقيون . مسيحيو القرون الوسطى . الشعراء الرومانسيون . « وردزورث » . « شلى » . « كيتس » . مثال من « تينسون » . تأثير الصلاة . الايحاء . « كوويه » التنويم المغناطيسى . البحوث الروحية . « جيمس » . فكرة التليباثى . الجسم والعقل .

خلاصة : سيكلوجية الدين وحدودها . بعض النتائج الايجابية . الحياة الدينية والنشاط العقلى . وحدة الشعور الدينى . الدين والسمو بحياة الفرد وحياة النوع البشرى

الفصل الحادى عشر

سيكلوجية الجنسين

كان كلامنا حتى الآن مقصوراً على سيكلوجية الفرد ، أى على دراسة عقل البالغ وعقل الطفل كلا بمفرده . ولكن بنى الإنسان يعيشون معاً فى جماعات ، والمؤثرات الاجتماعية التى تحيط بهم لها فى سير عقولهم كبير التأثير . غير أن فرع علم النفس الاجتماعى[1] — لسوء الحظ — أحدث فى

---

(١) ظل علم النفس إلى عهد قريب قاصرا نفسه على دراسة عقل الفرد الإنسانى ، تاركا الجانب الاجتماعى من سلوك الإنسان لفروع أخرى من الدراسة أهمها الأخلاق والقانون والاقتصاد السياسى . ولكن لم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كانت بحوث الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين قد أثارت معضلات فى السلوك الاجتماعى وفى تأثير بعض الأفراد على بعض . ومن مناقشة هذه المسائل نشأ الفرع الجديد وهو علم النفس الاجتماعى . وسرعان ما عولجت بعض مسائله — كالتقليد والإيحاء وروح الجماعات — على أساس علمى . وكان من أوائل من عالجوها « بريد » و « بينيه » و « تارد » و « لبون » . حتى إذا جاءت سنة ١٩٠٨ خطا هذا العلم خطوة أخرى حين نشر « ما كدوجل » كتابه المشهور (مقدمة لعلم النفس الاجتماعى) ، وفيه قرر هذا العالم مذهبه فى فهم السلوك الاجتماعى فى نواحيه المختلفة ، راجعا إياه إلى أسس الغرائز وانفعالاتها والميول العامة من إيحاء وتقليد . وكانت هناك طائفة أخرى من العلماء — وهم رجال الأنثروبولوجيا والاجتماع — عاكفة على دراسات الثقافات البدائية وتطورها — من أشهرهم « تيلور » مؤلف كتاب (الثقافة الفطرية) ، و « فريزر » مؤلف الكتب الكثيرة التى من أكبرها (الغصن الذهبى) و « جارفث ريد » مؤلف كتاب (أصل الإنسان وخرافاته) و « كنج » مؤلف كتاب (تطور الدين) ، و « دوركيم » مؤلف كتاب (الأشكال الأولية من الحياة الدينية) ، و « لفى برول » مؤلف كتاب (العقلية الفطرية) وغيرهم . لم تلبث هذه الدراسات أن وجدت طريقها =

الوجود من علم النفس الفردى ؛ وبالرغم من كون مشكلاته فى الدرجة الأولى من الأهمية فإن معرفتنا به أقل يقيناً وأقل تفصيلا .

إن الرجل العادى ليتكلم — بلا حساب — عن الخصائص العقلية للجماعات الإنسانية المتنوعة : فيخوض فى الفروق بين الجنسين ، وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وبين أنفسنا والشعوب الأجنبية . فهل اتجه الباحث العلمى لدراسة هذه المسائل ؟ وإذا كان فما هى النتائج التى وصل إليها ؟

لنبدأ الآن بالجنسين فنضع كلا منهما تحت المجهر ، ثم نتساءل : أيسير عقلا الرجل والمرأة على نسق واحد ؟

(١) كل عالم الحيوان — فى الغالب — وجزء عظيم من عالم النبات — ينقسم إلى نصفين : ذكر وأنثى . فما هو الغرض الذى يخدمه مثل هذا الانقسام ؟ إن هذا التميز يرتبط فى أساسه بإنتاج النسل ، فلو أن كلا منا كان مولوداً لوالد واحد لجعلتنا الوراثة — كما يزعم بعضهم — صورة طبق الأصل من أسلافنا ، وإذاً لانعدم التنوع ، ولترتب على ذلك ذهاب كل فرصة للتغير أو الترق . أما وكل ولادة هى نتيجة اختلاط خليتين حيويتين ، فإن الذى ينتج عنها مخلوق ثالث جديد يختلف عن كل من أبويه

= إلى ميادين علم النفس ، واتجه غير واحد من السيكولوجيين — وعلى الأخص رجال التحليل النفسى — إلى بحث نواح منها على أساس سيكولوجى ، فبحث «فرويد» ظواهر الرمز المقدس (التوتم) والتحريم فى الجماعات الفطرية ، و «مالنوفسكى» الحياة الجنسية عند المتوحشين ، و «هافلوك أليس» سيكلوجية الجنس .... على أن حركة التجريب فى علم النفس لم تلبث أن غزت الميدان الاجتماعى فى الثلاثين سنة الأخيرة فتفنن الباحثون فى ضروب الاختبارات والمقاييس والتجارب التى تتناول ضروب السلوك الاجتماعى . ونتائج هذه الحركة هى التى يسجل الكتاب الحاضر أهم مظاهرها .

الذين نسلاه . على هذه الطريقة تدأب الطبيعة فى تجاربها ، ويقتل تنازع الوجود غيرَ الصالح للبقاء ، فلا يبقى إلا الأصلح ، ينقل للأعقاب ما تحسّن على الأيام من خصائص ومميزات .

إن الفروق الجنسية الجوهرية — فى الواقع — فروق فى الغدد والأعضاء التناسلية . ونحن نعلم الآن أن لهذه الغدد تأثيراً على كلا النمو الجسمى والوجدان أو المزاج . فالفروق الأولية إذاً — فى الغدد — تجلب معها بعض فروق ثانوية فى الجسم وفى العقل . ولن نقف هنا طويلا عند الفروق الجنسية الأولية ؛ فأما الثانوية فيمكن تقسيمها قسمين جثمانية وعقلية . وعلائم الجنس من الوجهة الأولى ظاهرة ظهوراً كافياً : فبيننا مثلا — ترى الذكور أطول قامة ، وأثقل وزناً ، وأكبر عظاماً ، وأصلب عضلا ولهم أصوات عميقة وذقون مشعرة . أما المرأة فيحدثنا « شوبنهور »[1]

---

(١) شوبنهور (Arthur Schopenhauer ١٧٨٨ — ١٨٦٠) الفيلسوف الألمانى المشهور صاحب كتاب « الدنيا فكرة وإرادة » ، وأحد مجموعة الساخطين — من الشعراء والفلاسفة والموسيقيين الأوربيين — الذين جمعهم النصف الأول من القرن التاسع عشر على فكرة التشاؤم .

يسير « شوبنهور » فى سلسلة فلسفته النقدية المتمردة حتى يصل إلى أن الحياة شر وأن الموت خير منها ، وإلى أن التوالد هو الهدف الأساسى لكل كائن عضوى ، وأن المرأة هى المسئولة عن معظم الشقاء فى هذا العالم ، وإلى أن الرجال أكثر جمالا من النساء . وما من أحد — إلا رجل قد غشى على عقله ميله الجنسى — يرضى أن يعطى اسم « الجنس اللطيف » لتلك المخلوقة الضيقة الصدر ... وبدلا من تسمية النساء الجنس الجميل كان ينبغى أن يسمين « الجنس غير الذوق » ، فليس عندهن فى الحقيقة أى حس أو قابلية للتأثر بالموسيقى أو الشعر أو الفنون الجميلة ، وإن كن يدعين هذا أحياناً رغبة فى الإرضاء ؛ وليس لديهن القدرة على النظر إلى أى شأن من الشئون نظرة موضوعية ، وإن أشهر مشهوراتهن لم ينتجن أى إنتاج أصيل فى الفنون الجميلة ، ولم يعطين للعالم عملا ذا قيمة خالدة فى أى ميدان من الميادين. ولقد كان الأسيويون أحكم =

أنها إذا وزنت بالرجل لم تكن مثالا للرشاقة الجسمية ، ولكنها تبدو صورة شاذة ضيقة الصدر ، كبيرة الثديين ، قصيرة الساقين ، عريضة الحقوين ، مقوسة الركبتين . وربما كان « شوبنهور » قد بالغ فى رسم الصورة ، ولكن من المتفق عليه ، أن بناء الجسم فى « الجنس الأضعف » — ولو أنه مكون تكويناً مناسباً لحمل الأطفال وتنشئتهم — يكون من مبدأ المراهقة عائقاً كبيراً عن كثير من أنواع العمل كالقتال والصيد وقطع المسافات البعيدة .

والخصائص العقلية عند المرأة أكثر غموضاً : فالجنسان كما نراهما فى العالم المتمدين يظهران — لأول وهلة — مختلفين اختلافاً شاسعاً فى الصورة العامة التى ينظر بها كل منهما إلى الحياة . إن المرأة لتتبع فى لبوسها قواعد خاصة بها ، وتتجمل وتتطيب ، وتعتنى بتجعيد شعرها . وهى بهذه الوسائل المصطنعة قد ميزت نفسها تميزاً جنسياً مبالغاً فيه لم تدانه أى طائفة أخرى من الحيوانات الفقرية . أما دوافعها النفسية فتبدو أغرب ، بل إن عقلها كان ولا يزال لغزاً أو سراً غامضاً على الرجل . ولقد يدّعى كثير من الناس أنهم وفقوا إلى مفتاح ذلك السر . ولكن آراءهم تستند — فى الغالب — إلى نظريات لهم ناقصة الاستقراء مبنية على الحدس والظن أكثر من بنائها على الحقيقة والواقع .

= من الأوربيين حين اعترفوا صراحة بنقص المرأة ، وحين فرقوا بينها وبين الرجل فى كثير من الحقوق والواجبات .

هذا الموقف العدائى الصريح الذى وقفه « شوبنهور » من المرأة كان موضع تحليل ودراسة من بعض الباحثين ، ومنهم من رد تشاؤمه على العموم إلى ظروف حياته الخاصة واعتلال صحته واضطراب أعصابه ، ورفضه أن يحيا الحياة الطبيعية حياة الزواج والأسرة والأطفال .

(٢) وأبسط تلك الآراء في تعليل الفروق العقلية بين الرجل والمرأة هو الرأى القائل بأن تلك الفروق وليدة المؤثرات الاجتماعية وحدها . وقد حدد « جون ستيوارت مل »[1] هذا الرأى تحديداً واضحاً — فى كتابه « إخضاع النساء » الذى وصف يوماً ما بأنه الوثيقة المقدسة لحركة المطالبات بإعطاء المرأة حق التصويت السياسى . وخلاصة الرأى أنه — على حين يخرج الرجال للحرب أو للعمل — يبقى النساء فى المنزل يقمن على رعايته ويتعهدن الأطفال . ومن هنا بقيت النساء متفرقات ، بينما نشأ بين الرجال شىء من الماسونية الحرة . بهذا التخصص فى المهن والأعمال كسب كل من الجنسين عادات خاصة به . وإذا كانت مدنية المستقبل ستقود إلى اختلاطهما

---

(١) مِلْ (John Stuart Mill ١٨٠٦ — ١٨٧٣) أحد زعماء مدرسة المنفعة فى القرن التاسع عشر وأحد الفلاسفة الذين تأثرت الحياة الانجليزية فى ذلك القرن بآرائهم أكبر تأثر . ومن أهم كتبه فى الناحية الإصلاحية والسياسية كتاباه (الحرية) سنة ١٨٥٩ و (إخضاع النساء) سنة ١٨٦٩ . هذا الكتاب الأخير ساعد على احترام الحوية الشخصية للنساء فى العصر الفيكتورى وعلى الاهتمام بتربيتهن . ويعتبر مِل و « فلورنس نيتنجيل » الشخصين الأولين اللذين تدين لهما المرأة الانجليزية الحديثة بمركزها فى الجماعة الحاضرة ؛ فقد شهد القرن التاسع عشر حركة إصلاحية واجتماعية عامة فى التعليم والصناعة والحقوق السياسية ، كان من نتيجتها أن تنبهت المرأة الانجليزية لحقوقها ، وتنبه الشعب للدور الذى يمكن أن تلعبه فى حياة الأمة . وطالب « مِلْ » فى أوائل النصف الثانى من ذلك القرن بإعطاء المرأة حق التصويت السياسى ، وأيدته فى ذلك الآنسة فلورنس نيتنجيل (التى أنقذت ألوف الأرواح من مخالب الموت فى حرب القرم) . وسارت هذه الحركة سيراً مطرداً ، إلا أنها تشعبت بعدُ إلى شعبتين : شعبة النساء المطالبات بحقوقهن فى حدود القانون ، وشعبة الثائرات اللاتى اصطحبت حركتهن بالعنف والشغب والاعتداء . وقد مُيِّز بينهما بأن أُطلق على الجماعة الأولى اسم Suffragists ، وعلى الثانية اسم Suffragettes . وقد جاء نجاح هذه الحركة على مراحل كان أهمها التشريع البرلمانى المعروف بمرسوم الإصلاح الرابع سنة ١٩١٨ قبيل نهاية الحرب العظمى الماضية بقليل ، وبه نالت المرأة الانجليزية أهم حقوقها السياسية .

على قدم المساواة ، فتعطى أحدهما مثل ما تعطى الآخر تماماً من لبوس وحرف وتربية فإن ذلك التفاوت العقلى بين الرجل والمرأة سينقرض أو يكاد .

هذا الرأى — إذاً — يذهب إلى أن الفروق الفطرية بين الجنسين سطحية غير عميقة . وما تبقى من الفروق فنشؤه المران والتقاليد :

« إنه فرق فى الاسم فحسب
والمرأة والرجل سيان .
وإذاً يا سيدى فتكوين المرأة ،
أو لغز « أبى الهول » قد وجد فى النهاية حلا » .

وهناك نظرية ثانية تسلم بمقدمات الرأى السابق ولكنها تنكر نتيجته فهى تزعم أن هذه العادات المكتسبة تأصلت فى كلا الجنسين فأصبحت الآن خصائص متوارثة . ذلك لأن العوامل التى أنتجتها قد تحكمت فى تكوين الجنسين جيلا بعد جيل . وممن كان يميل إلى هذا الرأى « دارون » وقد فصّل القول فيه « لمبروزو » — العالم الإيطالى الإخصائى فى مباحث الاجرام — لكن ليس هناك دليل على أن الخصائص المكتسبة تتوارث قط بهذه الطريقة ، على الأقل إلى دجة محسوسة . وحتى على فرض أنها تتوارث ينبغى لنا أن نتساءل : لم يورث الأمهات خصائصهن الأنوثية إلى البنات فحسب ، مع أن الأبناء والبنات ينسلون من الجنسين معاً !

هناك تعليل ثالث رجحه « دارون » نفسه ، ومال إليه أكثر ، ذلك هو الانتخاب الجنسى ، ففى الأزمنة الوحشية (على حسب ما نتصور) كان أقوى الرجال بأساً من سكان الكهوف وأشدهم عدواناً يأسر الأنثى ويغنمها ، وكانت أكثر ساكنات الكهوف ملاحة وأشدهن حياء وإغراء تستحوذ على انتباه الرجل . فإذا كانت الخصائص الجنسية ، أثناء انتقالها بالوراثة ،

قد استمرت فى تميزها وانعزالها — حسب قوانين « مندل » — فمن السهل أن نفهم كيف بقيت القوة والعدوان خصائص الذكورة ، وكيف تميزت الأنثى بالحياء والملاحة . ومن هذا ما يعلل به أحد الكتاب انحطاط ذكاء المرأة من أن صواحب الجورب الأزرق (العالمات المتحذلقات ، المهملات لرقة الأنوثة) قلّ أن يتزوجن .

وثمّ نظرية رابعة — تقترن على الخصوص باسم «هربرت سبنسر» — تذهب إلى أن كلا الجنسين يرث تكويناً جسمياً متشابهاً . ولكن التغير الذى يطرأ عند البلوغ على الجهاز التناسلى فى الأنثى يجلب معه وقوفا مبكراً فى تطورها . وعلى هذا فالمرأة فى رأى « سبنسر » نوع من الرجل الساذج أو ناقص التطور ، وهى تبقى طول حياتها أشبه بالطفل وأقرب إلى الطبيعة المتوحشة .

أما النظرية الأخيرة — وهى التى نادى بها الأستاذان « جدس » و«تومسون» — فإنها أبعد غوراً من النظريات السابقة ، ذلك أنها تزعم أن جسمى الذكر والأنثى على طرفى النقيض فى خصائصهما الكيمياوية . فالخلية المنوية عند الذكر صغيرة نشيطة ، وهى عند الأنثى كبيرة ساكنة ؛ وإذا عبرنا عن ذلك بلغة الكيمياء قلنا إن الأولى (كاتابولك) — أى تصرف نشاطها . والأخرى (أنابولك) — أى تخزنه . والمفروض أن هذا الخلاف الجثمانى فى الخلايا المنوية يظهر بصورة أخرى فى تقابل مماثل له يؤثر فى المزاج وشكل الجسم ؛ فالرجل مؤثر والمرأة قابلة ؛ والرجل مبتدع والمرأة متبعة ؛ والرجل يسير بعقله والمرة بانفعالها ؛ والرجل يعنى بنفسه والمرأة بالأنواع وصغارها . وعلى هذا فالمرأة ، كما يقول « تنسون » — « ليست رجلا ناقص التطور ولكنها جنس مختلف » ، وليس أحد الجسمين بأحط من

الآخر فى جسمه أو عقله ، فكلٌ مساو للآخر ومقابل له .

(٣) كانت آراء الباحث العلمى — إلى عهد قريب — مثل آراء الرجل العادى تقوم فى الغالب على الاستنتاج النظرى ، وربما انضمت إلى ذلك الفروض الفلسفية أو البيولوجية . ولكن علم النفس الحديث يؤثر أن يعرض هذه النظريات على محك التجربة المحدودة ؛ فنحن نستطيع الآن — بمعونة الاختبارات المقننة — أن نقيس الفوارق العقلية فى يسر وإتقان . وقد اختبر ألوف الأولاد والبنات ، ومئات الرجال والنساء ، وحللت النتائج تحليلا دقيقاً بوساطة الطرق الاحصائية المضبوطة .

فهلم نأخذ المستويات العقلية السفلى أولا ، بادئين منها بالحركة البسيطة : ليس هناك خلاف فى وجود الفرق بين الجنسين من حيث القوة العضلية الخالصة ؛ فقد دلت البحوث الأولى التى قام بها « سير فرنسس جولتن »[١] منذ خمسين سنة على أن الرجل المتوسط ضعف المرأة المتوسطة فى القوة . ولكن هناك ظاهرة أخرى لها دلالتها ، ذلك أنه منذ كثر اهتمام البنات

---

(١) جولتن (Sir Francis Galton) يحتل من نهضة علم النفس فى انجلترا مكانة شبيهة بمكانة ڤونت فى ألمانيا ، فقد جال فى نواح سيكلوجية كثيرة محاولا أن يعالجها على أساس التجربة . وأول عمل على نشره هو دراسته فى (العبقرية الوراثية) سنة ١٨٦٩ ، ثم نشر بعد ذلك كتابه (الوراثة الطبيعية) فى سنة ١٨٨٩ . وجذبته دراسة السلالات البشرية ، فتقدم فى سنة ١٨٨٣ بمقترحات لتحسين النوع كانت أساسا قامت عليه مجلة « بيومتركا » سنة ١٩٠١ . وفى سنة ١٨٨٣ أيضا نشر دراسته (مباحث فى الملكة الإنسانية) . ومن أهم أعماله تجاربه على الصور الذهنية الحسية وعلى أجهزة الحس ووظائفها . وقد تناول فى هذه التجارب الإنسان والحيوان معا . وأهم ما شغل « جولتن » من ميادين علم النفس ميدان الفروق الفردية . فإذا كان « ڤونت » قد أدخل التجربة فى علم النفس العام فإن « جولتن » أقام دعائم علم النفس الفردى على أساس تجريبي .

بالحياة الخارجية من لعب ومسابقات تضاءل الفرق فى القوة بين الجنسين تضاؤلا ملموساً . أما من حيث سرعة الحركة فالفرق غير كبير . وإذا نظرنا إلى الجنسين من وجهة المهارة العضلية — وتلك وظيفة أعلى وأكثر تعقداً من سابقتها — وجدنا الفرق أقل ، وهو يختلف حسب اختلاف الأعمال . والفكرة السائدة أن النساء فى هذه الناحية أرجح ، إلا أن هذا من غير شك تعميم لا مبرر له . وكل ما هنالك أن النساء منهن ناصحات الثياب وموشياتها ومطرزاتها ، ومنهن المختزلات والكاتبات على الآلة الكاتبة ، وقد جر هذا إلى افتراض أن النساء لابد أن يكون فى فطرتهن موهبة خاصة فى حركات الإصبع السريعة الماهرة .

حقيقة أن الاضطراب فى ضبط الحركات العضلية الدقيقة أكثر ندرة فى النساء والبنات ؛ فالتلعثم واضطراب الكلام والعسر والحول أكثر شيوعاً بين الأولاد والرجال . ولكن تجارب المعمل أثبتت أن الأولاد والرجال يرجحون فى معظم الاختبارات العملية التى لا تعتمد على مران أو تدريب .

والآن لننتقل من الحركة إلى الإحساس ولنبدأ كما بدأنا من قبل بالمستويات البسيطة ؛ فحساسية اللمس تكاد تكون ضعفها عند الرجال ، وربما كان اللمس هو الاستعداد الوحيد الذى يتفوق فيه الأطفال والهمج على المتمدينين . فلدينا هنا — إذاً — مثل حى تشبه فيه الأنثى كلا من الطفل والرجل المتوحش . أما فى الحاسة العضلية — حاسة الحركة والمركز والوزن — والتى كثيراً ما تخلط بحاسة اللمس — فلا ريب فى أن الرجال أكثر دقة من النساء .

والآراء فى شأن الألم متعددة ، فأطباء الأسنان والجراحون وممرضات

المستشفيات يكادون يجمعون على القول بأن النساء يتحملن الألم فى صبر يفوق صبر الرجال . ولكن هذا من غير شك ينبعث من الاختلاف فى التأثر الانفعالى أو من التعود أكثر مما ينبعث من فارق أساسى فى الحساسية الخالصة ؛ فإن تجارب المعمل تشهد أن المرأة أكثر حساً بالألم كما أنها أكثر حساً باللمس . والنساء يحتملن البرد أكثر ، إلا أن سر ذلك جثمانى لا نفسانى ، فحاجتهن إلى الثياب أقل لأن أبدانهن مكسوات بثوب صفيق هو الشحم الطبيعى .

والشم والذوق حسان أرقى فى التطور مما سبق من الحسوس ، والفروق فيهما يسيرة : فالنساء فى الواقع لسن خبيرات فى ذوق الخمر ، ولا فى وظائف اختبار الشاى وتصنيف العطور ، وقلَّ أن يستخدمن فى أرقى الأنواع من الطبخ ؛ ولكن العامل الأساسى هنا قد يكون مجرد العرف أو الفرص . ويظهر من تجارب المعمل أن النساء أسرع فى تعرف وجود الروائح والطعوم ، فى حين أن الرجال أدق فى تمييز صفاتها .

أما فى أرقى الحواس وهما السمع والبصر فالفروق أقل من سابقتها ؛ فالنساء أبرع فى تمييز الأصوات والألوان ، ولكن الرجال يفوقونهن فى تمييز الأشكال أو الهيئات . ومن النساء عدد أكبر يحتاج إلى المناظير — وإن كن (كالسيدة التى يتحدث عنها « هنرى جيمس » فى قصته المحزنة) يأبين أن يشوهن وجوههن بلبسها ، وعمى البصر أكثر ما يصيب الرجال ، ولكن هذا آت من كثرة تعرضهم للحوادث والأمراض . وعمى الألوان يكاد يكون وقفاً على الذكور ، فنسبة المصابين به بينهم واحد فى الثلاثين ، على أنها قلما تصل واحداً فى الألف بين النساء .

ولعمى الألوان هذا نظام فى الوراثة مفيد فى دراسته ؛ فإذا تزوج رجل

مصاب به بامرأة طبيعية النظر فإن بناتهما لا يكون فيهن هذا النقص . ولكن إذا تزوج هؤلاء البنات من رجال طبيعيي النظر ، فقد يظهر عمى الألوان فى من ينجبون من الأولاد ، وهذا يذكرنا بقوانين « مندل » فى الوراثة المرتبطة بالجنس ، وربما كشف لنا عن السر فى أن الخصائص الجنسية تنتقل إلى واحد من الجنسين دون الآخر .

والآن لندع الحس جانبا ، ولننتقل إلى الدرجات العليا من الذاكرة والخيال : هنا يمتاز النساء فى كل أنواع اختبارات الذاكرة تقريبا ، وهن فى متوسطهن خير من الرجال فى التعلم إذا كان لا يحتاج إلى أكثر من استذكار آلى . أما من حيث الصور الذهنية فالنساء — كالأطفال — واضحات الصور البصرية ، ويغلب بين الرجال ذوو الصور السمعية والحركية . ويميل التفكير عند الرجال إلى أن يأخذ مظهر الكلام الداخلى أكثر من مظهر الصور العقلية . وإذا نظرنا من وجهة الخيال الابتكارى — لا سيما فى الاختراع — وجدنا الرجال من غير شك أكثر إنتاجا . وفى هذا شرح للظاهرة المشاهدة كثيرا من أن النساء أكثر تقبلا للحقائق ، والرجال أكثر ابتكارا ؛ فمن حيث العمل الرتيب الذى يتطلب صبرا وتطبيقا وذاكرة حاضرة ترى سوق النساء أروج ، أما الرجال فلهم انتصارات أكثر — يحق لهم أن يفخروا بها — فيما يتطلب كشفا وبحثا . حتى فى الميادين الخاصة بالنساء تجد معظم الأجهزة المنزلية الجديدة من آلات الخياطة والنسج ، والعدد الموفرة للجهد واللازمة للمطبخ والمنزل ، لم يخترعها النساء ، ولكن اخترعها الرجال .

ننتقل أخيرا إلى أعلى الخطوات كلها ، وهى عمليات الذكاء والتعليل ، أما رأى الرجال هنا فهو قاطع لا تردد فيه ، وقد عبر عنه طبيب الأسنان فى

رواية (You Never Can Tell) (١) . إذ يقول للبنت التي وقفت للدفاع عن حقوق المرأة : « إن الذهن خاصة من خواص الذكور » . ولكن طبيب الأسنان هذا كان حدثا غمرا ، وقد تبين له خطؤه قبل أن يسدل الستار . فما هو الحكم الذي تنطق به اختبارات العالم النفساني ؟ إن الاختلاف الفطري في الذكاء ، والتعليل على درجة من الضآلة بحيث لا يمكن رؤيته . وقد يظهر النساء في الحياة العادية أقل منطقية من الرجال ؛ غير أن هذا لا يرجع في أساسه إلى عدم القدرة على النظر الفكري ، ولكن إلى الاضطرابات التي تجلبها العوامل الانفعالية ، وحب الاعتماد على البصيرة المتخيلة ، والاستجابة لأثر المشاركة الوجدانية العاجلة . وقد وجد في كل اختبارات الخطوات الذهنية الراقية التي تعتمد على الاستعداد الفطري أن متوسط الجنسين يكاد يكون واحدا . أما الذين يعارضون هذه النتيجة فإنهم في العادة يستمدون حقائقهم من التاريخ ، فهم يقولون : انظر في معاجم التراجم الوطنية ، وعد الألف الذين يتمتعون بأعظم شهرة في تاريخ الدنيا فإنك لن تجد من بين هؤلاء الألف إلا اثنتين وثلاثين امرأة ، معظمهن مشهورات في ميدان واحد ، هو القصص الخيالي أو الآداب الرفيعة (Belles Lettres) ، أما الباقيات فالفضل في شهرتهن للصدفة العارضة من نسب أو جمال . ولكن هنا خطأين منطقيين خطيرين : أولا — أن الدور الصغير الذي لعبته المرأة في العلم أو التاريخ يسهل تعليله بأنها حرمت الفرصة المناسبة . ثانيا — أن من الجور أن تحكم على مجموع بأحد طرفيه فقط ، فالرجال في العادة يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف النساء وعلى هذا فإنك تجد من الرجال عددا أكثر في كلا طرفي التوزيع

(١) إحدى روايات « جورج برنارد شو » .

فلو أنك ذهبت إلى دور الأمراض العقلية وإلى السجون لبان لك أنه إذا كان بين الرجال العدد الأعظم من محبي الإنسانيـة ومن ذوى النبوغ العقلى فإن بينهم أيضاً العدد الأوفر من المجرمين والبـله والمجانين . فأضمن طريقة لـكشف الفرق فى الاستعداد الفطرى هى تطبيق اختبارات سيكلوجية خاصة على مجموعات كبيرة ممثلة لـكلا الجنسين ، والنتائج التى أدت اليها هذه الطريقة تدل دلالة مطردة على أن الفروق بين الجنسين — من حيث الذكاء العام — صغيرة كل الصغر .

ولـكن نتائج اختبارات المعارف المـكتسبة تختلف عن هذه ؛ فالبنات يمتزن عادة فى الموضوعات الأدبية من قراءة وتهج وإنشاء وما إليها ، والأولاد يفضلونهن فى الرياضيات . أما فى الحساب فالبنـات عادة أدق فى النواحى الآلية حيث يطلب حفظ القواعد والجداول واستذكارها ، والأولاد أمهر فى حل المسائل والمعضـلات . ويختلف الجنسان من حيث الدراسات اللغوية فالأولاد يتفوقون فى اللغات القديمة والـكلاسيكية ، والبنات فى اللغات الحديثة ، لا سيا فى ناحيـة العمل الشفوى . والأولاد أحسن قليلا فى الجغرافيا ، والبنات فى التاريخ . والأولاد يمتازون فى العـلوم الطبيعية والـكيمياوية وفى الهندسة ، على حين يمتاز البنات فى علوم الأحياء لا سيما النبات . وما يشاهد من ذلك فى فصول المدرسة يتـكرر عادة فى الجـامعة . ولـكن مدار الاختلاف فى كل هذا إنما يتوقف على اختلاف أنظمة التربية ، فحيثما كان الأولاد والبنات ينشئون معاً فى مدارس التعليم المشـترك ، على نظام واحد ومنهج متشابه ، وجدت الفرق بين الجنسين صغيراً . وفى الحقيقة يظهر أن أى تفرقة جوهرية فى هذا لا بد راجعة إلى الميل ووجهة النظر العقلى أكثر من رجوعها إلى المقـدرة الفطرية . فالمسألة — باختصار —

ترجع إلى المزاج أكثر من الاستعداد .

وإذا عرجنا على الناحية المزاجية وجدنا الفروق الجوهرية فيها أصعب تمييزا . حقيقة إذا حكمنا بمقتضى التعابير الظاهرة بدت لنا المرأة أكثر وجدانية ؛ فنقطة الغليان (كما يسميها « أرنولد بنت ») تبدو أكثر انخفاضاً عند النساء ، فما أسهل ما يذبن ، وما أسرع ما يتدفقن فى كلام أو دموع . أما إذا حكمنا من الناحية الداخلية فانفعالات الرجل غالباً أعمق وأطول مدى . فمشاعر الرجل — إذن — أشبه بالتيارات السفلية ، عميقة رزينة لا تكاد تُحس ، ووجدانات المرأة أشبه بالفقاعات والموجات الصغيرة ، فهى حادة فجائية ظاهرة ولكنها سريعة التغير دانية الغور . على أن الفرق فى الواقع أكثر فى مظهره منه فى حقيقته .

إن أساس المزاج والخلق قائم على الغرائز الإنسانيـة المشتركة ، ومن الظاهر هنا أنه لا واحد من الجنسين يرث غرائز محدودة لا يرثها الجنس الآخر ؛ ولكن غرائز العدوان أميل إلى الغلبـة فى الذكور ، وغرائز المنع أو الكتم أقوى عملا فى الأناث . وهذا صادق حتى على الحيوانات الدنيا . كتبت بنت صغيرة مرة موضوعاً على « المزرعة » قالت فيه : « إن أكثر أنواع البقر توحشاً هو — دائماً — الثيران » وأيّد نتيجتها هذه « Dr. Syntax » إذا قال فى معرض البحث عن زوجة له « إن الفرس الشهباء خير الجوادين وهى تحكم من طريق لباسها رداء الطاعة » والمنفوان والزعامة ، وغرائز التجوال فى الأرض والصيد والبناء ، وغريزة الاستطلاع (إلا حيث يكون منصباً على الأشخاص) كل هذه تبدو أقوى فى الرجال .

أما الحزن (على الأقل بمعنى الميل إلى ذرف الدموع) والخوف ، والميل

من وراء الستار ، والغريزة الوالدية ، وغريزة الخضوع ، والاستعداد الفطرى للتقزز فكلها تبدو أقوى فى النساء . ومن الصعب التعميم فيما يتعلق بالغريزة الجنسية . فهذا « مستر برنارد شو » — مثلا — فى رواية (الإنسان والإنسان الأعلى) قد حاول — فيمن حاولوا — أن ينقض الخرافة التى ذاعت فى القرن التاسع عشر زاعمة أن الذين صادوا الجنس الآخر كانوا ذكوراً ولم يكونوا أناثا . والفكرة السائدة الآن بين علماء النفس الطبيين أن المرأة ذات الشهوة الجامحة أقوى فى شعورها الجنسى من أكثر الرجال إحساساً بجنسه ، وأن أقل النساء شعوراً بالجنس أكثر فتوراً من أقل الرجال إحساساً بالجنس . فهنا — على الأقل — مثل من الميادين التى نجد فيها الأعداد القريبة من طرفى التوزيع أكثر بين الأناث . وربما كان فى هذا أساس التمييز الذى رسمه الشاعر فى قوله :—

« إن الفرق بين الرجال — فى أبعد حدوده — كالفرق بين الثريا والثرى »
« ولكن الفرق بين النساء — خيرهن وأردئهن — كالفرق بين الجنة والجحيم » .

وإذا نظرنا من حيث الصفات الأخلاقية وجدنا تناقضاً ظاهراً يلاحظه كثير من الناس ؛ ذلك أن النساء أكثر انصياعاً وتقى لسلطان الضمير ، ولكنهن فى الوقت نفسه أكثر تعرضاً للرياء . على أن هناك موازنة سيكلوجية يظهر أنها تتجلى فى كل قطر وكل قرن وكل مرحلة من مراحل الحياة ؛ ذلك أن نسبه الإجرام فى الذكور تبلغ خمسة أمثالها فى الإناث ، وهذا من غير شك راجع فى الغالب إلى النزعة العدوانية فى الذكر . هذا إلى أنه ربما لم تتح للنساء والبنات فى الماضى فرصة انتهاك القانون .

وإذا بحثنا من الوجهة الاقتصادية وجدنا أن شعور المرأة بواجبها وقدرتها على التكيف ، واستعدادها لقبول الحياة الجلوسية ، كل أولئك

مزايا لها قيمتها فى بعض الأعمال . إلا أن الخصائص الجنسية عند المرأة قد تكون عقبة أمامها فى بعض النواحى ، فاعتمادها الوجدانى على الرجل ، وتعرضها لتعقد مشكلات العاطفة والإحساس وضعف الإقدام والقوة المنظمة عندها ، ونقصها فى نواحى الاختراع والابتكار وإعداد الوسائل ، كل هذه (إلا حيث يقلبها دهاء المرأة مزايا) تعوق المرأة فى نجاحها فى ميادين التجارة.

غير أن وجوه النقص فى الخلق — ولا كذلك نواحى النقص فى العقل — يمكن أن تغير أو تغلب . وعلى هذا فليس من المحتم أن تكون هذه العقبات دائمة ، وحملها إنما يقع على عاتق بعض النساء ، لا على كل امرأة من حيث هى امرأة . إلا أن العوائق الجثمانية أبعد من هذه عمقاً ، فالقوة المحدودة عند المرأة ، وعدم قدرتها على بذل الجهد العنيف الدائم ، وتعرضها للضعف اليسير الذى يعتاد صحتها حين وبين آخر ، كل هذه تبرر أن يطلق على النساء اسم « الجنس الأضعف » ومهما يكن فهذه النقائص المزعومة أقل — فى الحياة المتمدينة منها فى غير المتمدينة — عرقلة وتأثيراً ، وكثير منها يستطاع المزيد من تخفيفه بتحسين فى وسائل التربية ، أو فى العادات والتقاليد الجديدة.

إن الأحوال لتتغير بسرعة ؛ فقد أصبحت الأمومة — وهى الوظيفة التى لن تنفك عن المرأة — مرحلة قصيرة مختصرة ، وأصبح الإشراف على الأطفال يعهد به إلى المدرسة ، وانتقلت مهمة الوقاية من الذكور إلى البوليس ، وصارت بعض الواجبات المنزلية يقوم بها منظفون أو متعهدون محترفون ، وبُسِّط باقيها بتحسين العدد والآلات ، وبدأت المرأة تُولى وجهها شطر مرافق جديدة ؛ فهى لا تسوق العربات فحسب ، ولكنها تخرج لصيد الحيوانات الكبيرة ، وتقود الطيارات فى طيرانها البعيد ، وتحترف الطب ، وترافع أمام المحاكم ، وتدير بنفسها مصالح وأعمالا كبيرة . وليس المهد ببعيد

على وصول باخرة روسية ربانها امرأة إلى ميناء لندن . وقريباً يجىء الوقت الذى سنضطر فيه إلى التساؤل : أهناك شىء يعوق المرأة عن محاولة تلك النواحى التى تحد من عقلها وإرادتها ؟ ولو أن « Rip Van Winkle »(١) ذهب إلى مخدعه فى سنة ١٨٨٣ ثم استيقظ فى سنة ١٩٣٣ بعد أن لبث فى نومه خمسين سنة لكان أعظم شىء رائع يصادفه هو الانقلاب العجيب الذى جد على مركز المرأة . أما ما سيشاهده بعد نصف قرن آخر فذلك ما نتركه لمحترفى التنبؤ بما سيجىء به الغد .

(٤) والآن فلنقف قليلا فنلخص نتائجنا الحاضرة : أما أن بعض الفروق الجنسية الخاصة فطريّة فذلك ما لا يستطاع إنكاره ، ولكن من الظاهر أنها أقل قوة مما يُظن ، وهى أصغر فى العقل منها فى الجسم . وفى القدرة الذهنية منها فى الانفعال والمزاج . وإذا نظرنا إليها من جهة العقل رأيناها أعظم ما تكون فى المستويات العقلية السفلى : فى الحركة والحواس البسيطة كاللمس ، وهى عظيمة نوعا فى العمل الآلى كالاستذكار المحض ، ولكنها تأخذ فى النقصان بالتدريج حيث نرتفع إلى الخطوات العليا من العقل . وحينما وجدنا فرقا عقلياً ، يبدو لنا أنه يرجع لا إلى فرق فطرى فى العقل ذاته ، ولكن إلى فرق فى التدريب والتقاليد ، أو فرق فى الجثمان ، كخصائص العضلات ، وأعضاء الحس ، ثم الغدد — وتلك أهم الجميع . لقد رأينا سابقاً أن غدد الإفراز الداخلى (ومن أمثلتها الغدد الجنسية والغدة الدرقية ، والغدد الأدرنالية « الكلوية » وما إليها) لها تأثير عميق على الغرائز والوجدانيات . فما يستطاع تصوره — إذن — احتمال أن تكون

(١) « رب ڤان ونكل » شخصية روائية فى قصة بهذا الاسم ألفها الكاتب الأمريكى « وشنجطن إرڤن » (١٧٨٣ — ١٨٥٩) .

الفروق الغُـدّيّة بين الجنسين سببا فى إحداث ميول جنسية فى المزاج الوجدانى، وهذا بدوره قد يغيّر حتى من طبيعة العمليات الذهنية الخالصة .

على أن هناك نقطة كثيراً ما يهمل اعتبارها ؛ ذلك أن الفروق التى ذكرتها إنما تبنى على متوسطات حسابية . فإذا درسنا الاشخاص الذين أخذت منهم هذه المتوسطات — كلا على حدة — وجدنا أن الفروق بين بين الأفراد من العظم بحيث تتضاءل بجانبها الفروق بين المتوسطات ؛ فالفرق بين رجل وآخر ، أو امرأة وامرأة ، أعظم من الفرق بين متوسط الرجال ومتوسط النساء . وعلى هذا فالجنس من حيث هو جنس إنما يتسبب عنه جزء صغير من الفوارق التى تلاحظ بين الناس .

من هذا ندرك أن العامل الأهم — الذى يجب اعتباره فى تقرير نوع التربية أو الوظيفة المناسبة لأى طفل — ليس هو جنس الطفل ، ولكنه السجايا والمواهب الخاصة فيه . وإن مستقبل تطور الحياة العقلية عند المرأة سوف يتأثر بالخصائص النفسانية الفطرية لجنسها إلى حدّ ما ، ولكنه سوف يتأثر أكثر وأكثر بالضرورات الاجتماعية وبالمثل الفردية .

الفصل الثاني عشر

سيكلوجية الشعوب

لقد بحثنا الفروق العقلية بين الجنسين ، ووجدنا أنها — من ناحية — تنبعث من فروق فطرية ، ولكنها فى الأغلب ترجع إلى النشأة والتقاليد . والآن فلنتجه إلى الخصائص العقلية للأنظمة الاجتماعية الأخرى ، فترى إلى أى حد هى فطرية أم مكتسبة .

هناك كثيرون ممن يعتقدون أن عمل العقل يختلف فى الأجناس المختلفة والطبقات المختلفة ، وأن التعاون الحقيقى — وطنياً كان أم دولياً — إنما هو أحلام نائم . ولقد سمعنا منذ أقل من عشرين سنة قائلا يقول : « إنك لا تستطيع أن تقضى على المثل الأعلى البروسى إلا إذا قضيت على البروسيين أنفسهم » . وسمعنا قول الشاعر .

« الشرق شرق والغرب غرب »
« ولن يلتقى الاثنان أبداً . »

فما هو المصير إذن ؟ لو اجتمع الفرنسيون والألمان ، والصينيون واليابان ، والإرلنديون والإنجليز ، والرأسماليون ونقابات العمال — وكلهم أناس ذوو أصول ومصالح متغايرة — وجلسوا جنباً إلى جنب فى مؤتمرات يبحثون فيها — بشكل جدى — الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تهدد العالم بالفوضى ، فهل هناك أية فرصة لنجاحهم ؟ إن المسألة فى أساسها نفسية ، ولكن جوهر البحث ينصب على الأسباب أكثر من الحقائق ؛ فما من

أحد يستطيع أن ينكر أن الشعوب والأجناس والطبقات الاجتماعية والاقتصادية تختلف فى وجهات النظر العقلية . ولكن المعضلة التى نحاول حلها هى : أمثل هذه الخلافات أساسية غير قابلة للتغيير ؟ وما الذى يبقيها قائمة ؟ وهل هى مثلا ناجمة عن مزاج موروث ولشىء كائن فى دم كل إنسان لا تستطيع الجهود البشرية أن تغيره ؟ وهل هى تابعة لنوع من الشعور الجمعى يوجد بالإضافة إلى الشعور الفردى لكل شخص على حدة ، ويقود ذلك الشعور الفردى ويحكمه بسلطة غير منظورة ؟ أم أنها لا تعود إلا لظروف انفصال عارضة ولحواجز تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية سمحت لكل جماعة فى الماضى أن تنمى لها وجهة نظر وتقاليد خاصة بها ، وأن مثل هذه الفروق لا بد مختفية سريعاً فى المستقبل بزيادة الأسفار والتبادل التجارى فى أنحاء العالم وبتأثير الإذاعة اللاسلكية التى تذرع الكرة الأرضية ؟

ها كم ثلاث نظريات فى تعليل هذه الفروق أدلى بها المفكرون فى أزمنة مختلفة فلننظر أيها حق :

(١) الشعور الجمعى :

لنبدأ بالرأى الذى يبدو أبعد عن المعقول فى نظر الرجل العادى ، ولكن تمسك به كثير من علماء النفس والفلاسفة فى أواخر القرن الماضى ، وهو رأى جميل جذاب يذهب إلى أن مجموعة من الناس قد يكون لها روح ووعى خاصان بها ؛ فنحن نتكلم أحياناً عن روح الجماعة وعن إرادة الشعب وعن قطر بأكمله يعمل كرجل واحد . هذه العبارات — فى نظر هذا الرأى — ليست مجرد مجازات حماسية ، ولكنها حقائق واقعية .

وأهم البراهين التى سيقت لتأييد هذه النظرية قائمة على موازنات مستمدة

من الحياة الحيوانية أو الفسيولوجية . انظر — مثلا — إلى الطوائف الاجتماعية التى نجدها بين الحيوانات الدنيا كالمرجان الوردى أو الأسفنج الأصفر ؛ فكل من هذه الكائنات التى تحيا فى البحر ليس حيوانا واحداً ولكنه مجموعة من الحيوانات ، ومع هذا فالمجموعة تتصرف كأنها مخلوق واحد . وقد ذهب « هربرت سپنسر » إلى أن الجماعة الإنسانية يصح أن ينظر إليها كأنها كائن معقد من هذا النوع ، إذ تسلك سلوكا موحداً مثل المرجان أو الاسفنج . وإذا صح هذا فلم لا نخطو خطوة أبعد ، فنقول إن ذلك الكائن يجب أن يكون له عقل واحد ؟ كذلك راقب سرباً من الطير يشق أجواز الفضاء أو جماعات من النحل تطن فى سيرها حتى تستقر على غصن قريب ، تجد كلا من هذين المجموعين يبدو منسجماً فى سلوكه متفقاً فى شعوره ، كأن فكرة واحدة تصرفه ، أو غرضاً واحداً يدفعه . وإذ كنا نتكلم عن مجموعة من الناس كأن لها جسما ونقول إن أعضاءها يتصرفون كرجل واحد فلم لا نعلل عملهم هذا بأن الجسم له روح ؟

يحدث أحيانا — وأنت تفلح حديقتك — أن تقع فأسك على دودة فتشطرها شطرين فيتلوى ذانك الشطران كأنهما مخلوقان منفصلان . ولقد اعتاد البستانى أن يخبرنى وأنا طفل صغير أن هذين الشطرين أحيانا يتصلان ويصبحان مرة أخرى دودة واحدة لا اثنتين ، وأنه قطع مرة عشر دودات ووصل ما بين أجزائها فبدت كأنها دودة واحدة طولها إثنتا عشرة بوصة .

فأنت إذن حين تشطر الدودة شطرين تقسم شعورها نصفين منفصلين وعلى ذلك فمن الممكن أن نتصور قياساً على هذا — على الأقل — أنه كما يصح شطر شعور واحد نصفين يمكن كذلك ضم شعورين وجعلهما واحداً . وإذا صح هذا فى اثنين فلم لا يصح فى مائة أو مليون ؟

ويفترض بعض الكتاب أن كل خلية فى المخ وكل كرة من كرات الدم إنما هى حيوان دقيق قائم بنفسه ، له شعوره الخاص به ، وأن الشعور العام للفرد كله — أنا أو أنت مثلا ، ينتج — كمعجزة — من تضام هذا الشعور المتناثر المستقر فى خلايا أجسامنا .

فقياساً على هذه الفكرة يقال إن شعور شعب ما هو نوع من الشعور الجمعى الذى يضم فى طياته شعور كل أفراد ذلك الشعب . وعلى هذا فالأربعون مليوناً من النفوس الذين يقطنون بريطانيا العظمى قد ينصهرون أو يتحدون معاً بطريقة خفية ليكونوا عقلا بريطانياً واحداً . والحق أنه لا حد لحجم المجموعة التى يمكن أن يكون لها شعور خاص بها . وسنرى عند ما نتحدث عن سيكلوجية الدين أن كثيرين افترضوا إمكان تصور الإله نوعا من الشعور العالمى مما قد يسميه القائلون بوحدة الوجود — من أمثال «شيلى» و «إمرسون» روحا أعلى يملأ كل نواحى الوجود .

فهل هناك — إذن — روح عليا خاصة بكل شعب وبكل طائفة اجتماعية ؟ هذه نظرية يتعذر نقضها . ولكن هناك صعوبتان ظاهرتان : أولهما أنه يجب — على مقتضى هذه النظرية — أن يكون لدينا عدد هائل من الأرواح ، فمدينتا « برمنجهام » و « ليدز » ، ومدرسة « هارو » وجامعة « أكسفورد » وفريقا الكرة فى « نيوكاسل » و « أرسنال » ، وكل نقابة عمال ، وكل لجنة وكل مجلس قروى وكل حشد فى الشارع ، كل واحد من هذه يجب أن يكون له شعوره الخاص به ، وما أعرضها من دعوى ! ثانيهما ، أننا — حين نفترض هذا الفرض — ننسى أن الجسم ، لكى يكون جسما حقيقياً ، يجب أن يكون وحدة مادية ، وأن تكون هناك

رابطة عصبية فعلية بين أجزاء مخه المختلفة ، حتى «التوءمان السياميان»(١) لهما عقلان لا عقل واحد . والخال البستانى الذى تحدثت عنه سابقاً قد ظن أن ديدانه العشر قد أصبحت واحدة لما عاشت معا فى سلسلة حية واحدة . ونحن فى العادة لا نزعم وجود شعور واحد إلا إذا كانت أعضاء الجسم متصلة اتصالا فسيولوجياً .

لست أدعى أن أى هذين الاعتراضين يهدم وجهة النظر التى ذكرناها ، ولكن النقطة الجوهرية فى الموضوع هى : ألا يمكن تعليل الحقائق وشرحها شرحا أكثر سهولة بدون هذه النظرية ؟

هناك شىء يستحق تحليلا أدق ، ذلك هو خصائص سلوك الجماهير الذى يوحى لأول وهلة بوجود شعور جمى أو إرادة جمعية . فمعظم هذه الخصائص إذا تدبرته وجدته منبعثاً من خطوتين نفسيتين لا شك فى وجودهما : إحداهما تعرف أحيانا باسم « المشاركة الوجدانية الفطرية » ، ويصح أن تعتبر لحد ما تقليداً وجدانياً لولا أن لفظة التقليد قد تعطى فكرة التشبه المتعمد بدلا من الاستجابة الفردية العمياء . والحقائق الأساسية فى هذا الصدد هى : أنه فى معظم الحيوانات الاجتماعية يكفى مجرد تعبير عضو واحد من القطيع عن غريزة ما لاستثارة تلك الغريزة فى سائر القطيع . خذ الطيور مثلا فالعادة أن تستثار فيها غريزة الهرب عند ظهور كائن غريب خطير ، ظهوراً مفاجئاً كقط يسترق الخطى أو صائد يحمل بندقة . ولكن هذه الغريزة نفسها قد تستثار فى الطيور التى لم تر العدو بمجرد رؤية الطيور الأخرى هاربة . وإذا صاح غراب ورفرف بجناحيه ، حذت بقية الغربان

---

(١) رجلان مشهوران من « سيام » ولدا مرتبطين برباط غضروفى وعاشا من ١٨٠١ — ١٨٧٤ . ويستعمل التعبير مجازا فى الشخصين اللذين لا يفترقان .

حذوه . وبنو الإنسان يخضعون لنفس الظاهرة . ابتسم للرضيع يبتسم لك وابك تره يبكي معك ؛ تثاءب أو اسعل تر جيرانك يتثاءبون ويسعلون . وإذا كان أمامك — لا فرد واحد — بل مجموعة من بضع مئات ، رأيت التعبير الوجداني يسرى جيئة وذهابا من كل وجه ، والتأثر ينتشر انتشار النار في البرية ويزداد قوة وشدة في سريانه .

وفي هذا بعض أسرار خطابة الجماهير وعدوى الجماعات ؛ فإذا ابتدأت طائفة من المشايعين والمأجورين تهتف وتصفق للخطيب ، رأيت باقي الحاضرين يصفقون ؛ وإذا ابتدأ أحد الناس يضحك شاهدت الباقين تنفرج شفاههم عن الابتسام دون أن يكونوا قد سمعوا النكتة أو فقهوها . ويظهر الممثل الهزلي على المسرح فيقص حكاية ليست بذات بال ، فتهتز لها جوانب المكان ، ويضحك لها النظارة ضحكا عالياً ، فإذا ما أخذت هذه الحكاية نفسها وقصصتها على صديق بمفرده ، وقعت على مسمعه عادية هادئة لا تَهُزُّ ولا تثير ! وزعيم الجماهير المحنك — كالممثل الخبير — يعرف كيف يستغل هذه الميول المُعْدية ، فتراه يبدأ بإثارة الانفعالات التي يشترك فيها كل سامعيه ، وما هي إلا لحظات حتى تشتد المشاركة الوجدانية ، فلا تلبث أن تجد مئات الرجال والنساء في القاعة قد أصبحوا شخصاً واحداً . والذعر وتدافع الجماهير يخضع لمثل هذه الظاهرة ، فإذا شبت نار في ملهى ما ، واندفع قليل من الجالسين في البهو نحو الخارج في جلبة وانزعاج ، سرى الرعب سريعاً في جمهور الطبقات العليا من المكان ، دون أن يكونوا قد رأوا بعدُ دخاناً أو لهيباً ، واندفعت الجموع إلى الأبواب يدوس بعضها بعضاً . كذلك الحروب والثورات وتخطف الأرواح والأسلاب تنبعث عادة من مثل هذه التأثرات حيث يهيج أعضاء الجماعة بعضهم شعور بعض . وهذا الميل

التقليدى يعمل عمله أيضاً — بطريقة أقل ظهوراً — فى تقويم لوازمنا الفردية ، فيجعلنا نتشابه فى الملبس وفى التفكير ، ونعتنق نفس الأفكار والمثل العليا ، حتى لنتوافق فى اللهجة والعبارات . وإذن فلسنا بحاجة فى تعليل سريان الشعور إلى زعم وجود روح واحدة تتملك الجماعة . بل يكفينا أن نفترض أن تعبير أحد أفرادها عن انفعال ما يثير فى الباقين هذا الانفعال .

فالمشاركة الوجدانية الفطرية تكفى إذن فى تعليل وحدة العمل فى المستويات العقلية الدنيا — لدى الحيوانات الاجتماعية وفى خليط غير منظم من الرعاع . فإذا ما صعدنا إلى مستوى أعلى وجدنا أثر عامل آخر ، هو الشعور الذى ينشأ فى كل عضو عن الجماعة التى ينتمى إليها . فالطيور لا تنظر إلى سربها من حيث إنه سرب ، والأفراد المزدحمون لا ينظرون إلى جمهرتهم من حيث هى جمهرة . ولكن الأفراد فى مدرسة أو فى جيش أو فى شعب ما ، لديهم فكرة واضحة عن المجموعة المنتظمة التى تضمهم — فذلك المجموع فى نظرهم له مثل عال أو غرض محدود ، وهم معنيون به ، ولهم به هوى وإعجاب ، وهم يحرصون على سعادته وبقائه ، يعطونه اسماً ويتحدثون عنه فيما بينهم ، وينمو عندهم حبه والولاء له . فحب المرء لوطنه قد يغلب حبه لنفسه ، حتى إن البطل ليضحى بحياته من أجل ذلك الوطن . هذه العاطفة أو الشعور بالعطف نحو الجماعة ، هى التى يبنى عليها ما يسميه الناس إرادة الجماعة . فعندما نتكلم — إذن — عن الجماعة تستخدم إرادتها إنما نعنى فى الحقيقة أن أفرادها يستخدمون إراداتهم المختلفة فى اتجاه واحد ولصالح المجموع . وهم إنما يستطيعون هذا لأن كل فرد يشعر بالهيئة التى ينتمى إليها ويعتبر أغراضها أغراضه هو نفسه . وعلى هذا فالتعبير بالشعور الوطنى أو الإرادة الوطنية لا يفهم منه أن الشعب فى مجموعه كائن شاعر له عقل

خاص أو روح خاص ، بل يتضمن أن لكل من أفراده شعوراً بالشعب الذى يكونونه .

هنا — إذن — اتجاهان يحدوان نحو غاية موحدة ، فهل هناك ظروف قابلة للتحديد يجب توفرها قبل أن يصل كل من هذين الاتجاهين إلى غرضه ؟ إن المبدأ الثانى يستلزم — على الأقل — المقدرة على تفهم الأفكار المجردة ، إذ أن فكرة الوطن ليست إلا تجريداً . وهو يستلزم أيضاً قدراً خاصاً من الاتحاد بضم المجموع كله ، لا يمكن بدونه أن ينظر إلى المجموع باعتباره كلا واحداً . هذه الوحدة — من ناحية — تنبعث من الغريزة الاجتماعية التى تجمع الأفراد وتبقيهم معاً ؛ ولكن تحققها فى شكل أوسع يجب أن يعتمد — لحد ما — على محاسن الصدف فى التاريخ والموقع الجغرافى . فالأمة مجموعة تحتل مساحة معينة من الأرض ، تتكلم لغة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة ، ولها ذكرى مشتركة من المحن والانتصارات ، وتمجد نفس العظماء من رجالها . إلا أن كل هذا يتوقف على شرط أعمق منه هو تجانس الأعضاء . فالحظيرة التى تضم حية ونمراً وفيلا وزنبوراً لا يمكنها أن تعمل متحدة كقطيع من الجاموس أو الذئاب ، ومع ذلك فلكل فرد من أفراد هذه الحظيرة شعور خاص به ، فلم لا تمتزج كل هذه الأنواع من الشعور ؟ ظاهر أنه ليس بينها مصالح مشتركة أو غرض موحد أو وسائط للاتصال . أما قطيع الذئاب فيمكنه أن يتحد ضد عدو مشترك . وكذلك الشرذمة من المتوحشين يمكنها أن تكون من أنفسها قبيلة . فواضح على هذا أن الشرط الأساسى لوحدة العمل ليس إمكان وجود الروح العام ، بل الصفات المشتركة المبنية على السلالة المشتركة .

* * *

٢ — وراثة الأجناس :

لنختبر — إذن — هذا التفسير الثانى الذى يرجع الطابع الوطنى فى الحقيقة — لا إلى شعور وطنى بالمعنى الحرفى — بل إلى وراثة وطنية ، أى إلى تركيب عقلى خاص يشترك فيه كل عضو من أعضاء الجنس .

فأولا — ما هو الدليل على أن هناك وراثة جنسية ؟ إنه ما من أحد ينكر أن الأجناس تختلف فى جثمانها وأن الفروق الجثمانية لا تنمحى ، لأنها فطرية . تمش قليلا فى شوارع أى مدينة كبيرة : ذلك الرجل الصغير الخفيف ذو العيون الحمصاء واضح أنه من اليابان ، وذلك الشاب المليح العنبرى اللون لا شك أنه طالب هندى . وهذا الزنجى ذو الصوت العميق وذلك الصينى ذو الوجه المستدير كالقمر وذلك اليهودى بلثغته الخفيفة ، كل أولئك تعرفهم أول ما تراهم . حادثهم واحداً بعد واحد تجد أنهم يختلفون فى طبعهم كما يختلفون فى جثمانهم ؛ فالزنجى السريع التأثر والصينى الصموت ، والتاجر اليهودى بحبه للنقود والموسيقى — كل أولئك يبدو كأنه يحمل فى عقله وجسمه على السواء طابع الجنس الذى انحدر منه .

لنقصر أنفسنا لحظة على أوروبا لنرى إلى أى حد يمكن أن نرجع الخواص السيكلوجية لكل شعب إلى فرق فى التركيب الجنسى . هنالك أنواع عدة من الشواهد تبعث فى مجموعها على القول بأن سكان أوروبا اليوم ينسلون من ثلاثة أجناس متميزة ، وهذه — من غير شك — تنقسم فروعاً وتتشابك أنواعاً لا عدد لها . وقد قامت الأدلة حديثاً على أن الثقافة لا تتطابق دائماً والتفرع الجنسى مطابقة تامة كما كان يظن فى الماضى . ولكن لنأخذ تفسيراً بسيطا من تفسيرات هذه النظرية الثلاثية ، ونسائل أنفسنا إلى أى حد يمكن أن نستعين بها .

ا — إذا صرفنا النظر عن الأفراد القلائل الذين يُزعم أنهم من أعقاب إنسان العصر الحجرى الأول ، نجد أن أول وأقدم جنس أوروبى موجود يظهر أنه كان يتألف من أقوام قصار القامة سمر البشرة ، ذوى رءوس طويلة ضيقة ووجوه بيضاوية مستطيلة ، يلغ من سمرة لون شعرهم وعيونهم وبشرتهم أن سموا أحياناً « الجنس الأسمر » . مثل هذه الأنواع توجد الآن بكثرة فى جنوبى إيطاليا وأسبانيا . ومن ثم كثيراً ما أطلق عليهم اسم « جنس البحر الأبيض المتوسط » ، وربما كان أبسط من هذا تسميتهم بالجنس الأوروبى الجنوبى . وأفراد هذا الجنس يشبه تركيبهم الجثمانى فى كثير من الوجوه تركيب أفراد العصر الحجرى الجديد ، الذين خلفوا وراءهم عددهم الحجرية المصقولة وهيا كلهم القصيرة وجماجمهم الطويلة المدفونة فى نجاد أو مصاطب طويلة . ولقد كانت التواريخ الإنجليزية القديمة تسمى أهل هـذا الجنس « ايبيريين » ويظهر أن سلالتهم تكون اليوم العنصر الرئيسى من سكان انجلترا الذين يتكلمون اللغة « السكلتية » ، وهم فى بريطانيا موجودون على الخصوص فى الغرب فى مقاطعات « كورنول » و « ويلز » . وفى الجهات النائية من إيرلندة واسكتلندة . والمظنون أن أسلافهم هنا وفى مقاطعة « بريتانى » قد تركوا تماثيل ضخمة من الحجر غير المسوى — تلك الكتل والدوائر الحجرية الغريبة التى ترى فى « ستون هنج » .

ب — خلف من بعـد هؤلاء السكان الأولين جنس ثان ليسوا فى درجة هؤلاء من القصر أو السمرة ، يمتـازون على الخصوص برءوسهم العريضة المستديرة ووجوههم العريضة المربعة ، وأجسامهم البدينة وميلهم الظاهر إلى السِّمن . وهناك بعض قرائن تدل على أن قبائل رحالة من هذا النوع كانت تتجول بجوال إبراهيم بقومه فى طلب الخصب والمرعى ، جلبت

معها العلم بالغلال والحيوانات المستأنسة واستعمال البرونز إلى غربي أوروبا . وقد تكون هذه القبائل نزحت من آسيا المغولية مدفوعة بالقحط وقلة الماء ؛ وفى الحق إن وجوههم العريضة لتذكرك لأول نظرة ببعض الأجناس المغولية . وقد استقر هؤلاء فى مواطنهم الجديدة يفلحون الأرض ، وهم يتمثلون فى صورة « جون بول » الفلاح الخشن . وإن الصور التى ترسمها الصحف الهزلية للرجل البروسى أو الروسى ذى الرأس الكروى أو الجمجمة القائمة على استقامة العنق لتمثل الملامح المميزة لهذا النوع ، مبالغاً فيها إلى حد « الكاريكاتور » . أما ممثلوهم اليوم فإنك واجدهم حول الألب — فى ألمانيا وعلى الخصوص نحو الجنوب ، وفى أواسط فرنسا ، وفى الجزء الأكبر من روسيا الأوروبية . وربما كان الحيثيون القدماء واليهود المحدثون بعض فروع هذه الشجرة . ويظهر أن بعض هؤلاء الغزاة شقوا طريقهم إلى هذه الجزر (البريطانية) وجلبوا معهم اللهجة « الغالية » الأولى من اللغة الكلتية وعلموها السكان الأولين ، ثم بادوا هم أنفسهم . وإنك لتجد جماجمهم المستديرة مدفونة فى مصاطب مستديرة وغالباً ما تجد معها سيفاً من البرونز فى شكل ورقة الشجر وبجانبها كأس شراب تحتوى زاداً للأرواح فى رحلتها إلى العالم الأخير . وهكذا تستطيع على الرغم مما بين عوائد الأجناس المختلفة من تداخل وتشابك أن تقول — بصفة عامة — إن هؤلاء الأقوام ذوى الرؤوس المستديرة هم رجال العصر البرونزى ، وهم يعرفون بأسماء مختلفة كالألبيين والكلت والسلافيين . ولكن يظهر أن أفراد هذه الأجناس الثلاثة الرئيسية قد تكلموا يوماً ما نوعاً من اللغة الكلتية ولذا ربما كانت أحسن تسمية لهم « أجناس أوروبا الوسطى » .

وأخيراً جاء — فى موجات متعاقبة من الغزو — أقوام طوال ، صهب

الشعر ، زرق العيون ، . ذو رؤوس طويلة ضيقة ووجوه ضيقة كذلك ، ويقال إنهم كانوا أول قوم استأنسوا الخيول ، وقد خلفوا بركوبهم إياها ذعراً وارتجافاً فى قلوب القبائل الأصلية ، تمثلا فى أقصوصة « السنطور » ذلك المخلوق الخرافى المتوحش الذى له من الإنسان رأسه وجزعه ، ومن الفرس جسمه وقوائمه . ولقد انحدر هؤلاء الأقوام فى أسراب من برارى روسيا الجنوبية ، وغزوا بلاد اليونان ، واستوطنوا — فى أزمنة تاريخية متطاولة — سهول أوروبا الشمالية والأقاليم الشاطئية المحيطة بالبلطيق . وهم يشبهون شعوب البحر الأبيض فى أن لهم رؤوساً ضيقة ، ولكنهم يختلفون عنهم فى أنهم شقر الألوان لا سمرها . لهذا يزعم بعض الباحثين أن شعبة من جنس البحر الأبيض ساحت فى الأرض شمالا ، فأصبحت شقراء بعد أن كانت سمراء ، كما يتحول الدب الأسمر فيصير أبيض فى الجهات القطبية . ويقال إن من بين هؤلاء الصهب الشعور رؤساء قادوا المهاجرين الكلتيين — كما يسمون — إلى الجزائر البريطانيـة ، وجلبوا معهم اللغة السمرية (Cymric) أو الكلتية المتأخرة وبعضاً من المعارف عن استعمال الحديد . ونستطيع أن نقول على الإجمال إنهم هم أهل العصر الحديدى الأول . ولقـد ذكرهم « يوليوس قيصر » ووصفهم بأنهم مردة غلاظ صهب الشعر . وسماهم الكتاب المتأخرون (بريطون) ، وهو اسم لا يزال البريطانيون يحتفظون به فى فخر وإعجاب . ومن نسل هذا الجنس الحربى الطويل القامة السكسون ، والدنماركيون ، والاسكندناويون ، والفرنك واللومبارديون ، والنرمان ، والقوط الشرقيون والغربيون . وقد اكتسح هؤلاء كل أوروبا وألجأوا الأجناس القـديمة إلى الاعتصام بالمرتفعات السحيقه وأشباه الجزر المنعزلة . أما أنقى ممثليهم فى العصر الحاضر فإنك

نجدهم فى بلاد السويد والنرويج ؛ فلو أنك وضعت سويديا بجانب أسبانى لتجلى لك التباين فى الحال : فالاثنان يتفقان فى طول الرأس والوجه ، ولكن السويدى طويل أشقر والأسبانى قصير أسمر . أما فى إنجلترا فإنك لا تزال تجد رجالا من النوع الطويل الأشقر الشعر فى الشرق والجنوب . على أنه يظهر أن أقواماً يشبهون هؤلاء جسما قد هاجروا بطريق الماء إلى مقاطعة (كمبرلاند) فى أيام « الفيكنجز »(١) واستوطنوا هناك التلال وجوانب البحيرات . كل أولئك شعب من الجنس النوردى أو التيوتونى . وإذن فربما كان أبسط اسم لهم هو « أجناس شمال أوروبا » .

هذه — إذن — صورة تقريبية مبسطة للأجناس الرئيسية الثلاثة التى استوطنت القارة الأوروبية : جنس شمال أوربا ، وجنس الجنوب ، وجنس الوسط . ويظهر أننا فى هذه الجزائر (البريطانية) منحدرون فى الأغلب من الجنسين الأولين . أما « جون بول » وذوو الرؤوس المستديرة فيظهر أنهم قد انقرضوا تقريباً . ونحن فى الأغلب قوم ذوو رؤوس طويلة وذوو وجوه طويلة كذلك ، أقرب إلى الطول والشقرة فى الجنوب والشرق ، وإلى القصر والسمرة فى الغرب والشمال ، ولقد شهدت القرون الحديثة كثيراً من التنقل والارتحال ، حتى إن الإنسان ليتوقع أن يؤدى تزاوج الأجناس المختلفة إلى الامتزاج التام بين العناصر الأولى ، مما يترتب عليه زوال الفروق الجنسية ، إلا فى الجهات النائية غير المطروقة . غير أن هناك قرائن تدل على أنه — حتى عند تزاوج جنسين أشقر وأسمر — تميل الخصائص المميزة إلى أن تنفصل أحياناً طبقا للقوانين « المندلية » فى الوراثة : ففى أول

(١) الفيكنجز : قبائل الشمال الذين انحدروا من اسكندناوة فى القرون الميلادية الثامن والتاسع والعاشر ، واتخذوا الإغارة على شواطئ أوربا الغربية ديدناً لهم .

جيل تتغلب فى العادة صفات الشعر الأسود ، وهى الصفات الآخذة الآن فى الازدياد فى المدن (وربما كان لذلك أسباب أخرى) ؛ أما فى الأجيال التالية ، فقد وجد أن النوعين يتميزان تماما . فليس من الضرورى — إذن — أن يترتب على الزواج اندماج النوعين وامتزاجهما فى الأحفاد والأعقاب .

غير أن السؤال الذى يعنينا فى مقامنا هذا هو : هل تجلب هذه الفروق الجسمية معها فروقا عقلية بينة ؟ إن صح هذا أمكن — إلى حد كبير — تعليل التفاوت بين شعب وآخر . فلننظر أولا إلى الفروق العقلية . لقد طبقت اختبارات الذكاء على مجموعات ممثلة لكل جنس من الأجناس الأوروبية تقريباً ، وهذه الاختبارات يقصد منها أن تقيس الخصائص الفطرية أو الوراثية . غير أن اختلاف اللغات يجعل الموازنة بين النتائج عسرة (إلا فى الأحوال التى استعملت فيها اختبارات عملية غير لفظية) . وقد يختلف علماء النفس فى طرائقهم ، فهذا يستعمل طريقة وذاك أخرى ، ولكن يظهر أن البحوث — على وجه الإجمال — متفقة فى النتائج : فاختبارات الجيش الأمريكى مثلا تدل على أن المجندين الإنجليز أحسن من ناحية الذكاء (وتلك تزكية نزهى بها من غير شك !) ، ويتلوهم الاسكتلنديون فالهولنديون فالألمان فالدنماركيون فالاسكندناويون على هذا الترتيب ؛ ويجىء فى أسفل القائمة البولنديون والإيطاليون واليونانيون والروسيون والبلجيكيون والإرلنديون . فإذا اعتبرنا طوائف المجندين المختلفين نماذج ممثلة تمثيلا عادلا لأوطانهم الأصلية ، كان لنا أن نستنتج أن الأجناس الطويلة الصهباء الشعر هى الأذكى ، وأن الأجناس القصيرة السمراء الشعر أقل ذكاء . ولكن هذه التعميمات التى تشغف بها بعض

الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ بها على علاتها . حقيقة إن ذكاء الزنجى المتوسط فى الاختبارات التى طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ، ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبتى باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم ، — ونتائج بعض الباحثين فى الولايات المتحدة تؤيد هذا — فهل نقول فى تعليل ذلك إن قروناً من الاضطهاد قد اقتضت ألا يبقى من هذا الشعب إلا أذكاه وأنجبه ؟

على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ؛ فما لاحظناه قبلُ بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفروق الواسعة فى الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر . فإذا أردنا فروقاً بينة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها فى الطبع أو المزاج ،

وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكننا نعتمد على الملاحظة وما نكوّنه من فكرة عامة ، وهما دليلان غير مأمونين . وعلى هذا فلنرجع إلى ثلاثة الأجناس الأوروبية العظيمة . إن السائح الإنجليزى لتبدو له هذه الفروق المزاجية واضحة رائعة : فأولئك الأجناس الجنوبيون ذوو الشعر الأسود قوم سريعو التأثر محبون للاجتماع كثيرو الكلام قليلو التريث مندفعون يفيضون حركة وحسن بديهة . وهم — بدورهم — إذا وصلوا إلى انجلترا قالوا له يخيل إليهم أنهم أتوا إلى شعب من التماثيل الشمعية . فالشمالى ذو الشعر الأصهب يبدو لهم مخلوقاً أبكم بلغمى المزاج مستقلاً متحفظاً . والمادح الراضى — بالطبع — يصفنا بأننا رجال عمل أقوياء صامتون إلى حد ما ، فإذا

ما استثيرت نفوسنا صدرت عنا أعمال قوية عظيمة . وإذا عبرنا عن هذه التفرقة في لغة علماء النفس الحديثين قلنا إن الجنوبى منبسط (Extravert) والشمالى منطو أو منقبض (Introvert)[١] : فالأول يظهر ما بباطنه ، ميال للتفتح ، سريع الاستجابة للعالم الخارجى ؛ والثانى يكبت انفعالاته ويبدو مشغولا بنفسه ، مركزاً تفكيره فيها .

ويبدو لك هذا الفرق واضحا فى الآداب والفنون : انظر — مثلا — إلى التباين الظاهر بين معبد إغريقى أو رومانى وبين الكاتدرائيات القوطية فى منشستر وشارتر ؛ وبين شعر « سوفكليس » أو « دانتى » أو « راسين » وشعر « شاكسبير » أو « جوته » أو « بيرن » . ثم ما أبعد الفرق بين موسيقى « جونو » أو « جلوك » وألحان « بيتهوفن » أو « فاجنر » ! وما أكبر اختلاف صور « روفائيل » و « بيروجينو » و « بوسان » و « إنجرس » من صور «رمبرانت» أو «دورر» أو «ترنر» أو« بليك » ! وفنون الرسم والبناء والشعر والموسيقى تميل — فى كلتا إيطاليا وفرنسا — نحو النوع الكلاسيكى ، أما فى ألمانيا وانجلترا فتغلب على هذه الفنون الناحية الرومانسية . ففنون المجموعة الأولى شكلية عقلية ذات تقاليد ، تعبر عن نفسها فى وضوح واتزان وهدوء ؛ أما الثانية فجامحة غير متزنة ، تقوم على

---

(١) هذان الاصطلاحان (Introvert و Extravert) من وضع العالم السيكولوجى «يونج» الذى يقوم مذهبه على تقسيم الأشخاص إلى صنفين سيكولوجيين : أحدهما منبسط أو متجه بفكره واهتمامه إلى الخارج ، والثانى منقبض أو منطو على نفسه ، ينبع تفكيره من الداخل ويتجه اهتمامه إلى الباطن . وقد توسع « يونج » فى تفصيل هذين الصنفين حتى أصبحا ثمانية أصناف تمثل سلسلة متفاوتة الدرجات فى الانبساط والانطواء . ويمكنك أن تجد أمثلة هذه النماذج بين الشعراء والعلماء والفلاسفة وغيرهم من طوائف الناس .

التأمل الباطنى ، وتتدفق فى ثورة ومبالغة . وفن الأولى فن عام ، فن قوم يعبرون عن شعورهم لغيرهم فى طلاقة وصراحة ؛ أما فن الثانية فخاص فردى متصوف متمرد أحياناً فى غير نظام على القيود الاجتماعيـة . وفن إيطاليا صاف مشمس كمناخها ؛ ولـكن فن الشمال مثل جو الشمال معتم متقلب . والواقع أن الـكثيرين يعتقدون أن جو الممالك المختلفة ومناخها مسئول عن أمزجتها وطباعها .

أما الأجناس ذات الرؤوس المستديرة فى أواسط أوروبا فلها شأن خاص ولقد قيل — وبعض القول موضع للمناقشة — إن ميل هؤلاء الأقوام ليس إلى الفن والأدب قدر ما هو إلى التنظيم والعلم . وربما كانوا فى خلقهم وسطا بين الجنسين الآخرين : فبينما أجنـاس الشمال ذوو الرؤوس الطويلة والوجوه الشقراء مخاطرون محبون للتمكين لنفوسهم جوالون مستعمرون من من الطراز الأول ، إذا أصحاب الرؤوس المستديرة أقوام ثقال محبون للاستقرار صبر مقتصدون ، مهرة فى التنظيم يهتمون بالنقود وما يمكن أن يشترى بها ، وهم إلى التقليد والخضوع أميل منهم إلى الابتكار والحرية .

ويمكن لمن يحبون الضوابط الموجزة أن يلخصوا هذه الفروق المزعومة بأن يقولوا : إن رجل شمال أوروبا مخلوق عملى ، ورجل الوسـط مخلوق نظرى ، ورجل الجنوب مخلوق وجدانى ؛ الأول يتجه إلى العمل ، والثانى إلى الحقيقة ، والثالث إلى الجمال ؛ والصنف الأول يؤلف شعباً من أرباب المتاجر ، والثانى من الفلاسفة ، والثالث من الفنانين .

ولـكن العالم المدقق لا يكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد . نحن لا نشك فى أن هناك فروقا عامة ، ولـكن من

غير الراجح أن تتطابق هذه الفروق وتلك الأقسام تمام التطابق . فالآراء التى لخصتها هنا ليست إلا آراء فرضية لا يصح أن تؤخذ على أنها حقيقة ، ولكنى أعرضها أمثلة لنظريات نادى بها علماء النفس فى وقت ما . فلا تستنتجوا مما ذكرت أن شعباً من الشعوب يتصف كل أفراده بهذه أو تلك من السجايا والصفات ، أو أنه يمكنكم أن تحدسوا حدساً صائباً عن المزاج الموروث عند الرجل من مجرد الملاحظة لشكل رأسه أو لون شعره .

مثل هذه الآراء التى ذكرتها كانت رائجة كثيراً قبل الحرب العظمى الأولى : ففى فرنسا مسيو « جوبينو » وأتباعه وفى ألمانيا « مستر هوستون تشمبرلين » وآخرون كانوا يقولون إن الفروق فى وجهات النظر القومية ، وما يترتب على ذلك من نجاح دولة أو فشلها ، يمكن أن يتنبأ به من النظر فى تركيب أجناسها القاطنين بها . والمدنية — فى زعمهم — تدين بكل شىء للآريين ، وبلا شىء لليهود ؛ فكل ما هنالك يرجع إلى شعوب « جافا » البيضاء وإلى الشعوب الهندو — أوربية فى الشرق والغرب ؛ ولاشىء مطلقاً يرجع الفضل فيه إلى الأجناس الحامية السوداء فى الجنوب ، والقليل — أو ما يشبه العدم — يرجع إلى الأجناس الصفراء فى الصين واليابان ، وأقل من لا شىء يرجع إلى الأجناس السامية فى فلسطين وبابل ومصر[1] . ومن

---

(٤) هذه المصطلحات القديمة فى أسماء الأجناس لا تجلب إلا الفوضى والاختلاط فى محاولة تقدير الإنتاج الاجتماعى ، ذلك لأنها مبنية على اللغة أكثر من بنائها على الجنس ، فاليهودى الحديث — مثلا — أميل فى خصائصه إلى الشبه بالحثيين منه إلى الساميين ويبدو أقرب إلى شعوب الألب . والحاميون ليسوا جنسا أسود — ولو أنهم كثيراً ما يختلطون بالزنوج ، وهم فى الحقيقة أقرب إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط . وذهب بعض الباحثين حديثاً إلى أن المدينة السومرية (ميزوبوتاميا) كانت سامية حامية ، وأنها كانت أسبق من كل ثقافة آرية مزعومة ، حتى فى الهند .

المعلوم أن الألمان — من بين الشعوب الآرية — قد برهنوا لأنفسهم برهانا يرضونه على أن « التيوتونى » أنبل الناس جميعاً ، وأن النجاح ميراثه ، وأن قومه هم الشعب المختار ، وأنه خلق لينتصر ويُخضع اللاتينى الهزيل الخنث فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا . ولعلكم تذكرون كيف يسخر المستر « هلير بلوك » من هذه العقيدة فى قوله :

« أى بنى ! راقب رجل الشمال ،
وكن مثله قدر المستطاع .
إن ساقيه لطويلتان وإن عقله لبطىء ،
وإن شعره لخفيف مصنوع من الشمع .
وهناك يوجد جنس الألب ،
آه ، ما أعرض وجهه وما أقساه !
ولكن أحط هؤلاء جميعاً
يسمى جنس البحر الأبيض المتوسط »

والحق أن الفكر الإنجليزى كان دائماً فى شك من أمر الخصائص الجنسية الفطرية . فنحن فى هذه البلاد قد ملنا نحو الرأى المعارض ، واعتقدنا فى قوة التنشئة والتقليد أكثر من الوراثة والجنس .

(٣) التقاليد الاجتماعية :

والآن وصلنا إلى الأخير من الشروح الثلاثة التى ذكرتها فى مستهل كلامى : ذلك أن العلة الأساسية فى الفروق بين الشعوب إنما هى العادات والتقاليد التى تتوارث من الماضى على ممر العصور فتتشكل جيلا بعد جيل ، بوساطة المنزل والمدرسة والأدب القومى وكل العوامل الدقيقة فى الحياة

اليومية . ولقد صرح « لوك » عالم النفس البريطانى القديم — مثلا — أن كل طفل يولد مرنا كقطعة من الصلصال اللين ، قابلا لأن يتشكل بالتربية والبيئة المحيطة به ، وليس له طابع محدود خاص به . وقد جاء «مل» والكتاب الأولون الذين توسعوا فى هذا المذهب فأرجعوا كل الفروق العقلية إلى أثر البيئة الاجتماعية . وأرجعها « بكل » فى كتابه العظيم (تاريخ الحضارة) إلى البيئة الطبيعية : فالاسكتلنديون أشداء نشيطون لأنهم يعيشون فى الجبال ، والزنوج كسالى مبذرون لأنهم يسكنون المناطق الحارة الوفيرة الخيرات . وقد لاحظ المؤرخون مرة بعد أخرى أن آراء هؤلاء الفلاسفة البريطانيين — التى اعتنقت فى صراحة قليلة أو كثيرة — قد لعبت دوراً كبيراً فى تقرير السياسة البريطانية نحو الأمم غير المستقلة لا سيما الهند وشعوب الشرق .

والآن أظن أن النقطة التى نستطيع التسليم بها هى أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها ، بمستطيعة تعليل التفاوت البيّن بين المدنيات المتعاقبة . فيكفى أن نتذكر كيف غلبت اللغة والعوائد الرومانية على نصف ممالك أوروبا لنرى كيف تنتشر خصائص الشعب الواحد وراء الجنس أو البقعة التى أنبتتها . وإلا فهل يصح — لمجرد أننا نستعمل فى انجلترا كلمات لاتينية ونخضع لقانون رومانى — أن نستنتج أننا منحدرون من الكتائب المغيرة التى جلبها هنا « يوليوس قيصر » ؟ لا ضرورة لمثل هذه الفروض الجامحة . فهناك عمليات أبسط تلعب دورها ، والناس يشبه بعضهم بعضاً ، لا لأنهم تحدّروا من أصول واحدة فحسب ، ولا لأنهم اشتركوا فى وطن أو مناخ واحد ، بل لأنهم أيضاً قلد بعضهم بعضاً ، أو اقتدوا بمثل عال مشترك .

غير أن « التقليد » كلمة تشتمل ميولا مختلفة كثيرة ، فهى فى أبسط مظاهرها كما رأينا تعتمد على نوع واحد من المشاركة الوجدانية الأولية التى يمكن اعتبارها — إلى حدّ ما — غرزية . فلنستعملها هنا ، طلبا للاختصار ، فى كل تلك العمليات التى تنطوى على محاكاة فرد أفكار فرد آخر أو مشاعره أو أعماله . والتقليد بهذا المعنى شرط أساسى لكل حياة عقلية جمعية ، فالفرق الرئيسى بين الإنسان والحيوانات العليا هو أن مقدرته على التعلم أعظم كثيراً من مقدرتها ، وأنه بهذا الاستعداد يستطيع أن يتعلم ، لا من تجربته هو فحسب بل من تجارب الآخرين أيضاً . وهو يفعل هذا من طريق القبول اللاشعورى لنموذج ما ، أكثر من القبول الشعورى لبرهان ما . وهكذا — شيئاً فشيئاً — عن طريق تشرب التقاليد المحيطة ، يكوّن سكان المساحة الواحدة المحدودة جماعة متجانسة ، ويتقدمون معاً فى المعرفة والاختراع ، ويتعودون عادات متجانسة من الأعمال .

وتتضح لنا جيداً أهمية مثل هذه الخطوات إذا تصورنا مايحدث لوجرى تبادل عام بين السكان ؛ افرض — مثلا — أنه على إثر حرب عالمية جديدة نقل كل أطفال انجلترا إلى ألمانيا حيث يدرجون بين الأنظمة الألمانية يتكلمون اللغة الألمانية ، ويقرءون الكتب الألمانية ويحاطون بالمؤثرات الألمانية من كل جانب ؛ وهب كل طفل ألمانى أرسل منذ ولادته إلى بلادنا هذه (انجلترا) لينشأ على ثقافة انجليزية خالصة ! يخيل إلىّ فى هذه الحالة أنه — رغم الفرق الجديد فى المزاج الجنسى الفطرى — لن يكون هناك تغيير مفاجىء يمكن أن يلاحظ فى العادات أو وجهة النظر العقلية ؛ فالأطفال الألمان يقلدون آباءهم الجدد من الإنجليز ؛ وخصائصهم القومية الموروثة لا تبدو إلا فى مظاهر بسيطة تافهة ، وكل تغيير يجدّ على البلاد نتيجة لهذا يكون بطيئاً

تدريجياً لا سريعاً أو انقلابياً . فوزن التقاليد يرجح فى المبدأ تأثير الدم أو التكوين العقلى الجديد ، ولا يكشف الثانى عن آثاره الصغيرة المتجمعة إلا خلال قرن أو قرنين .

إن الحيوانات لم تتطور إلى طوائف مختلفة اختلافا بيّنا إلا عن طريق تغيير طبيعتها الموروثة ، وهذه طريقة من طرق التقدم بطيئة جداً . أما الإنسان فقد كان تقدمه سريع وفى اتجاهات مختلفة : كان ذلك عن طريق التغيير والزيادة فى مجموعة المعتقدات والأفكار والعادات التى توارثها بالتقليد جيل بعد جيل . وعلى هذا فالفروق الموجودة بين الممالك الآن تعتمد فى أساسها على هذه العناصر التى ترجع إلى التقاليد ، فإذا أخذ شعب ما مدنية جزء آخر من أقاصى العالم — كما أخذ اليابانيون مثلا ثقافة الغرب وأمريكا — استطاع ، ولو فى الظاهر أن يغير خصائصه تغييراً كلياً .

غير أن هناك حدوداً لمثل هذه التغييرات ، وهذا هو الموضع الذى يبدو فيه الأثر الدقيق لمزاج الشعب الموروث . وإنك لتستطيع أن ترى هذا واضحاً كل الوضوح فى الأنظمة السياسية والدينية : ففرنسا — مثلا — قد أصبحت جمهورية ، ولكن الفرنسيين لم يظهروا تحت ذلك النظام الجمهورى إلا قليلا من الابتكار وإبراز الذات اللذين تراهما ظاهرين ظهوراً قويا فى جمهورية الولايات المتحدة ؛ وعند ما رفعت فرنسا عن كاهلها نير الملكية لم تتخلص من نظامها المركزى فى الحكومة ، ذلك النظام الذى بلغ حد الكمال فى عهد لويس الرابع عشر ونابليون . أو خذ مثلا من الدين يغرم علماء النفس بإيراده : ذلك أن الديانة البوذية أصبحت فى حكم المنقرضة فى مسقط رأسها — وهو الجهات الواقعة على جوانب نهر (الجنج) — وحلت محلها بالتدريج الديانة الإسلامية ، التى تقدمت من الشمال الغربى حتى البنغال ،

والتي يخبرنا كبير من علماء الإنسان أنها أكثر تمشياً مع طباع الهندوس ومع اعتقادهم فى القضاء والقدر . أو انظر — مثلا — إلى الفرعين العظيمين اللذين انقسمت إليهما المسيحية فى غرب أوروبا : البروتستانتية المستقلة استقلالا حياً متحفزاً ، والكاثوليكية الرومانية وما يصاحبها من طاعة للسلطان وحب للالوان والموسيقى ، وانظر كيف يجرى هذا الانقسام طبقاً لتوزيع الأجناس الأوروبية وانقسامها إلى شماليين وجنوبيين .

نحن — إذن — مضطرون للاعتراف بنصيب من الحقيقة لكل من النظريات الثلاث التى ناقشناها : فالوراثة الجنسية والتقاليد العامة والوعى الاجتماعى الذاتى كل أولئك يلعب دوره فى إعطاء الشعب أهم مقوماته .

ويمكننا الآن أن نلخص مجرى التطور القومى فيما يلى : لاشك أن فروقاً عقلية توجد بين شعب وآخر ، والموروث من هذه الفروق غالباً دائم غير متغير وهى فروق صغيرة نسبياً ، إلا أنها على صغرها لا بد أن تكون قد لعبت دورها فى تقرير الاتجاهات العامة المتباينة التى سارت فيها الثقافة والعادات . ثم — عندما أخذت الهجرة والسفر والتبادل الدولى تجلب معها أذواقا وأفكاراً جديدة من البلدان الأخرى — ابتدأ نوع من الانتخاب الطبيعى يعمل عمله فتشرب كل شعب ما وافق مزاجه الخاص ، ورفض أو عدّل ما لم يلائمه .

إن العرف والأنظمة والعادات التى يتخذها قوم ما — لأنها تنبعث من طبعهم الأساسى أو تلائمه — تأخذ هى بدورها فى التأثير على ذلك الطبع وتقويته وتدعيمه عن طريق التقاليد المتجمعة . وأخيراً عند ما يشعر الشعب بوجوده يبدأ فى تحديد أغراضه الخاصة به والتحدث عنها . وبهذا المعنى يصبح العقل القومى واعياً وشاعراً بنفسه معاً . إلا أن هذا الشعور

ليس له محل إلا فى الأفراد الذين يكونونه ، فليس يلزم عليه أن تكون هناك شخصية جمعيــة أو روح وطنية ، ولــكنه كــكل أنواع الجهد الشعورى يقود إلى أسرع طرق الرقى والتقدم .

وإذا صحت هذه النتيجة ترتبت عليها بعض آثار عملية : فمن الواضح أن ذكاء الأجناس ومزاجها قد يفرضان على كل مجموع أنسانى بعض القيود الصغيرة ؛ ولــكن ليس هناك من سبب يمنع الثقافة والعادات من أن تُغَيَّر أو يعاد تنظيمها داخل دائرة هذه الحدود المفروضة . فــكما أننا فى هذه الجزر البريطانية مزجنا اثنتين — إن لم يكن ثلاثاً — من الفصائل الإنسانية المختلفة وكوّنا منها شعباً واحداً ، فــكذلك فى أوروبا بل فى الــكرة الأرضية كلها قد نستطيع أن نجمع كل السكان فى نظام متحد ونعطى ذلك النظـام طابعاً أو صفة خاصة به . وهكذا نصل فى النهاية — لا إلى شعور قومى فحسب ، ولا إلى مثل عال خاص بكل وطن على انفراد — ولــكن إلى شعور عالمى وإلى مثل عال ينتظم الجنس الإنسانى كله .

الفصل الثالث عشر

سيكلوجية السياسة

لقد استعرضنا تطور الشعوب فى الماضى ، فما الذى ينتظر لتقدمها فى المستقبل ؟ سأبدأ هنا بسؤال شخصى أصل منه إلى بيان العوامل السيكلوجية فى هذا الموضوع ، وهو : كيف أعطيت صوتك فى الانتخاب الماضى ؟ وما الذى جعلك تنزع هذا المنزع فى التصويت ؟ ستقول إنك — من مطالعتك فى الصحف ومن اتصالك برفاقك فى النادى أو الاتحاد — قد درست المسائل التى يدور عليها الانتخاب ، وأحطت بها علماً ، وأنك بعد تفكير طويل قد قررت أن الحقائق كلها تشير إلى حل واحد ظاهر ، هو ما عرضه المرشح الذى أحرز صوتك . فبواعثك كانت منطقية محضاً ، وتفكيرك علميا بمعنى الكلمة !

وبعد فما شأن الذين صوتوا للجهة المعارضة ؟ لا شك أنهم يدّعون ما تدعيه من إحاطة بالموضوع وإعمال للعقل ليس دون إعمالك أنت لعقلك . ولكن حججهم بالطبع لم تتولد إلا مؤخراً . فقد كان فى مقدورك ومقدورى أن نتنبأ من قبل بالكيفية التى سيصوتون بها : لأن « براون »[1] و« روبنسون » بكل بساطة متحيزان بمزاجيهما ، فالأول مثالى رقيق القلب ، والثانى ثورى

---

(١) « براون » و « روبنسون » وما بعدهما أسماء شائعة بين الانجليز أراد المؤلف بها هنا مطلق الأشخاص دون تعيين كما نستعمل نحن زيداً وعمراً وأشباههما .

قاسى القلب ، والميل الوجدانى لكل منهما يصبغ تفكيره السياسى . و « سمث » يصوت كشأنه بمحض العادة فهو لا يزال طول حياته مخلصاً لهذا الجانب يفضله تفضيلا أعمى . أما « هوبز » و « نوبز » و « هجنز » فإنهم يؤيدون الحزب الذى يعالج مشكلاتهم أو يحافظ على مصالحهم الخاصة ؛ فمنهم من يصوت للمرشح الذى يعد أن ينقص ضريبة الدخل لمصلحة « نوبز » الموسر ومنهم من يؤيد المرشح الذى يقترح زيادة ضريبة الدخل ويخلق عملا « لهوبز » و « هجنز » العاطلين عن العمل منذ أزمان .

من الواضح إذن أن المزاج والعادة والحنق والآمال والمخاوف الشخصية وعوامل أخرى تشبهها لها من الأثر ما ليس للمعرفة المباشرة أو النظر الفكرى المبنى على الشعور بالواجب . وظاهر أن منظم الحزب الذى يعمل على كسب الأصوات يجب أن يصبح عالم نفس ، وأن يدرس البواعث غير المنطقية لكل أولئك الذين يذهبون إلى صندوق الانتخاب . وفى الحق لقد بدأ منظموا الأحزاب يعملون هذا فلقد أدخل بعض الصحافيين الأمريكيين حديثاً كلمة جديدة يصفون بها داعية الانتخابات فسموه الرّاق — أو الساحر (Spell-binder) لأن عمله يستلزم اللعب على مشاعر الجماعات وخداعهم لأغراضه الخاصة . والحق أن تقدم المدنية قد جعل تطبيق التفكير المنطق على المعضلات السياسية أكثر — لا أقل — صعوبة ، وذلك نتيجة حتم لما طرأ على الدولة المدنية الحديثة من زيادة الحجم والتعقد ؛ فقد تزايدت المسائل السياسية عدداً واشتبكا كا حتى لقد أصبح من الصعب على أى شخص بمفرده أن يحيط بالموضوع من أطرافه ، ولو خصص له كل وقته . والناخب العادى - بالضرورة — أقل قدرة على امتلاك زمام الحقائق والصدور فى تقريرها عن المنطق . إن الطريقة القديمة فى النظر السياسى كانت سهلة الفهم على

رجل الشارع ، ولـكن الطريقة الحديثة — وهى تصفية المعلومات الكثيرة تصفية دقيقة ، وتحليل النتائج بالطرق الإحصائية — تحتاج إلى عقل الإخصائى المدرب . ومن هنا كان على السياسى الذى يريد أن يؤثر على دائرته الانتخابية أن يُبَسط منهجه ، وأن يستعير الوسائل التى تستعمل فى الاعلانات التجارية ؛ فهو يستخدم حيلا نفسانية متعددة يلعب بها على قابليــة الناخبين للاستهواء ، ويعامل فيهم كائنات تتأثر ميولها بالـكلمات المعسولة والتنبيه الوجدانى أكثر من مواطنين منطقيين على درجة كبيرة من العلم والمعرفة .

إن هذه الحقيقة — وهى كون السياسة ليست فى الواقع سوى علم نفس تطبيقى ـ قد أدركها ـ صراحة أو ضمنا ـ كل مفكر عظيم عالج هذه المسائل العميقة . وكلمة السياسة نفسها قد عرفت تعريفاً عامًّا بأنها « علم الحـكم وفنه » ؛ ولـكنها فى أصل استعمالها كانت تدل على فلسفة الدولة ، ولم تـكن تعتبر مجرد طائفة الأنظمة والأشخاص الذين يُسيرون دولاب الحـكومة ، ولـكن كل مجموعة المواطنين . فالدولة فى جوهرها طائفة منظمة من العقول الشاعرة . وعلى هذا فعلم النفس — وهو الذى يبحث فى العقل — يجب أن يكون أقرب العلوم إلى الفيلسوف السياسى . إن « أفلاطون » و « أرسطو » و « لوك » و « روسو » و « بنتام » و « بوزانـكيت » و « سبنسر » و « سورل » — وجميع من كتبوا فى السياسة ابتدأ كل منهم بافتراضات سيكلوجية ، ومنها استنتج نظريته فى الدولة .

ولـكن يحدث أحيانا أن يعجز الفيلسوف السياسى عن أن يدرك تمام الإدراك أن مفترضاته تتضمن مسائل سيكلوجية ، وأنها تتطلب البحث العلمى ، فـكثيراً ما يعتبرها بديهيات ظاهرة ، وهـكذا — بالمبالغة فى

تبسيط الحقائق — يقع دائماً فى خطأ منطقى أو مبالغة عمياء . وفى الحق إنه لعجيب كيف تجاهل الفلاسفة والسياسيون فى الماضى الحقيقة الواضحة من أن كلا الناخب ورجل السياسة ، وكلا المواطن والحاكم — وهم ليسوا إلا بشراً — خاضعون لا محالة للانفعالات بجانب اتصافهم بالعقل والمنطق . إن الطبيعة الإنسانية معقدة كل التعقيد ، وكثير ممن يبحثون فى فلسفة الحياة الاجتماعية معرضون لتوجيه كل اهتمامهم إلى ناحية واحدة من نواحيها المتناقضة مغمضين أعينهم عن النواحى الأخرى . نعم إن الفيلسوف السياسى مصيب فى اعتباره إيانا أفراداً اجتمعوا ليكونوا دولة واحدة ، ولكن يصعب عليه أن يعطى كلتا الناحيتين ما تستحق من العناية : فكاتب يؤكد جانب الدولة ، على حين يؤكد آخر جانب الأفراد منعزلين . ولذا تكون النتيجة دائماً نظرية متحيزة إما إلى الناحية الفردية وإما إلى الناحية الجمعية . فإن كانت الأولى مالت إلى جانب مذهب الحرية (Liberalism) وإن كانت الثانية فهى إما محافظة (Conservative) وإما — فى هذه الأيام الحديثة — اشتراكية (Socialistic) .

ولعلكم تذكرون قول الجندى الحارس فى أوبرا « أيولانت »[1] :

« كل مولود حى
ولداً كان أو بنتاً
فهو إما حر صغير
وإما من المحافظين . »

ولو أنه قال : « فهو إما فردى صغير وإما جمعى » لكان أكثر صوابا من الوجهة السيكلوجية . ولكن النقطة التى يرمى إليها نقطة ذات مغزى ،

(١) إحدى أوبرات « جلبرت » و « سليفان » .

فهى تشير الى أن ميل المرء نحو أحد الرأيين المتعارضين قد لا يكون سببه مجرد العادة أو المصلحة الذاتية أو المشكلة التى تشغله ، بل قبل كل ذلك طبعه الخاص .

خذ المثاليين الألمان فى القرن التاسع عشر مثلا تجدهم جميعاً عظّموا شأن الدولة . فهم — حسب النظرية التى شرحناها — قد اعتبروها أشبه بكائن سام روحى له شعور وإرادة خاصان به ، أو أشبه بمخلوق هائل (Leviathan) ذى روح . فالدولة فى نظرهم صاحبة السلطان ، وهى فوق الجميع ؛ ومصالح الأمة فوق الاعتبارات الخلقية ، وأهم من مصالح الأفراد ومن مصالح أية أمة أخرى ، بل العالم أجمع . ذلك الرأى سرعان ما يجر إلى أخطار القومية الضيقة ، ولا يقف عند إثارة الاضطهاد داخل الدولة فحسب ، بل يؤدى إلى إشعال نار الحرب خارجها .

ومع ذلك فلهذا المذهب نصيب من الحقيقة ؛ ذلك أنه يؤيد قيمة العمل الجمعى ؛ ولهذا السبب — وذلك غريب — ترى مبادئه يستند إليها حزبان غالباً ما يعتبران فى نظرنا متعارضين ، المحافظون من جهة والاشتراكيون من جهة أخرى ؛ على حين ترى فى الخارج فاشستية إيطاليا وشيوعية روسيا كلتاهما تفضل الجماعة أو الأمة على الفرد .

ليس من شأننا هنا أن ننتقد هذه المذاهب السياسية المختلفة ، ولكننا نحاول فقط أن نتفهم المبادىء السيكلوجية التى تقوم عليها هذه المذاهب دون أن نناقشها . وأظن أنه لا حرج علينا فى أن نتفق — فى حدود المعنى الضيق الذى شرحناه فى الفصل السابق — على أن الدولة المتحضرة تستطيع أن تصل إلى نوع من شعور المجموع ، غير أن هذه السيكلوجيا تخطىء حين تفترض أن الدولة هى النظام الوحيد الذى يكون له شعور اجتماعى من

هذا الطراز ، فهناك أنظمة أخرى قد يكون لها مثل هذا الشعور . خذ العالمَ مثلا : فهو الآن — أو كما يصح أن يكون — جماعة منظمة شاملة واسعة النطاق ، وقد بدأنا نحن نبتهل إلى الضمير المشترك للعالم المتمدين كله . ليس هذا فحسب ولكن فى داخل المجموع الذى نسميه شعباً مجموعات أصغر قد يكون لهـا نوع من الروح الجمعى . فالأسر والمدن والمعابد ونقابات العمال وهيئات أصحاب المهن والمجالس المحلية أو البلدية ، كل أولئك قد يكون له شعوراً جمعياً خاصاً به . وقد يجىء على هذا الشعور وقت يتطلب فيه ولاء أقوى مما يتطلبه الآن . غير أن هناك نقطة جوهرية ، المثـالىّ فيها مصيب كبد الصواب ، تلك أن الإنسان إن لم يكن دائماً مواطناً فهو دائماً عضو فى مجموع ، فليس فى العالم أفراد يعيشون بمعزل تام مثل «روبنسن كروسو» .

ولكن الشعور الجمعى كما رأيناه لا يمكن أن يوجد إلا فى شعور هذا هذا الفرد أو ذاك على حدة ، فى شعور أشخاص مثلى ومثلك . وهذه هى الناحية التى يؤكدها الفرديون الإنجليز ، فهم ينكرون السلطان المتحكم للدولة ، ذلك الذى يجعل منها روحا علويا سامياً ، وهم يؤكدون الحاجة الماسة إلى الحرية كشرط أساسى لنمو الشعور الفردى نمواً كاملا .

لو أنك مشيت فى أزقة « هندن » منذ أكثر من مائة سنة لقابلت محامياً شيخاً غريباً يمشى مسرع الخطى تتبعه قطته العزيزة ، وفى الكلية التى أكتب فيها الآن (يونفرستى كولدج) يمكنك أن ترى هيكله جالسا على كرسى ممسكا بعصا من الطراز القديم ، مغطى الوجه بقناع من الشمع ، عليه ملابس من طراز سنة ١٨٣٠ . ذلك الرجل هو «جرمى بنثام» المفكر الذى أثر فى السياسة الإنجليزية أكثر من أى كاتب آخر . فبينما كان « هيجل » فى ألمانيا يبشر بمبدأ السلطان المطلق للدولة كان « بنثام » فى

انجلترا يخرج رسائله المطولة الحافلة بالألفاظ الطويلة التي اخترعها يقرر فيها أهمية الفرد التي لا تنازع .

يبدأ بحث « بنتام » بجملة مشهورة تعلن الأساس السيكلوجي الذي قامت عليه نظريته ؛ وتلك الجملة هي : « لقد وضعت الطبيعة بني الإنسان تحت سلطان سيدين آمرين هما اللذة والألم » . ويرى « بنتام » أن كل أعمالنا تصدر عن هذين الباعثين الأولين ، فكل من أراد منا أن يقوم بعمل ما ، يبدأ بوزن نتائجه ويحصي — كما يحصي الكاتب قائمة الحساب — مقدار الزيادة المحتملة للذة على الألم . وعلى مقتضى هذا الحساب يقرر اتباع السلوك الذي يساعده على تحاشي كل ألم ممكن ، والحصول على أقصى مايستطاع من اللذة .

هذه السيكلوجيا تبدو لا غبار عليها للنظرة الأولى ، إلا أنها أبسط من إن تكون صحيحة . ولكن « بنتام » كان همه أن يقضي على التصورات الميتافيزيقية الغامضة التي قام عليها التفكير السياسي القديم ، تلك النظريات التي وصمها هو بأنها « هراء على عكازات » ؛ وكان حريصا الحرص كله على أن يصل مباشرة إلى ما سماه « المنفعة » ، فأقام على أساس مقدماته البسيطة ضابطه المشهور وهو « أعظم سعادة لأكبر عدد من الناس » . كان هذا في رأيه هو الهدف الذي يتجه إليه السياسي والمحك الذي يعرض عليه كل قانون قديم وكل تشريع جديد ، وكان معظم أتباعه في مذهب المنفعة هذا من الأحرار أو الاشتراكيين ، — الاشتراكيين الفلسفيين كما كانوا يلقبون اذ ذاك — وهم الذين اتخذوا قاعدة « بنتام » شعاراً لهم ، وكانوا الوساطة في سن كثير من الاصلاحات البعيدة الأثر ، فعدلت القوانين ووسع نطاق التصويت العام وقرر التعليم للجميع . مثل هذا المبدأ كانت له قيمة عملية بينة في الوقت

الذى كان فيه مجموع من يعيشون عيشة راضية فى معظم البلاد المتمدينة لا يكاد يبلغ نصف السكان ، وأقل من هؤلاء من كانت لديهم الفرصة لتنمية قدراتهم الكامنة . غير أنه لما طبق على معضلات الحياة الصناعية المعقدة تداعى أساسه القائم على البواعث الفردية ، ولم يكن عجباً أن نسمع «ما كولى» يرد بقوله : « إن من المستحيل أن تستنتج علم الحكم من مبادىء الطبيعة الإنسانية » .

على نفس هذا الأساس النفى قام علم الاقتصاد الحديث ، وهو علم انجليزى فى طابعه . ولكن كان من السهل هنا أن يرى المفكرون أن الفردية ربما تجر سريعاً إلى عدم الاكتراث وإلى الهاوية أكثر مما تجر إلى الإصلاح . إن الفردية تبدأ بافتراض أن كل إنسان يعرف أين يجد سعادته ، وأنه سيجد وراءها بنفسه ، فى نشاط لا يعدله نشاط أى فرد آخر يطلبها له . فما الذى يترتب على هذا الافتراض ؟ النتيجة المنطقية لهذا هى سياسة عدم التدخل (laissez-faire) ومعناها «اترك كل فرد وشأنه ودع الأمور تجرى فى أعنتها» . وإذا صح هذا فأين مكان الدولة ؟ ليس للدولة على هذا الرأى إلا مجال قليل فيكون عملها فى المباراة الاقتصادية عمل الشرطى أو الحكم وتتحاشى القيام بأى عمل إنشائى ، وتكف عن أن يكون مثلها مثل الشخص الذى يتعلم عدة حرف ولا يجيد واحدة منها ، وعن أن تلعب دور السيدة الارستقراطية فى كل قرية ، أو الشخص الطلعة فى كل منزل [٢] ، بل تقصر نفسها على

---

(١) (Jack-of all-Trades) و (Lady Bountiful) و Paul Pry) تعابير إنجليزية مشهورة ، فالأول منها مثل يطلق على الشخص الذى يستطيع أن يقوم بأى عمل . والثانى يطلق على السيدة العظيمة فى بقعة ما ، والثالث مأخوذ من رواية هزلية من تأليف (Iohn Boole) ويطلق على كل شخص كثير الاستشراف والتطلع والتجسس .

أن تكون حارسة الميدان ، تاركة تمام الحرية للجهود الفردية ؛ فحرية التجارة وحرية المسابقة اعتبرتا أساسيتين من الوجهة السيكلوجية ، وكل تدخل فى المعاملات الاقتصادية بين شخص وآخر كان يعتبر — دون تردد — لا خطأ وأمراً غير مرغوب فيه فحسب ، بل عديم الجدوى وغير مناسب ، إذ أن قوانين العرض والطلب الحديدية الصارمة سرعان ما تبطله .

ولقد يدهشك أن تلاحظ كيف تغير التفكير النظرى والسياسة العملية فى أعوام قليلة ؛ فيكفى فى الناحية العملية أن تنظر إلى تفتيش المعامل الحديثة وإلى الإصلاح الصحى الحديث ، وإلى قوانين مجالس التجارة ، وإلى قوانين التأمين ضد البطالة وقوانين المعاشات ، لترى كيف اضطرت الدولة مرة أخرى أن تتدخل . أما من الناحية النظرية فإن كثيراً من مبادىء مذهب المنفعة قد عكست تماماً ، وإن تطور الحوادث قد زعزع من قيمة الحاجة إليها . ولقد انقرضت — أو كادت — رأسمالية القرن التاسع عشر التى كانت قائمة على التزاحم ، وأخذت تحل محلها تدريجياً رأسمالية القرن العشرين الاحتكارية . لهذا ترى الاقتصادى الحديث يعير جانباً كبيراً من الأهمية — لا لسياسة عدم التدخل كقاعدة أساسية — بل للأحوال المستثناة منها ، وقد تحول اهتمامه من جانب إنتاج الثروة وتداولها إلى جانب استهلاكها .

ومن المفيد هنا أن نتذكر أن أوائل الذين عارضوا المبادىء «البنثامية» لم يكونوا سياسيين أو علماء ، وإنما كانوا رجال أدب ، من أمثال «ما كولى» و « رسكين » و « ديكنز » و « كارليل » . وكان نقدهم إياها من الوجهة السيكلوجية . وقد ساعد « رسكين » — رغم تهويلاته الطنانة — أكثر من أى كاتب آخر على إقصاء فكرة «الرجل الاقتصادى» المعنوى وعلمنا « أن الشخص الوحيد الذى يعتبره علم السياسة هو الرجل كاملا — الرجل

بكامل انفعالاته وفى كل علاقاته الاجتماعية . والحق أنه ليس من العجيب أن يكون المؤرخ والروائى وعالم الأخلاق قد نفذوا ببصيرتهم إلى الطبيعة الإنسانية أعمق مما نفذ إليها راهب كريم « كبنثام » أمضى أيامه فى عزلة هادئة فى « فورد أبى » يدرب الفيران على تسلق رجليه ، وأكل فتات العيش من حجره .

تعالوا نمعن النظر الآن لنعرف أين أضلت دعاوى الفرديين أربابها . لقد كان أحد معتقداتهم التى تعصبوا لها أن كل إنسان إنما جاء إلى هذا العالم بعقل هواء وجسم عار ، وأن نفسه تشبه قطعة بسيطة من الشمع يمكن التربية أن تشكلها وتبلغ بها درجة الكمال . وهكذا أنكر هؤلاء الوراثة العقلية بتاتا . أما من الناحية العلمية فإن الضربة الفاصلة التى وجهت إلى هذه النظرية إنما جاءتها من « دارون » فى كتابه « تناسل الإنسان » ؛ فقد كانت النتيجة المباشرة لوجهة النظر البيولوجية أن يعتبر الإنسان — مهما تكن نواحيه الأخرى — حيوانا قبل كل شىء ، وهو كسائر الحيوانات يرث ميولا خاصة فهو يأتى ومعه عند ولادته — أولا — ذخيرة من غرائز قوية غير مهذبة ، — وثانياً — كميات مختلفة من الذكاء والمقدرة العقلية تحد من تلك الغرائز .

٣ — والنتيجة المباشرة لهذا الرأى إنكار أن يمكن اعتبار الكائن الإنسانى مجرد آلة عقلية ، فأعماله — على الأقل فى المبدأ — لا يقودها البحث المتعمد عن اللذة ، أو العزم الشعورى على تحاشى الألم ؛ وإنما هى نتيجة بعض انفعالات فطرية تدفعه إلى أن يتصرف فى طريق معينة ، دون أن تدع له مجالا للتفكير فى المنافع الخاصة التى ستترتب على عمله . وكلما نما تحولت هذه الغرائز ، بما يطرأ عليها من تعديل ، إلى ميول ثابتة أو عادات . ولكن بواعثه تظل طول حياته قائمة ، لا على تأمل شعورى واضح ، بل على دوافع

بنت ساعتها ، أشبه فى طبيعتها بالاستيقاظ فى الصباح أو أكل وجبة الطعام عندما تحضر . هذه النظرية أحدث ، ولكن نرى هنا أن عالم النفس فى خطر من أن يتطرف إلى الناحية الأخرى ، فيصور بنى الإنسان أقل عقلية مما هم عليه . ومع ذلك فلا نزاع فى أن هذه الغرائز موجودة ، وأنها عميقة الأثر فى حياتنا الاجتماعية ، وربما تدخل العقل — كما سنرى قريباً — ليعدل فيها أو ليهذب فى مجراها .

ما هى — إذن — طبيعة هذه الدوافع التى نحن جميعاً مزودون بها ؟ أولا ، يرث جنسنا — كما ترث الأغنام والذئاب أو النحل والنمل — غريزة خاصة لا شك أنها تضطرنا لأن نعيش معاً فى مجموعات ، وهى تسمى عادة غريزة القطيع . تصورْ السجين رهن سجنه المنفرد ، أو الملاح انقطعت به السبل على جزيرة منعزلة ، ثم تصور السرور الفياض يتدفق من يافع سليم الجسم حين ينطلق من مكان عمله ليزحم الألوف بمنكبيه فى جمهور يشهد لعب كرة القدم . إنك لترى حينئذ أن الناس إذا خافوا العزلة وتجمعوا معاً فى مجموعات ، فليس ذلك نتيجة تأمل هادىء أو خطة حازمة أحكم التفكير بها ولكنه بكل بساطة مظهر من مظاهر ميل أعمى لا تفكير فيه . فنحن نعيش معاً فى جماعات بالطبيعة لا نتيجة التدبير . وفى الحق إن المرء — بعيداً عن رفاقه من الناس — لا يكون إنساناً . والدولة على هذا لا يمكن أن تشرح بأنها نوع من شركة تضامنية محدودة تعاقد أعضاؤها على تبادل المعونة والوقاية . فقد انبعثت الدولة — لا نتيجة تواضع مصطنع بل نتيجة نمو طبيعى . وهى — بالاختصار — تقوم على غريزة اجتماعية لا على عقد اجتماعى .

ومتى احتشدت الحيوانات الجمعية معاً ظهرت فيها — عاجلا — بعض

ميول شبه آلية ، فى أغلب الكائنات الاجتماعية — ونحن من بينها — تظهر غريزتان أخريان : إحداهما غريزة الزعامة ، والأخرى غريزة الخضوع. أما الأولى فتتمثل فى حب القوة . وهذا الحب — سواء أكان نافعاً أم ضاراً — باعث قوى دائماً عند السياسى . وأما الثانية فتؤدى إلى الوداعة والطاعة ، وهى إلى حد كبير توضح السبب فى أن الناس — محتشدين — أكثر استعداداً لقبول الظروف المحيطة بهم . ما هو السر فى أن الجماهير فى كل بيئة مستعدون أن يطيعوا الإشارة التى تصدر من أفراد قليلين سواء أكان هذا الفريق ممثليهم أم غيرهم ؟ إن رضوخ الأنصار والأتباع لزعمائهم لغز سيكلوجى قد حيّر الفلاسفة الاجتماعيين جميعا ؛ فمن التعليلات التى كثر ترديدها بينهم الخوف ، وفى أيام هوبز — عند ما كان التفكير السياسى محفوفا بالمخاطر حتى لقد يضطر الشخص إلى الهرب من لندن إلى باريس سنة ، أو من باريس إلى لندن فى السنة التالية — كان الخوف أظهر الانفعالات ذكراً على لسان الفيلسوف ، غير أن التجارب السيكلوجية الحديثة قد أثبتت أن الأفراد فى الجو الاجتماعى السليم يحتاجون إلى درجة من التخويف أقل مما كان يُظن ؛ فمن خمسين عاما كان المدرس فى حجرة الدراسة يعتقد أن حكمه قائم على الخوف وأن من الخطل فى التدبير أن يترك مجموعة من الأطفال دون إشراف ، وينتظر منها أن تلزم جانب السلوك الحميد وتقبل على عملها . أما فى المدارس الحديثة ، حيث انقضى حكم العصا ، وحل محله التهذيب الحر ، فقد أصبح ذلك من المشاهدات اليومية . وإذا كان الجو السائد فى الجماعة جواً صالحا ، حل النظام الداخلى محل الهيمنة المفروضة من الخارج . ولقد بدأ شىء من هذا الجنوح للثقة بدلا من الإجبار يسرى فى حياتنا الاجتماعية ، فأسوار كثير من الحدائق قد أزيلت ، والبضائع

تعرض فى حوانيتها دون كثير مراقبة ، ومنزل الإنجليزى لم يعد كما كان فى القديم قلعة موصدة .

وليس رجل الاقتصاد بمضطر الآن إلى افتراض أن البالغين لا يعملون إلا إذا أجبروا ، سواء أكان هذا الإجبار من طريق التهديد المستتر بالموت جوعا ، أم من طريق التشجيع المباشر بالمكافأة المادية . إن انتشار الإرهاق فى العمل قد جعل كثيراً من الناس يظنون أن العمل فى كل صورة ثقيل على النفس . وفى الحق إن العمل الممل ، والعمل القذر ، والعمل الخطر ، كلها تستلزم قدراً أكبر من التعويض . غير أن غريزة الاقتناء ليست هى الباعث الوحيد فغرائز الإنشاء والبناء أيضا تحاول أن تأخذ بنصيبها من العمل ؛ فالكبار — كمعظم الأطفال — أسعد ما يكونون إذا كانوا مشتغلين بعمل سار . ولقد يبدو متناقضاً أن نقول أنهم يجدّون ويكدحون — لا جريا وراء لذات بعيدة — بل لأن الجهد الطبيعى لذيذ ؛ غير أنه من الثابت أن أحسن ما ينتج فى ميادين العلم والفن والعمل والاختراع لا يُنجز تحت تأثير النفع المادى ، بل لأن المقدرة على هذا أو ذاك من العمل تجلب معها رغبة شديدة ملحة فى أدائه . وحق ما لاحظه « برنارد شو » من أن « الإجازة الدائمة قد تكون تعريفا جيداً للجحيم » :

ميولنا الأولية — إذن — ليست أنانية ولا ضيقة ولا باعثة على الكسل ؛ بل ربما كانت أعجب غرائزنا هى ما تسمى أحيانا الغريزة الوالدية أو غريزة الحماية ، وهى الأصل الذى يتفرع منه كل سلوك يرمى إلى نفع الآخرين . لقد عجز المفكرون السياسيون فى الماضى عن إدراك أن السلوك غير الأنانى — كالسلوك الأنانى — له أساس غريزى ؛ ففى طبيعتنا رعاية الضعيف والحدب عليه ، لا إهماله أو إثقال كاهله . ولو أن الناس كانوا بفطرتهم

محض أنانيين باحثين عن نفعهم الخاص ، كل يجرى وراء لذته الخاصة ، فما الذى جعل ذوى السلطة والحكم يقترحون فى كثير من الأحيان قوانين إنسانية ربما كانت فى الواقع ضد مصالحهم الخاصة ؟ إن تحرير الرقيق مثلا فى جزر الهند الغربية البريطانية قد كلف الشعب الإنجليزى عشرين مليونا من الجنيهات لم تكسب إلا بعرق الجبين . وفى المسائل الأقل شأنا ، كثيراً ما يجد الخطيب السياسى أن اللعب على عاطفة الجمهور وشعورهم بالمشاركة الوجدانية يثير فيهم ما لا تثير الحملات العنيفة أو الوعود بالمغانم الخاصة .

هذه الغرائز وأمثالها إذن هى المصادر الأصلية ، إن لم تكن الوحيدة ، لكل نشاط إنسانى . وهى تملى الغايات التى سيسعى إليها الناس دائما فى جماعاتهم المنظمة . غير أنه من السهل أن يبالغ الإنسان فى قيمة العوامل الوجدانية وغير المنطقية كما أن من السهل المبالغة فى قيمة العقل والتفكير المجرد . هذه الغرائز الموروثة أقل تحدداً وأكثر مرونة فى الجنس الانسانى مما هى فى بنى عمومتنا من الحيوان ، فالتجربة لا يمكن أن تعدلها ، وبالتدريب يمكن أن نهذبها أو نمسك بعنانها ، أو نحكم فيها العقل . ويمكن توضيح هذه العملية على أحسن وجه بغريزة أخرى قام حولها فى السنوات الحديثة كثير من المناقشات ، تلك هى غريزة العدوان (pugnacity) ، فقد قرر كثيرون أن الحرب لا مفرّ منها من الوجهة البيولوجية ، وأن الجنس الإنسانى محكوم بتنازع البقاء — ويجب أن يظل كذلك ؛ وهذا سبنسر — مثلا — قد جره مثل هذا التفكير إلى معارضة كل أنواع المعونة الحكومية للفقراء وكل أنواع الجهد الجمعى لصالح المأزومين . وقد احتج ذوو الروح العسكرية بمبدأ الانتخاب الطبيعى فى تبرير الحروب بين الدول المتمدينة . ومنذ قرنين أو ثلاثة كانت أمثال هذه الحجج تساق للدلالة على أن قتال الشوارع والمبارزة وقتل

النفس لن تختفى قط . ومع ذلك فى القرن العشرين لا تجد واحداً منا يتقلد سيفاً ، وإن كان القليلون منا يحملون أسلحة نارية صغيرة . وسيلازمنا دائما الغضب والسخط والتنابز ؛ إلا أن هذه — كالغرائز الأخرى — ستميل مع تقدم المدنية إلى أن تجد لها منافذ أسمى وأقل ضرراً ، وستبحث لنا عن منافذ توافق — أكثر مما تخالف — روح الاجتماع وبعبارة أقصر تصبح مُعلاة .

أما الطرق التى تُنَفَّذ بها هذه التغيرات فإنها أكثر تعقداً من أن نتناولها هنا بالتفصيل . فهى ، من ناحية ، نتيجة لعمل المثل العليا العقلية الشعورية التى هى غالبا من صنع عظماء الرجال فى العالم ؛ وهذه المثل تتسرب إلى الجماعة كلها عن طريق التربية والأدب وعن طريق الصحافة والمنبر والمسرح ، ثم عن طريق الإذاعة والسينما فى الأزمنة الحديثة ؛ ومن ناحية أخرى هى نتيجة عمليات غير شعورية كالإيحاء والتقليد ، وما هو أهم منها وهو العادة التى تشبه عجلة الاتزان فى الجماعة . إلا أن الذى يعدل الغريزة أو يسيطر عليها على أية حال هو الذكاء .

هذا يصل بى إلى الخدمة الثانية المهمة التى أداها علم النفس للنظرية السياسية ، وتلك هى دراسة الذكاء الفطرى . فلقد بدأ الناس أخيراً يتساءلون : هل حقق مبدأ المساواة فى التصويت ما كان يرجى منه ؟ وهذا الامتعاض من نتائج الديمقراطية قد أثار شكوكا خطيرة فى ذكاء السكان الديمقراطيين — فهل من العدل أن نقتصر على عدد الرءوس بلا وقفة للنظر فى محتوياتها ؟

لنلق الآن نظرة على أهم الآراء التى قيلت فى هذا الصدد سابقا . إن

أول الآراء وأقدمها ذلك الذى يفترض أن السكان ينقسمون إلى طبقتين أو أكثر تتمثل فى الطوائف الاجتماعية أو الاقتصادية ، وأن واحدة فقط من هذه الطبقات تصلح لتولى الحكم ، بينما الطبقات الأخرى غير جديرة بالتصويت العام بل بالحرية أيضا . والرأى الذى جاء بعد هذا ينكر كل فرق فى المنزلة الطبيعية ، ويقرر أن الناس جميعا متساوون ، لا فى الحقوق فحسب ، بل فى الذكاء ، وأن مواهبهم الكامنة لا تحتاج فى تنبيهها وإيقاظها لشىء سوى التربية . لقد رأينا كيف نادى « بنتام » وأتباعه بهذا المبدأ قائلين أن الفروق العقلية تنبعث ، لا من الوراثة أو التكوين الفطرى ، بل من قلة الثروة أو الفُرَص أو التدريب وما إلى ذلك . ولقد قامت الجمهورية الأمريكية رمزاً لتخليد مبدأ المساواة بين الناس . والجميع يذكرون كيف سخر « كارليل من هذا المبدأ الذى صوره هو هازئا فى قوله « كل إنسان ند لكل إنسان آخر — والعبد الزنجى ند لسقراط أو شا كسبير » .

هنا — إذن — معضلة لعلم النفس لا ريب فيها ؛ وقد حلها علماء النفس حلا لا ريب فيه : فقد قاموا حديثاً بتطبيق مجموعة من المقاييس العقلية الدقيقة على مساحات كاملة من البلاد ، وقد أثبتت نتائج تلك المقاييس أن كلاً من الآراء التى ذكرناها فى صورتها التقليدية خاطىء لأن كلاً منها مبالغ فيه ؛ فليس هناك من شك فى أن متوسط الذكاء للطوائف الاجتماعية يختلف . ولكن هذا الفرق بين المتوسطات أصغر كثيراً من الفرق بين الأفراد . أما الكشف الحديث المهم فهو ذلك المدى الهائل الذى يبدو فيه الذكاء الفطرى لأعضاء كل طبقة اجتماعية وللسكان على العموم ، فقد وجد فى المتوسط أن ١ ٪ من سكان معظم البلاد المتمدينة ضعيفو العقل

وأن ١٠ ٪ أغبياء أو متأخرون[١] . هذا وتدل الدلائل على أن مثل هذا الضعف أو النقص لا يرجع إلى نقص التربية فحسب ، كما كان يتوهم سابقاً بل هو إلى حد كبير فطرى ، ولذا لا يستطاع التخلص منه . وهنا معضلة سياسية جديدة : هبنا وجهنا لضعاف العقول عناية خاصة ، وزودناهم بتعليم خاص فى مدارس حديثة خاصة ، وصقلناهم صقلا ظاهرياً ، ثم ألقينا حبالهم على غواربهم فى الحياة ، فماذا يحدث ؟ إن هؤلاء بسبب نقص ذكائهم وعدم قدرتهم على ضبط النفس سيتناسلون أكثر من المتوسطين والأذكياء ؛ وإذا استمر هذا أجيالا فستكون النتيجة المحتومة أن يطغى ضعاف العقول فى العدد على من سواهم . ولدينا الآن ما يحمل على الاعتقاد بأن المستوى المتوسط للذكاء فى المجموع كله آخذ فعلا فى الانحطاط .

أما علاج هذه الحالة فيبدو — لأول وهلة — واضحاً ؛ فقد سنَّ البرلمان قوانين تمكننا من أن نميز ضعاف العقول ، ونُلزمهم معاهد خاصة لا يبرحونها . فليس علينا إلا أن نوسع مدى هذه القوانين ونطبقها . غير أننا لا نستطيع أن نعمل هذا مع الطائفة التى تقع على حدود الضعف العقلى ، والتى سميتها

(١) الجدول التالى يبين توزيع الذكاء فى شعب كانجلترا أو أمريكا :

النسبة المئوية	النـوع
١	عبقرى — نابغة
٥	فائقون جدا
١٤	فائقون
٦٠	متوسطون
١٤	بلداء — أو أغبياء
٥	بين الغباوة وضعف العقل
١	ضعيف العقل أو ناقصه

طائفة الأغبياء أو المتأخرين . والواقع أن عدد هذه الطائفة من الكبر بحيث ينحدر منها معظم المتسولين والمجرمين والمقصرين عن إدراك النجاح . ومع ذلك فوسائل تحسين النسل قد أصبحت الآن ضرورية وجوهرية . ولعلكم تذكرون الصورة التى رسمها خيال « آلدس هكسلى » للعالم فى مؤلفه : (العالم الجديد الشجاع) : إذ جعل الطلبة يدخلون فرقا فى « محل الإفراخ الإنسانى » ، ويحدقون النظر فى أنابيب الاختبار وفى أجهزة الإفراخ ، حيث يرون أطفالا ، من نوع راق جداً ، من الذكور والإناث يربون على مبادىء ظلت إلى الآن مقصورة على تربية النبات والخيل والكلاب الأصيلة . غير أن معرفتنا بالوراثة العقلية فى الوقت الحاضر أقل من أن تكفى لإصلاح شامل ، فليس من علماء النفس فى بريطانيا . إلا القليل ممن يظهرون استعدادهم الآن للمناداة بفرض الوسائل الإجبارية لتحديد النسل ، كالتعقيم أو حتى عزل مجموعات كبيرة من الناس ، ولكن هذه احتمالات نحن لا شك مضطرون أن نختبرها فى المستقبل القريب (١) .

لننتقل الآن إلى النهاية العليا من السلم . لقد وجد علماء النفس أن الذين فوق المتوسط يساوون فى العدد من دونه ، وأن هناك من العمالقة فى العقل عدداً يضارع عدد الأقزام فى العقل أيضاً . فالتوزيع هنا — إذن — توزيع متناسب لا نجد مثله فى توزيع الثروة أو الدخل . والطبيعة تجىء هنا بنظام

---

(١) منذ كتابة هذه السطور قرر مجلس الضبط (فى بريطانيا) تأليف لجنة تبحث شئون التعقيم . وسنت حكومة النازى (فى ألمانيا) قانوناً يقضى بتعقيم الأشخاص المصابين بأمراض وراثية ؛ ويدخل فى ذلك ضعف العقل الموروث وأنواع خاصة من الجنون . وقد يكون من الطريف أن نرى هل تكون تلك القوانين أنجع أثراً فى ألمانيا من مثيلاتها التى أدخلت فى كثير من الولايات الأمريكية منذ أعوام .

(المؤلف)

تام الصنع مما كان يسمى قبلا « أرستقراطية المواهب » . ولكن الموهبة كانت — إلى عهد قريب — تُظَن وقفاً على الأرستقراطيين . حقيقة إن الاختبارات السيكلوجية تدل على أن متوسط الذكاء عند أصحاب المهن الراقية أعلى شيئاً منه عند طبقات العمال غير المدربين كالأجراء اليوميين مثلا . وفى هذا ما يبدو للنظرة الأولى مبرراً للتقسيم القديم للدولة إلى طوائف وطبقات اجتماعية متميزة . ولكن التقسيم على أساس الذكاء لن يطابق قط التقسيم على أساس المنزلة أو الثروة أو حتى نوع العمل ؛ فقد رأينا أكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب أنك مهما توازن من جماعات — رجال ونساء ، بيض وسمر ، أغنياء وفقراء ، أميين ومتعلمين — تجد الفرق بين الأفراد أعظم على الدوام من الفرق بين متوسطات كل من هذه الطوائف ؛ فقد يندر أن يفوز بالجوائز المدرسية أحد من أُسَر عمال الموانى ، ولكن يحدث فعلا أن يفوز بها أناس منهم ؛ وقد يندر كذلك وجود ضعفاء العقول فى أسر المعلمين والأطباء والمحامين ، ولكنهم موجودون أيضاً .

ولقد كان بالطبع من المجازفة أن تبنى المساواة فى الحقوق السياسية على ما زعم من مساواة بين الناس فى الأدمغة والذكاء . فالنتيجة قد تكون معقولة فى التطبيق ، ولكن مقدمتها قد لا تزيد على وهم من أوهام باحث نظرى . والحق أن من أحسن الحجج للمناداة بالمساواة السياسية أن المساواة بين الجميع فى الفرص تكشف بسهولة عن أيهم أحسن . وهؤلاء الأفضلون سوف لا تجدهم فى طبقة واحدة ذات نسب أو مركز اجتماعى واحد ، ولكنك ستجدهم منتشرين فى كل طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية انتشار « الزبيب فى طبقات الفطير » .

* * *

وبعد فهل نستطيع أن نطمئن إلى أن أولئك الأفضلين سيطفون دائما إلى القمة؟ إنهم من بنى الإنسان فليس بهم من حاجة إلى أن يطفوا، ولكن عليهم أن يتسلقوا؛ وعلى الدولة فى الحقيقة أن تقيم سلماً مزدوجا يصعد عليه الأذكياء إلى مكانهم من الذروة وينحدر عليه الأقل ذكاء — أيا كان وسطهم — إلى مستواهم الحقيق. وبهذا يستطيع الفرد أن يخدم الأمة كما تخدمه هى؛ فإن عالم النفس يرى أن التضاد القديم بين الفرد والأمة، أو بين الفرد والدولة إنما هو مقابلة خاطئة، فلن يستطيع أحدهما أن يعيش بدون الآخر، ولن يستطيع أحدهما أن يحيا الحياة الكاملة إلا بمعونة الآخر.

الفصل الرابع عشر

سيكلوجية الفراغ

قام علماء النفس ببحوث لا عداد لها فى مسائل العمل ، ولم يهبوا لمسائل الفراغ إلا القليل من اهتمامهم . ولكن الحال تغيرت فى الحياة الحاضرة ، فقد أخذ العمل يقل شيئاً فشيئاً ، على حين أخذ الفراغ يزداد — لا فى مقداره فحسب — بل فى كيفيته وفى تنوعه أيضا .

إذا نظرت فى هذه اللحظة إلى سكان بريطانيا وجدت — من بين الخمسة والأربعين مليوناً — حوالى ثلاثة ملايين من العاطلين ، يمكنك أن تعتبرهم — كمجموع — أكبر طائفة من طوائف الفراغ فى تاريخ هذه البلاد . ومع ذلك فقد بدأ الفراغ منذ وقت طويل قبل الأزمة الاقتصادية الحاضرة يمتد إلى عدد أكبر من الأشخاص ويشغل عدداً أكبر من الساعات . وهذه الزيادة جاءت نتيجة لأسباب منوعة ، بعضها صدفة وبعضها مقصود . وأهم هذه الأسباب هو استخدام الآلات وقيامها بالأعمال التى كان يقوم بها الرجال والنساء من قبل . وهكذا جاء الانقلاب الآلى على أثر الانقلاب الصناعى ؛ فنحن اليوم نسافر ونصنع ونزرع ونغزل ونخيط ونصبغ ونكتب بل نحسب أيضاً بوساطة الآلات ؛ وجاء الفراغ إلى حدّ ما نتيجة غير منتظرة من نتائج هذا التغيير ، وهو — كأشباهه من النتائج غير المقصودة — عرضة لأن يحتقر بل أن يطرح جانباً .

ليس هذا فحسب ؛ ولكن فى الوقت نفسه ، ومن نواح أخرى ، بدأ

الناس يطلبون — وهم بذلك شاعرون — نصيباً أوفر من الفراغ : فالعمال الآن يُضربون طلباً لساعات أقصر ، والرأى العام يميل الآن إلى الفكرة القائلة بأن لكل شخص — عاملا كان أم غير عاملٍ — الحق فى نصيب معقول من الفراغ ، محتجاً بأنه إذا توقف الشخص عن العمل فترات مناسبة يستأنف بعدها عمله كان ذلك أدعى إلى تحسين إنتاجه . وعلى هذه النظرية يمكن أن يقال إن الفراغ إنما يوجد لأنه ضرورة من ضرورات العمل ، على حين نجد آخرين ممن يشتغلون فى أعمال غير لذيذة يدّعون أنهم إنما يعملون طلباً للفراغ .

وهبنا مُنحنا الفراغ فماذا نحن صانعون به ؟ أكبر ظنى أننا مضيعوه . فالظاهر أن معظمنا يعتقد أن الوقت الوفر إنما يعتبر وفراً لأننا نستطيع أن نوفره .

أرى إن أخذنا لذّاتنا بصورة جدية ، شاغلين كل لحظة من لحظات فراغنا حيث تجىء ، أفلا تكون النتيجة ضياع هذه اللذات ! ألسنا نرحب بهذه الفترات الفارغة لمجرد أنها غير مملوءة ؟ إنه لا شك — إذن — فى وجوب الاحتفاظ بهذه اللحظات للراحة والاستجمام الهادىء ! فلو أننا — مثلا — لم نسترح فى فراشنا ، حيث نتيه فى غيبوبة تامة ثمانى ساعات من كل أربع وعشرين ساعة لناءت أجسامنا وعقولنا وأعياها الكلال !

أنا مستعد الآن لأن أعترف بأن الجسم فى حاجة إلى فترات نوم ، ولكنى لست مستعدا أن أستنتج من هذا أن العقل فى حاجة إلى فترات إضافية من البطالة . فإن لدى بعض الناس صورة عن العقل كإناء مجوف يحتوى كمية محدودة من الطاقة العقلية ، وهم يفترضون أن هذه الطاقة العقلية تأخذ فى النفاد شيئاً فشيئاً أثناء قيام الشخص بالعمل ، ولذا يجب فى عرفهم

أن يقف العقل عمله فى فترات منظمة يزوّد فيها من الطاقة زاداً جديداً . قد يكون هذا صحيحاً على العموم من وجهة النشاط الجسمى ، ولكن ليس هناك من الأدلة الكافية ما يحملنا على الاعتقاد بأن لدينا أيضاً مقداراً من الطاقة النفسية يمكن أن يدخر ويستنفد ثم يملأ من جديد كما تملأ صفائح البترول .

ولقد أجريت حديثاً بحوث مدهشة ، تدل على أن الإعياء العقلى الحقيقى قلما يحدث ، ونحن إذ نشكو إجهاداً عقلياً فليس الذى أجهد أو استنفد هو طاقتنا ، بل ميلنا ، ولا نكون حينئذ فى حالة إعياء بل حالة ملل . فقد يرجع أحدنا يوماً إلى المنزل معلناً أن دماغه قد بلى من التعب ، ولكنه لا يكاد يبدأ قراءة رواية بوليسية أو لعب شىء من الورق (البردج) حتى يجد ذهنه على أتم ما يكون يقظة وحيوية . إنه لا شك فى أن هناك نوعاً ما من التعب الحقيقى فى معظم الحالات ، ولكن ما نحسبه تعباً عقلياً ، إذا حللته وجدته فى الغالب تعباً جثمانياً ، يرجع من ناحية إلى تجمع السموم داخل الجسم ، ومن ناحية أخرى إلى ما يصيب العضلات (لا الطاقة العقلية) من إعياء .

إنى أعترف أن الكلل العقلى قد يكون عقوبة الإرهاق الزائد ، ولكنه ليس نتيجة تعب عقلى أو إرهاق فى المخ (كما يحسب الكثيرون) ، بل هو إما نتيجة للمعيشة غير الصحية التى تترتب فى العادة على العمل العقلى ، وإما نتيجة قلق واضطراب فكر وشعور بخيبة ، وهذا هو النوع الغالب ؛ أى أنه بالاختصار نتيجة لأسباب وجدانية أكثر منها عقلية .

إذن فالفكرة القديمة التى ترى أن المبرر الوحيد للفراغ هو أن يعطينا فترة راحة نسترد فيها نشاطنا العقلى ، إنما هى فكرة مبنية على تشبيه خاطىء ؛ فليس من اللازم أن تكون المسامحات خلواً من العمل ، ولا أن تخصص نهاية

كل أسبوع للنوم . إن أحسن طريقة للاستجمام ليست فى الوقوف عن العمل ، بل فى تنويع العمل العقلى ؛ وما العقل المستريح بتاتاً عن العمل بمستفيد ، ولكنه معرض للضرر ، فهو فى الحقيقة أقرب إلى أن يصدأ منه إلى أن يستجم .

على أن الفراغ لم يتغير فى مقداره فقط ، بل فى طبيعته أيضاً ؛ فمخترعات العلم لم تقصر ساعات العمل فحسب ، ولكنها أوجدت مصادر جديرة للتسلى فى فترات الفراغ ؛ فالعربة والسينما والحاكى والراديو كل أولئك وسائل للتسلية والتحرر من الجهد ، لم يحلم بها آباؤنا وأجدادنا . ولقد أخذت الدولة — فى طريقة مباشرة أو غير مباشرة — تساعد هذه الظاهرة ؛ فلدينا الآن مكتبات عامة ، وملاعب وحمامات عامة ، ومعارض فنية ، ومتاحف وفرق موسيقية ، وهيئة للاذاعة قامت بتشريع من البرلمان ؛ وكثير من الممالك الأوروبية بها مسارح ودور أوبرا تعضدها مالية الدولة . بهذا أصبح الفراغ أكثر من مجرد فترة جوفاء بين مسافتين من العمل ، وصارت جهودنا فى طلب اللذة أشد وأكثر جلبة وتنوعاً ، وأهدى سبيلا فى بعض نواحيها .

ما أثر هذا التغيير المزدوج إذن ؟ لقد تميزت المدنيات الراقية دائماً بمنتجات فراغها ، أكثر مما تميزت بمنتجات عملها . فهل هناك أى أمل فى أن نصل فى هذا العصر الديمقراطى من طريق الفراغ إلى مثل الثقافة الراقية التى وصلت إليها طبقات الفراغ المترفة فى بلاد اليونان وفلورنسه وفرنسا ؟

لنبدأ نحن علماء النفس فنبحث كيفية صرف الرجال والنساء الآن أوقات راحتهم ؟ ما الذى يدفعهم إلى اختيار هذه المتعة أو تلك ؟ إذا مضينا

فى بحث كهذا فقد نستطيع أن نتنبأ بالنتائج التى سيتمخض عنها هذا الانقلاب فى طرائق حياتنا ، وأن نعرف نوع الرجال والنساء الذين تخلقهم الظروف الجديدة لا فى العمل فحسب ولكن فى الفراغ أيضاً .

ما أعظمها من فائدة لو أننا استطعنا أن نقوم باحصاء لأنواع ما يشتغل به الناس فى ساعات فراغهم، على مثال إحصاء الأعمال التى تعتبر — رسمياً — أعمال « كسب » . ليس هناك من شك فى أننا سنجد بعض الشواغل — إلى حد ما — تدخل تحت النوعين معاً ؛ فما هو عمل عند فرد ما ، قد يكون هواية عند آخر . وإنك لتجد أحيانا أن ما يشتغل به بعض الناس فى مساماتهم وفى أمسيتهم ليس إلا استمراراً لما تفرضه عليهم تجارتهم أو مهنتهم . اقرأ حياة أى عصامى مشهور مثل «إديسون» أو «لنكون» أو « فورد » تجد أن هذا هو عين ما شغل به فترات الفراغ ، وبذا ترك الكسالى من ورائه ، ووصل إلى قمة النجاح والمجد . على أنك لو نظرت إلى شخص أقل من هؤلاء طموحا وجدت أحب شواغل الفراغ إليه فى الغالب ما كان مخالفاً لنوع عمله ، لا ما كان استمراراً له ، ووجدت اختياره عبارة عن رد فعل يطلب فيه مهربا من الحياة اليومية القاسية . فهو فى ساعات راحته يجرى وراء إشباع بعض قدراته الانسانية التى لا يشبعها أثناء عمله فى مكتبه أو مصنعه . وحيث يكون عمله ثقيلا شاقا على جسمه غير شاغل لعقله ، تجده يملأ لحظاته الحرة بوسائل من التسلية ، ويشترى صندوقا من السجاير لنفسه وآخر من الحلوى لرفيقه ، ويستعد للاستمتاع بما يعرض عليه من أحداث مفاجئة ومغامرات تروع القلوب والألباب .

فى الولايات المتحدة يذهب ١٢٠ مليونا من الناس إلى دور الصور المتحركة كل أسبوع ، ويصرف الجمهور الأمريكى من دخله السنوى ١٣ ٪

على الطُّباق و١١ ./. على الحلوى و١٠ ./. على السينما و٨ ./. على الألعاب الرياضية (ويدخل فى ذلك رحلات النزهة فى السيارات) و٥٠ ./. على ما يسمونه المشروبات غير المسكرة و٣ ./. على الراديو و½ ./. فقط على الكتب .

فما تأثير كل تلك المستحدثات على العالم الجديد ؟ لنبدأ فنبحث أولاً آثارها فى مختلف طبقات الهيئة الاجتماعية . إن أظهر أثر لها من تلك الناحية هو محو الفروق بين الطبقات ؛ فوسائل التسلية التى كانت وقفاً على الأغنياء أصبحت الآن أنواع رخيصة منها فى متناول الطبقات الوسطى والفقيرة ، حتى لقد صار عامل اليوم فى الواقع يحظى من الألعاب ووسائل اللهو بأكثر مما كان يتمتع به الغنى منذ قرنين . وهو وإن كان استعماله لوقته خشناً وغير مهذب ، إلا أنه آخذ فى الحرص على وقت فراغه وفى الإصرار عليه . وهو يطلب من المسامحات مثل ما يتمتع به صاحب العمل الذى يوظفه .

ولكن هناك نتائج أخرى لا تقل عن هذه وضوحا : فلقد زادت سرعة السفر ، وأصبح الكثير منه ميسوراً فى ساعات من الفراغ قليلة ، والمسافة التى كان الشريف يقطعها على ظهر جواده فى يوم ، أصبحت اليوم تقطع فى أقل من ستين دقيقة فى سيارات الأسفار الكبيرة . وقد نتج عن هذا أن كثر ذهاب الرجال والنساء من كل طبقة إلى الريف ، ومشيهم فى مناكب الأرض — على نمط السياح الأمريكيين ؛ وهم فى تجوالهم هذا يختلطون بالطبقات الموسرة على قدم المساواة ؛ فكاتب المصرف يسافر إلى مكان عمله أو يذهب لمشاهدة الألعاب الرياضية مع البارون جنباً إلى جنب ، والفتاة العاملة فى أحد المتاجر ترتدى ثيابها المسائية وتذهب بقطار تحت الأرض إلى

المطاعم الفخمة فى قلب لندن . وهكذا يستطيع الفقير أن يراقب الغنى ، وأن ينتقد الغنى ، وأن يقلد الغنى . وهكذا أصبحت الملابس والآداب والعادات — فى كل بلد وفى كل قطر متمدين — سائرة إلى التوحيد .

ولقد زاد ظهور السينما والراديو فى هذا الأثر : فذو الكوخ الحقير يملك الآن جهازاً لاسلكياً لسماع الإذاعة ، وأفقر الأسر تزور دار الصور المتحركة مرة كل أسبوع ، وهم يرون على شاشة الخيالة سلوك الأغنياء (أو على الأقل كما يبدو ذلك السلوك لفن مخرج هوليود — أو كما يظن ذلك المخرج أن هذا هو السلوك الذى يتوقعه الجمهور) . وبهذا يتميز نموذج واحد غالبا من التصرف ، وتأخذ الفروق المحلية فى الاضمحلال ؛ وإن الراديو الآن لينقل موسيقى الرقص والأغانى والكلام الفصيح إلى أبعد الأكواخ ، فلم يعد أسلوب النطق فى مدرسة ما من المدارس العامة لهجة غير مفهومة للجماهير ، ولم يعد يرى الناس فيها مجرد حذلقة وادعاء .

ليست الفوارق بين الطبقات فحسب آخذة فى التلاشى ، بل إن الفوارق بين الريف والحضر سائرة إلى هذه الغاية ؛ فقد اضمحل أو كاد ذلك الفارق بين حياة القرى وحياة المدن ، وقد اقتربت المدن من القرى والقرى من المدن ، وليس فى انجلترا الآن من قرية صغيرة إلا بجانبها مدينة أو بلد ذو سوق ، أو بندر كبير يمكن الوصول إليه بسكة الحديد أو بالسيارات العامة . تصور الحياة الريفية فى قرية صغيرة فى إنجلترا فى أحد الأمسية الشتوية منذ قرن أو قرنين من الزمان : أما الرجال فربما مشوا إلى حانوت القرية ، وأما سائر الأسرة فقد تجمعوا فى حجرة صغيرة مملوءة بالدخان تضيئها شمعة ذابلة أو فتيلة مصباح صغير ، لا يستطيعون قراءة أو كتابة ، ولا يجدون ما يتحدثون عنه إلا النزر اليسير . وإذا طالت عليهم أسابيع

الملل لم يجدوا ما يسلون به الوقت إلا البحث عن العفاريت فى ضوء الشفق. وكان الناس طوال القرن التاسع عشر يهجرون القرى إلى المدن جريا وراء التسلية والابتهاج. أما الآن فقد انعكست الآية إذ انتشرت مستحدثات المدن فى القرى، فأصبحت كل بقعة من الريف ضاحية لأقرب مدينة إليها. وإنك لتستطيع الآن أن تسمع حيثما كنت فى أبعد الأماكن أحدث الروايات وأحدث الأخبار والألحان الموسيقية، على اللاسلكى أو على شاشة الخيالة. والرجل الذى يعمل فى مدينة ليدز أو ليفربول أو لندن يستطيع أن يعيش خارج البقعة الصناعية، وأن يسافر إلى مقر عمله جيئة وذهابا بالترام أو القطار؛ وإذا اضطر أن يعيش بجوار عمله استطاع أن ينجو من الدخان والضوضاء بالخروج فترات محدودة فى نهاية كل أسبوع للعب « الجولف » أو التجول على القدم إلى مسافات بعيدة.

إن النتائج المباشرة لكل هذا ظاهرة الوضوح: عقل أكثر حيوية عند الريفى، وجسم أصح لسكان المدن. ليس هذا فقط بل إن العالم كله أخذ يتقارب بعضه من بعض من غير نظر إلى بيئة خاصة: فالغنى والفقير والمتعلم وغير المتعلم والمدنى والقروى كل أولئك يتقاسمون الآن لذات واحدة، يلهون بنفس الملاهى، وتجدّ لهم تبعاً لذلك أفكار ومعضلات مشتركة، فإذا تقابلوا فهم كل منهم لهجة الآخر، لا بل اطمأن إلى وجهة نظره. وعلى هذا فقد بدأت تظهر روح جديدة من الأخوة. وإذا أراد العامل الآن أن يستعمل وقت فراغه فى أغراض سياسية كان أكثر فهماً لما يفعل، وأقدر على إفهام الآخرين؛ وإذا ارتقى ابنه فى المنزلة الاجتماعية إلى درجة أعلى لم تكن الحياة جديدة غريبة عليه غرابة تحرجه، فإن آداب السلوك اليوم آداب مجتمع قائم على المساواة؛ والاختلاط الاجتماعى قد صار فى كل نواحيه

أسهل وأحفل ، وأكثر حرية ، وأقل تعرضاً لأن تكدر صفوه التقاليد الضيقة والتحفظ وسوء الظن المتبادل .

ثانياً — لنبحث الآن هذه التغيرات فى الجنسين : لقد فتحت الآلة الكاتبة والتليفون وكل الظروف الجديدة الصناعية والتجارية أبوابا جديدة للنساء ، وأعطتهن استقلالا ، وجعلت لهن إيراداً خاصاً . فالمرأة اليوم تغادر المنزل إلى مكان العمل ، وهى بالضرورة تريد أن تغادر المنزل أيضاً بحثاً عن اللذة .

وليست المرأة التى تعمل خارج المنزل هى التى انتفعت وحدها بهذا التغير ، فلقد كانت جداتنا يشكون من أن عمل المرأة لاينتهى ، وكان أزواجهن يجيبون بأن مكان المرأة هو المنزل . أما اليوم فقد قللت المخترعات الحديثة العمل فى البيت كما قللته فى المصنع ؛ فالكهرباء تدفئ حجراتنا وتنيرها ، وتطبخ غذاءنا ، وتدير لنا المصاعد وآلات التنظيف . وقد قلّ عدد الأطفال وأصبح شراء الغذاء الجاهز المحفوظ فى العلب أرخص من ذى قبل . فالزوجة أو الأم قد أصبح لديها — إذن — بعد الحرب العظمى (الأولى) وقت أوسع ، ولديها من الفراغ ما يعادل نصيب زوجها أو أخيها ، وهى تطالب بقسط مساو لهما من الحرية فى استعمال ذلك الفراغ .

ما هى النتيجة الحتم لكل هذا ؟ أولا — مساواة بين الجنسين آخذه فى الازدياد ؛ وثانياً ، اختلاط بين الجنسين أكثر حرية : فالشبان والفتيات يذهبون الآن أزواجا إلى السينما أو إلى المراقص الرخيصة . وقد ساعد اختراع الأقمشة الخفيفة وما جلبته معها من تغير فى ملابس الجنس اللطيف على أن يأخذ النساء والبنات بقسطهن من الألعاب ، وعلى أن يشاركن المتجولين فى الريف فى تجوالهم الطويل . ومن هنا قل الاختلاف فى

وجهات النظر العقلية بين الجنسين ، وأصبح الأولاد والبنات يعرف بعضهم عن بعض أكثر مما كان يعرف آباؤهم .

وهكذا أصبحت الحياة بين الجنسين وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة سائرة إلى مستوى عام متشابه . غير أن هناك ظاهرة أخرى لعلنا نستطيع تمييزها : ذلك أنك تلمح فى داخل كل جماعة — بالرغم من أن المستوى أصبح أكثر توحداً — عدداً من الأنواع أكثر ، فإن الجماعات المختلفة لا تكاد تشرع فى الامتزاج حتى تأخذ عاداتها وقوانينها الأخلاقية فى التضارب ، ويبدأ يمحو بعضها بعضاً ؛ فليست فتاة المصانع اليوم مجبرة أن تلبس اللفاع وأحذية الخشب ، وليست المرأة اليوم من أى الطبقات ملزمة دائماً أن تلبس الثوب النصفى ، وأن تمتنع عن لبس السراويلات الطويلة أو القصيرة . وترى الناس فى كل أنحاء العالم قد بدأوا يغيرون أفكارهم وعاداتهم بالسرعة التى يغيرون بها ملابسهم ، فهم يجربون أطعمة جديدة ، ويطيرون إلى أماكن جديدة ، ويفتشون عن مصادر للهو لم تطرق من قبل ؛ وترى فى كل ناحية عادات قديمة تُنزع ، وميلا قويا إلى تجربة كل جديد .

لقد بحثنا الآن أمر الرجال وأمر النساء ، فما شأن الأطفال ؟ يخيل إلىّ أن أهم تغيير ذى بال فى توزيع الفراغ هو زيادة الفراغ المسموح به الآن للطفل ؛ فكثير من الأمثال التى كانت عزيزة على جداتنا من مثل : « ينبغى للطفل أن يُرى ولا يُسمع » و « إن الإقلال من العصا مفسدة للطفل » ، قد طوى زمانها ، وقلّ أن يتمثل بها اليوم أحد . والطفل الحديث فى المدرسة وخارجها يشجع الآن على الاسترسال فى حبه الطبيعى للنشاط الحر الطليق . وقد قل الآن تكليف الأطفال بالعمل خارج ساعات الدرس ، من مثل بيع الجرائد والاتجار فى الطرقات وتوزيع اللبن فى الصباح . وقد ذهبت الآن

إلى غير رجعة ، تلك الأيام التى كان يكلَّف فيها الأطفال تنظيف المداخن ، أو يعملون كالرقيق فى المصانع . وما ساحات اللعب الآن وميادينه — من ملاعب « كريكيت » فى الحدائق العامة ، ومن أرض مخصصة للألعاب الرياضية خارج المدن — وما الإجازات الريفية للأولاد والبنات بعد انتهاء الفصل الدراسى ، ما هذه وسواها من المستحدثات إلا دلائل على أننا نقدر حق القدر استعمال الطفل حريته واستمتاعه بها . ولقد تغيرت التربية نفسها بعد إدخال ما يسمى طريقة اللعب فى حجر الدراسة .

غير أن المواد الدراسية التقليدية — مهما أُتقنت طريقة تعليمها — ليست كافية فى إعداد الطفل لمستقبله فى الحياة ، بل ربما كان هذا الذى أُدخل على الحياة المدرسية مغريا للشباب على استثقال العمل حين يفرض عليه ، وعلى التسكع والبطالة بعد انتهائه . وإذا كان الواجب كما يخبرنا الثقات أن تكون التربية للحياة ، فقد وجب أن تشمل هذه التربية إعداداً للفراغ بجانب إعدادها للعمل . ولقد خطت المدرسة فى هذه السبيل أولى الخطوات إذ أخذت على عاتقها مراقبة وقت اللعب كما تراقب ساعات العمل ، وأصبحت الألعاب المنظمة الآن جزءاً ظاهراً فى نشاط كثير من المدارس الحديثة . أما خارج المدرسة فإن أهم حركة ذات مغزى هى حركة الكشافة والمرشدات ، وتلك ظاهرة لا تمثل الطريقة الجديدة فى استعمال الفراغ فحسب ، بل تمثل وجهة النظر الجديدة نحوه أيضاً . ولقد تحول الشعار القديم فى هدوء فأصبح الآن : « العب أثناء العمل ، واعمل أثناء اللعب » — وتلك قاعدة سيكلوجية صحيحة ، جديرة أن يعمل بها الراشدون أيضاً .

ولكن العامل الذى كان له أكبر تأثير فى وقت الفراغ عند الطفل هو السينما ، فما هو مبلغ أثرها فى هذا العقل النامى ؟ أهى تشجع الحدث

على تقليد الجرائم التي يشاهدها على الشاشة ؟ أهي تقوده إلى أن يظن أن المثل الأعلى للعيش هو تلك الحياة المرحة المستهترة التي يحياها نجوم السينما في هوليود ؟ أم هي تعطيه صوراً حقيقية لهذه الدنيا العريضة ، وتساعده على أن يتعمق إدراك ما علم في المدرسة ، وعلى أن يفهم ظروف الحياة حوله فهماً واضحاً ، وبذلك تعده لأن يأخذ مكانه الحق في الحياة رجلا تام النمو ؟

هذه الأسئلة وأشباهها ليست إلا جزءاً من معضلة أكبر يمكن تصويرها في السؤال الآتي : ما الذي يدفعنا جميعاً ، رجالا ونساء وأطفالا إلى صرف أوقات فراغنا في هذا النشاط الذي يبدو عديم الجدوى ؟ ليس هناك من حيوان آخر في الوجود كله يبذل مثل هذا المجهود وتلك الطاقة في عمليات مثل هذه غير ضرورية . فما الباعث على هذا ؟ نحن في العادة ننسب هذا إلى البحث عن اللذة ؛ ولكن هذه سيكلوجيا خاطئة فالذي تجدُّ في طلبه هذه المخلوقات ليس اللذة بل هزة الاستثارة ، وليس السعادة بل نشوة الطرب .

إن الإستثارة لسهلة ، وسبيلها تنبيه الغرائز الفطرية التي كانت تُشبع تمام الإشباع في الأزمنة الوحشية الأولى ، في الجهاد اليومي للبقاء ، من تصيد للطعام ومقاتلة للعدو وضرب في الأرض بحثاً عن المراعي الخصبة . ولولا هذه الميول الفطرية ما عاش الإنسان ولا قبيلته . أما الآن — في حياة الجماعة المتمدينة — في المصنع أو المتجر أو المكتب ، فلا حاجة إلى عمل هذه الغرائز ؛ ومع ذلك فنحن لا نزال نتوارثها ، ولا سبيل إلى محوها وستظل أقوى العناصر وأعمقها في تركيبنا العقلي ، ومن هنا وجب أن يوجد لها منفذ في الفراغ واللعب .

وقد أصبح القيام على هذه الغرائز وإشباعها من أربح التجارات في الحياة الحاضرة ، فلا شهوة تهمل ولا ميل يتجاهل : الحانوت والمطعم يستغلان

حاجات الظمأ والجوع ، ويحولانها إلى ضروب من تمضية الوقت ؛ وصالة الموسيقى والمرقص والرواية الرخيصة كلها تحاول من طريق خفى أن تنبه الغريزة العامة — غريزة الجنس ؛ كما أن المصارعة وكرة القدم والكريكت وسائر الألعاب التى تحتوى منافسة ومباراة إنما تنبعث فى الغالب من غريزة العدوان؛ وغريزة حب الظهور تجد إشباعها فى الملابس؛ أما غريزتا الاستطلاع والتجول فإنهما تجعلان منا جوالين نضرب فى الأرض ونملأ أعيننا من كل ما يصادفنا ؛ وغريزة القطيع تدفع بنا زرافات إلى مشاهدة المباريات والسباق وما شابههما ، أو على الأقل تجعلنا نذرع الشوارع المضاءة جيئة وذهابا ؛ والقمار والرهان وكسب جوائز الصحف كلها تتوقف على الاستثارة الشديدة لغريزة التملك ، وإلى ما فى توقع إشباعها إشباعا دسماً سريعاً من لذة بالغة . وهناك أخيراً أشرطة السينما وما لها من مستقبل أوسع مما لأى منبه آخر ، إذ تزودنا بأحلام يقظة جاهزة ، نستطيع بها — طول عصر يوم أو مسائه — أن نتخيل أنفسنا أبطالا مغامرين ، أو بطلات فاتنات ، أو أمراء أو من ذوى الملايين ، أو نجوماً مسرحية — على حسب أجناسنا وأذواقنا .

يمكن أن نقول — إذن — إن كل ما نشغل به أنفسنا وقت الفراغ يحقق — فى طريقة مصطنعة خيالية فى العادة — تلك الرغبات الفطرية التى تبقى فى ساعات العمل غير مشبعة ، بل إلى حد ما مكتومة . والواقع أن نظام الحياة الصناعية الرتيب الممل يثير — بطريق رد الفعل — رغبة مُلِحة فى المؤثرات الحسية ، وهذه الملذات البدنية إنما تخدم تلك الرغبة . فكأن الاستثارة الوجدانية — لا السرور — هى التى تهيئ للعامل المتعب أنجع علاج طبيعى وأسرعه .

ترى إذن ماذا سيكون التأثير النهائى — لهذا الظمأ الجديد إلى الاستثارة —

على الجيل الناشىء ؟ وإلى أين يقودنا ؟ أليس سينشىء لنا صنفا من الناس هازلا ، غير أهل لتحمل المسئوليات ، يحاول أن يغرق متاعب العمل — ويتناسى قرب الحرب العالمية المقبلة — فى عاصفة من اللهو والمرح ؟ ألم نفقد بهذا تلك الصبغة العقلية الجادة التى امتاز بها العصر الفكتورى ؟ ألسنا بهذا نرجع القهقرى إلى نوع من الحياة أكثر خشونة وإمعانا فى وادى الغريزة والفطرة ؟

أظن أننا فى غير حاجة إلى أن نحكم على الجيل الناشىء بعد الحرب الماضية حكما قاسياً ؛ فلو أننا استطعنا أن نرجع الذاكرة إلى نحو مائة سنة مضت ، ونستعرض أنواع النشاط الفراغى فيها ، لوجدنا نفس الغرائز ممثلة فى معظم تلك الأنواع ، فى شكل قد يكون أقل رقة وتهذيباً من الوقت الحاضر . وإلا فهل يعتبر سباق الكلاب أحط فى التسلية من قتال الديكة وإرسال الكلاب على الدِّبَبة ؟ وهل السينما أكثر من الحانة إضعافا للأعصاب ؟

على أنه ما دامت الغرائز موجودة ، فقد يكون أفضل أن نجد لها منفذاً آمناً ، من أن نكبت كبتاً . أضف إلى ذلك أن هذه الغرائز — كما أسلفنا — يمكن أن تدرب وتعلى ، وكل ما نحتاجه فى هذا هو دراسة أحسن طريقة لاستعمال الفراغ ؛ فمعظمنا فاشلون فى فنّ الحياة لأننا تعوزنا المعرفة والمران ؛ وليست اللذات الرفيعة إلا أذواقا كونت ثم هُذبت ، وما التمتع بالموسيقى أو الرسم أو الأدب — عند من يتمتعون به — إلا شىء قد جاءهم من طريق الصدفة السعيدة . ولكن لِمَ نترك ذلك للصدف ؟ إن الجيل الناشىء يجب أن يُعلم كيف يستعمل ساعاته الحرة التى لا تفتأ تتزايد . خذ مثلا غريزة الإنشاء أو التركيب : إن هناك قوماً يجعلون شغلهم الشاغل فى أوقات فراغهم الاتجاه إلى الإنشاء أو التركيب أو كسب المهارة الضرورية ،

ولكن ما السر فى قلة عددهم ؟ إن اللذات الرفيعة — لو عرفنا — أعظم اللذات إرضاء ، وأكثرها ثمرة ، وكثير من الأعمال العظيمة التى خلفها لنا الماضى كانت نتيجة لبعض لحظات من الفراغ . بل إن كثيراً من عظماء الكُتاب ، وأكابر العلماء ، ومشهورى الرسامين والموسيقيين ، إنما أنجزوا الأشياء التى اشتهروا بها فى أوقات فراغهم : فقد كان « كيتس » (الشاعر) مساعد صيدلى ، وكان « لام » (الأديب) كاتباً فى دواوين الحكومة ، وكان « ماثيو أرنولد » (الشاعر الناقد) مفتش مدارس . وقد نظر معظم هؤلاء إلى ما نسميه نحن عملهم فرأوا فيه — لا عملا — ولكن شاغلا مفيداً لساعات فراغهم . ولعلكم تذكرون كيف أعجبت الملكة (فكتوريا) بكتاب (ألس فى بلاد العجائب) حتى لقد بلغ من شغفها به أن طلبت نسخة من الكتاب التالى الذى أخرجه مؤلفه بعد ذلك . وما كان أشد ارتياعها حين جاءها الكتاب فإذا عنوانه : (الكتاب الخامس من إقليدس بالطريقة الجبرية) ، ولم يكن قد خطر على بال الملكة من قبل أن كتاب (ألس فى بلاد العجائب) لم يكن إلا تسلية تسلى بها فى مسامحته أستاذ جامعى فى إحدى كليات أكسفورد ، كان عمله الرسمى أن يحضر طلبة الجامعة لامتحان الدرجة فى العلوم الرياضية .

هناك الآن علائم تدل على أن الجيل الجديد قد بدأ ينظر إلى الأمور نظرة جدية ؛ ففى ألمانيا وفرنسا — وإلى درجة أقل فى إنجلترا وأمريكا — بدأت تظهر حركات للشباب — غير مفروضة من الخارج بل ينظمها الشباب أنفسهم[1] . وهذه الحركات تختلف باختلاف الأحوال ؛ فبعضها يرمى إلى

(١) كتبت هذه المقالات قبل الثورة النازية فى ألمانيا ، ولكن هذه الحركة تعتبر إلى حد ما جزءاً من رد الفعل الذى نتحدث عنه . (المؤلف)

الرجوع للطبيعة — إلى حياة أصح وأهدأ وأبعد عن ضوضاء المدنية — وبعضها يرمى إلى الإصلاح الاجتماعى . أضف إلى هذا أن ما يحدث فى المدرسة عند بدء إدخال النظام الحر محتمل أن يحدث فى الطبقات الحديثة التحرر ، وأول مرحلة فى هذا إباحة ثائرة ، وفوضى لا ضابط لها ؛ ثم يعقب ذلك بحث وراء أنواع من النشاط أكثر إرضاء للنفس . وإنى أعرف شابا بَناء ، أمنيته الوحيدة أن يجيد كتابة اللغة الانجليزية ليستطيع أن يؤلف رسالة من الطراز الأول على موضوع البناء باللَّبِن . وأعرف كذلك سائق سيارة أجرة ، أكبر آماله أن يجيد العزف على جميع الآلات الموسيقية . أنا بالطبع لا أتخذ هذين نموذجا ، ولكنهما يؤكدان لى أنهما يجدان من اللذة والارتياح فى هذه الهوايات الجديدة أكثر مما يجدان فى لعب الورق أو حل ألغاز الكلمات المتقاطعة .

وعندى أن التفكير السيكولوجى لهذين أصح من تفكير بعض الناس الذين يظنون أنهم يستطيعون الحصول على اللذة من غير عمل فى سبيلها ؛ اللهم إلا أن يغمضوا أعينهم ويفتحوا أفواههم وينتظروا السرور أن ينزل عليهم ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل فى حفلة من حفلات عيد الميلاد . إن مشاعرنا تسير حسب قانون متناقض فى ظاهره ، ينص على أن اللذة فى نفسها أقل إرضاء لصاحبها من العمل اللذيذ ؛ فالتهام اللذات يشبه فى الواقع التهام خمر النبيذ أو البراندى ، وشأن الاستثارة العقلية شأن «الكوكتيل» والكوكايين — سرعان ما تنطفىء جذوته ، ويترك وراءه من السآمة والملل أكثر مما أراد أن يطرد ، ويدع صاحبه فى حاجة إلى مقادير منه أقوى وأكبر ، حتى يقضى من المتعة أربه .

إن اللذة فى نفسها ليست هدفا ، ولكنها طريق مسدود من أحد

نهايتيه ؛ وأضمن وسيلة إلى السعادة ألا تتجه نحوها مباشرة ، ولا يمكنك أن تشترى السرور بالجنيهات والشلنات والبنسات كما تشترى المثلجات أو تذكرة السفر إلى (مونت كارلو) ، وإنما يفيض عليك ويغمرك دون أن تبحث عنه وتتوقعه ، وأنت منغمس فى عمل آخر . فابحث إذن عن شواغل للفراغ تدر عليك مقداراً متزايداً — لا متناقصا — من الرضى والارتياح ، وإنك واجد هذه الشواغل فى كسب مهارة أو بناء أثر خالد من آرائك ومن نشاطك . إن أعظم الشواغل إرضاء لصاحبها هى تلك التى تقوده من انتصار ضئيل إلى آخر ، دون أن تصل إلى نهاية لا يمكن تخطيها ؛ وتعلم لعبة ما أبلغ فى جلب السرور من مجرد مراقبتها ؛ ومحاولة تذوق أنواع جديدة من الجمال بهجة لا حد لها . وأحسن من هذا كله محاولة خلق أنواع جديدة من الجمال : غير أن كل هذا بالطبع يستلزم عملا وجهدا متواصلا — (لا كسلا وتراخياً) — عملا تأتيه مختاراً خارج دائرة عملك الرسمى الذى تكسب منه القوت ، ولكنه ليس مجرد إجهاد ، بل هو عمل يتفق وما تهفو إليه نفسك وتلذه .

وهكذا ، على ممر الزمن ، قد يكون القسط الذى يقوم به الفرد نحو ترقى نفسه ، أو نحو حياة الجماعة ، لا نتيجة ساعات عمله ، ولكن نتيجة ساعات فراغه . وهكذا يتسع الفراغ فتختفى الحدود بينه وبين العمل أو تكاد . فمتى وصلنا — إذن — إلى المثل الأعلى فى هذا فسنجد أنفسنا فى الجنة التى وصفها الكاهن المجنون « تلك الجمهورية التى يكون فيها العمل لعباً واللعب حياة : ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة » .

الفصل الخامس عشر

سيكلوجية الفن

إن سيكلوجية الفن تحتوى معضلتين كبيرتين : خلق الجمال ، والمتعة بالجمال ، أو بعبارة أخرى — سيكلوجية الفنان وسيكلوجية المتفرج . فلنبدأ من هذين بموضوع الفنان .

— ١ —

١ — لقد وُصف الفن بأنه « أرقى مظهر للروح الإنسانى » ، ووصف الفنان نفسه بأنه عبقرية ملهمة مرسلة من السماء ، وأن درجته من أفضل درجات البشر . ومن هنا كان السؤال الذى يواجه عالم النفس فى مستهل بحث كهذا هو : هل الميل الفنى ملكة فردة وموهبة خاصة ؟ أم هو مجرّد ثمرة تفرعت من الخطوات العقلية العادية ونمت نمواً طبيعياً ، وأن شيئاً منه موجود عند كل رجل وكل امرأة ، وأنه مما يدخل فى حياتنا ومعاملاتنا اليومية ؟ واجه العلماء هذه المعضلة بأن درسوا طرق الفنان وبواعثه ، متبعين فى هذه الدراسة مناهج البحث العلمى ؛ فدرسوا حياة «جوته» و «زولا» و« بيرن » و « كيتس » و « ڤاجنر » و « بيتهوفن » و « ترنر » و « ليناردو » وكثيرين غيرهم ، ووازنوا بينهم ، ولم يهملوا شيئاً مما يمكن أن يلقى ضوءاً على النمو العقلى عند هؤلاء الفنانين ، وعلى النواحى الخاصة التى نبغوا فيها . ولم يكتف عالم النفس بهذا بل استدرج الشعراء والمصورين

إلى معمله ليقيس درجة تأثرهم ويخبر قواهم العقلية . كل هذه النواحى من البحث أدت إلى نتيجة واحدة : ذلك أن الفنان — من حيث ذكاؤه العام — ومن حيث موهبته الخاصة — رجل مزوّد بهبات فطرية نادرة . غير أن الفرق فرق فى الدرجة لا فى النـوع ، فالمقدرة على خَلق العمل الفنى — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف على ملـكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحيـاة العقلية الطبيعية .

ب — وقد يسهل فهم هذه المعضلة إذا حاولنا أن نتعقب الفن إلى مصادره الأولى ونرى كيف نبع . وهنا يستطيع عالم النفس أن يستمد شيئاً كثيراً من الضوء من سجلات المظاهر الفنية الأولى عند الإنسان المتوحش وعند الطفل .

ويرى بعض الباحثين أن الفن — أياً كانت مظاهره — ليس فى أصله إلا نوعاً من اللعب ؛ فالرجل الذى يصنع لحناً ، والرجل الذى يستمع إلى لحن ، كلاهما يشتغل بنوع من اللعب ، كلاهما يلعب بانفعالاته . فالانفعالات قد وهبت لنا — لا من أجل نفسها — ولـكن لمـا تثيرنا إلى الوصول إليه من الآثار العملية . إن كل وجدان وكل فـكرة تميل إلى أن تحقق نفسها فى حدث ما ؛ فأحيانا يكون ذلك الحدث نافعاً فنسميه عملا ، وأحيانا يبدو مجرد حدث زائد عن الحاجة فنسميه لعباً . على هذه القاعدة يمكننا أن نعتبر جولة من جولات كرة القدم إنتاجا فنياً ؛ أما الرقص فمنزلة بين المنزلتين ، فالراقص فى إحدى صالات بعد الحرب لا يدرى أهو مشترك فى شكل قديم من الفن أم فى شكل حديث من اللعب .

ووجه الشبه بين الاثنين هو أن كلا الفن واللعب يبدو عديم النفع رغم

كونه مثيراً حافلا بالهوى والانفعال . وهذا هو السر فى أن الجدات فى العصر الفكتورى (فى انجلترا) كن ينظرن بغير عين الرضا إلى الفنانين وإلى مظاهر التسلية ؛ فاللعب ليس عملا ، ومن هنا اعتبر مضيعة للوقت ؛ والفن ليس شغلا ، ومن هنا نظر إليه بعين الاحتقار . ولهذا لن تجد — على ما أعتقد — عصراً كذلك العصر ، جمع بين النجاح والأخلاقية والدقة العلمية ، وبين الدمامة البالغة .

إن حجج أهل ذلك العصر وجيهة ومعقولة إلى حد ما ؛ فأنت فى اللعب وفى الفن تهيج غرائزك وانفعالاتك ، ولكن لغير ما هدف عملى ظاهر . ويتضح التماثل أكثر إذا درسنا طائفة من كليهما فى تصرف الطفل النامى .

هب كلباً أراسياً ضخماً انطلق يعوى خلف بنتك الصغيرة ؛ إنّ حجم ذلك الحيوان وعواءه الصاخب سيثيران عند الطفلة غريزة طبيعية هى الخوف ؛ وذلك الخوف يتجلى (فى طريقة آلية) فى الهرب وصراخ الاستغاثة . وظاهر أن الحركة والصراخ كليهما هنا نافعان لأنهما يعينان على النجاة من الخطر . ولكن هبك تظاهرت بإخافة بنتك بأن دفعتَ دُميتها نحو وجهها ، فمن المحتمل جداً أن تسرّ الطفلة بهذه الجرعة القليلة من الخوف ، وكلما قرّبت الدمية منها صاحت فى انزعاج لذيذ : مرة ثانية يا أبى ! ومن الواضح فى هذه الحالة أن كليكما يلعب بالخوف ؛ إلا أن هذه الدراما التى اخترعناها ليست مجرد تمضية للوقت ، فالطفلة فى تجاربها اللاعبة إنما تمرن نفسها للحالات الهامة التى ستعرض لها بعد فى الحياة ، وتتعلم كيف تضبط انفعالاتها وكيف تستعملها . وهذا — كما رأينا فى فصل سابق — هو السر فى أن الطبيعة تشجعنا على أن نلعب .

غير أنه ليس من الضرورى لهذه الطفلة — « مارى » — أن تعتمد فى

إثارة انفعالاتها على أبيها أو على حيوان يخيفها ؛ فقد يؤثر فيها صحو النهار وإشراق الشمس فتشعر بقوة الحياة وبهجتها ، وتبدأ تقفز أو تترنم لنفسها ، وبهذه الطريقة تتخلص من نشاطها الزائد . وهى إذ تقوم بهذا إنما تشد من عضلاتها النحيفة وتزيد فى سرورها واغتباطها . وهذا المدّ والجزر فى أحاسيسها سينسج من حركاتها وأصواتها نموذجا خاصاً من حركة تعبيرية ومن رقص وغناء . وهكذا — فى هذه الحركات والأصوات اللاعبة ، التى تنبعث حرة مختارة — نرى الأشكال الأولى للفن .

هذا هو شأننا على الخصوص حيث لا تجد وجداناتنا المتوقدة عملا جوهريا تشتغل به ، فتراها تصرف نشاطها فى تمارين تعبيرية من هذا النوع . وهذه هى الحالة الطبيعية عند الطفل الصغير حيث يقوم الآخرون على حاجاته ، وحيث يجد نفسه حرا يلعب هنا وهناك . فلنعد مرة أخرى إلى مثالنا الأول ، إن «مارى» — التى تحررت لحظة من الرقابة الأبوية ، ثم رجعت تعدو إلى المنزل وهى تلهث من الخوف صائحة : «أبت ! أبت ! اقفل الباب ، إن كلبا يتبعنى» — لم تكن فيما تقول لاعبة ، ولا مشغولة بمجهود فنى ، وإنما هى تقرر حقيقة وتبعث بصيحة استغاثة . غير أن مخاوفها تعود إليها فى المساء حيث يحتويها مخدعها ، وحيث تعرف أنها بمنأى عن الخطر ، فتبدأ تقص مخاطراتها من جديد ؛ وهذا القصص فى الحقيقة يخدم غرضين : الأول أن يزيل ما بقى عندها من خوف وفزع ، والثانى أن يعيد إليها ذلك التأثر ، ولكن فى جو آمن مريح فتسر وتتمتع به . هذا القصص — إذن — يقرب كثيرا فى طبيعته من العمل الفنى ، وهو كما يقول ورد زورث ، «التعبير عن الانفعال مستعادا فى هدوء»[1] . ولا يمضى طويل وقت حتى

(١) هذه عبارة مشهورة للشاعر الإنجليزى الناقد «وردزورث» ترد فى معرض كلامه عن الشعر وطبيعته فى المقدمة التى قدم بها لمقطوعاته الغنائية (lyrical Ballads)

تظهر ميول نفسية أخرى عند هـذه الطفلة وتنضم إلى الميل الأول . فمن ذلك غريزة إظهار النفس (حب الظهور ، محاولة الفرد توجيه اهتمام الآخرين إلى أحواله) ، والغريزة الاجتماعية (الرغبة فى التعاطف — نزوع الفرد إلى إيصال تجاربه إلى الآخرين) ، وغريزة البناء أو التركيب (التلذذ بتركيب شىء جديد أو إنشائه) . فترى الطفلة — فى طريقة لا شعورية غالبا — تصقل حواشى مخاطرتهـا الفعلية فتقول : « لقد كان الـكلب يقرب فى عظمه من الفيل » ، و« كانت عيناه تبرقان كأنهما مصباحان » . وربما كانت الحادثة كلها أحيانا من اختراعها . إلا أنه سواء أ كانت القصة حقيقية أم مجرد خيال فإن الباعث عليها واحد ، ذلك هو تصريف المقدار المتجمع من الخوف . فألفاظ الطفلة فى هـذه الحالة ليست طلبا للنجدة ولـكنها وسيلة لتخفيف الضغط الانفعالى ، فى نوع من التعبير الخارجى . ووظيفتها — كما يخبرنا « أرسطو » — أن تطهر العقل من وجداناته المتعبة . ولو أن الطفلة لم تهز مخاوفها فى طريقة كهذه لـكان من المحتمل أن يضايقها فى تلك الليلة كابوس ثقيل .

إن الفنان فى صالته والشاعر أمام مكتبه لا يختلفان عن الطفل فى منزل الطفولة ، فكلاهما فى إنشائه لفنه يُنفس عن وجدان زائد لم يجد إشباعا كافيا فى عالم الواقع . وكذلك القارىء والمتفرج والسامع كلهم يُروح عن نفسه بمعونة ما عند الفنان من مهارة فائقة . فليس الفنان إذن ولا الشاعر بمعنِىٍّ مباشرة بحقائق الحياة كما هى ، ولا هو محـاول رسم خطة لشىء نافع فى الغد ، ولا هو يحاول كذلك تسجيل حوادث اليوم . وهذا هو السر فى أننا أحيانا نسمى العمل الفنى عمل الخيال . وقد يكون أحسن أن نُعرض أنفسنا لتناقض ظاهرى فنسميه عمل اللعب .

ح — ومع هذا فاللعب الفنى — شأنه شأن كل أنواع اللعب — قد يؤدى خدمة غير مباشرة ، فهو — من طريق خفى — ينبعث من الماضى ، ويعبر عن رغبة مبهمة نحو المستقبل . وهو نوع من التعويض لشىء هفت إليه نفوسنا ، ولكنها عجزت أن تحصله . وهو يهىء منفذاً لانفعالاتنا الهائجة ، ويعيننا فى الوقت نفسه على أن نضبط هذه الانفعالات وننظمها ، وذلك بأن نستخدمها فى أحوال خيالية . نحن الآن نعتقد — كما يعرف كل مدرس — أنه حتى ألعاب الأطفال تقوم بوظيفة أساسية فى تربيتهم الوجدانية . والفن كذلك — سواء منه التعبير الفنى عن النفس أو التذوق الفنى — ينبغى أن يعطى مكانا ظاهرا فى منهاج المدرسة كوسيلة لتنمية الميول الصحية وتهذيب الوجدانات الخشنة . أنا لا أقول إن هذا هو الباعث الوحيد على إدخال الفن ، ولكنى أقرر بكل ما أملك من قوة أنه من المهم سيكلوجياً أن نربى كل نواحى الإنسانية فينا — أن نربى حاسة الجمال مع حاسة الخير والصدق . وأنا أرى أن التربية الفنية — التى من شأنها أن تساعد فى تكوين الخلق — متمم لا بد منه للتعليم المدرسى ، الذى يغلب عليه فى حالته الحاضرة أن يكون لغويا أو علميا أو عمليا .

فمن دراستنا للطفل — إذن — نصل إلى النتيجة المثمرة التالية وهى : أن الفن فى جميع مظاهره يرجع إلى بعض انفعالات قوية لم تجد لهـا منفذا طبيعياً فى حياتنا اليومية وضروراتها الحيوية أو العملية . وهذا يوصلنا إلى نقطة ثانية أسفرت عنها الدراسات الحديثة للإنسان الراشد المتمدين ، تلك هى أن الفن فى كثير من نواحيـه ليس إلا تمنيا أو تحقيقاً خياليا لرغبة لم تحقق فى الواقع ؛ فمن أمثلة ذلك أنك تجد سكان لندن يعلقون على جدرانهم صورا من رسم « كونستابل » أو « ليدر » ، ذلك لأنهم إذ ينظرون إلى هذه

الصور يستطيعون أن يقضوا بعض لحظات فى جوار الريف . وما « جنة الحب » التى رسمها « روبان » ولا « جزيرة سيذرا » من رسم « واطو » ولا « الحجاج يؤمون إيطاليا » — حيث السماء صافية الأديم » من رسم « ترنر » إلا دعوات يوجهونها إلينا لنشد رحالنا إلى الأرض التى تهفو إليها قلوبنا . إذن نستطيع أن نصرح أن الصورة أو القصيدة أو الرواية ليست فى الغالب إلا تحقيقاً لحلم من أحلام اليقظة نريه الآخرين ، أو نصوره على صفحة من الورق أو القماش .

إن الدراسات التى قام بها علماء التحليل النفسى على الأحلام وأحلام اليقظة قد ألقت جانباً كبيراً من الضوء على عمل العقل عند الفنان ؛ فالعمل الإنشائى الذى يقوم به الفنان يكون فى الغالب — مثل حلم اليقظة — نتيجة عملية لا شعورية ، وما يبدو للعيان مجرد لمحة من الإلهام أو ميلا إنشائياً فريداً ، إذا أنت فحصته بدا لك فى طبيعته المعقدة منبعثاً من ميول عدة ، تعمل عملها فى الأعماق تحت سطح الشعور . هذه الميول تستمر فى عملها اللاشعورى ما بقيت مكبوتة ، وتبقى آثارها بسيطة وغير مفهومة ما بقيت مصادرها خفية . ولكن متى تحقق الناس أن العقل — حتى فى مشكلاته العادية — يقوم بسلاسل من النشاط اللاشعورى ، تكشفت لهم ألغاز الإنتاج الفنى كل التكشف .

هذا — فى الواقع — هو الشرح الذى يعطيك إياه الفنان ؛ يقول « ستيفنسن » : إن الكاتب المنشىء العظيم يعرض علينا أحلام اليقظة — التى تجيش فى أذهان الناس — فى صورة محققة خالدة ؛ وقد تكون حكاياته ممزوجة بشىء من حقائق الحياة ، ولكن غرضها الحقيقى أن تشبع فى القارىء عدداً لا يحصى من الرغبات والأهواء ، وأن تخضع للقوانين التى

تسير عليها أحلام اليقظة . « ويروى «ستيفنسن» فى موضع آخر كيف بدأ هو يكتب تلك القطعة الفنية البديعة » قصة (دكتور جيكل ومستر هيد) ، فهو يقول فى وصفه لتلك العملية فى الفصل الذى عقده « عن الأحلام » : « إن العمل الحقيق يقوم به مساعد غير منظور أبقيه أنا داخل حجرة عليا مغلقة .. يقوم به أولئك الناس الصغار — فى الدماغ — الذين ينجزون لى نصف عملى وأنا مستغرق فى نومى ، وربما أنجزوا النصف الباقى وأنا مستيقظ تمام اليقظة ، حيث أظن أنى أنا القائم بالعمل . وكثيراً ما يعنُّ لى أن أعتبر نفسى — (ما أسميه أنا ذاتى الواعية ، ذلك الرجل ذا القبعة والحذائين ، ذلك الرجل ذا الضمير وصاحب الحساب المتناقص فى البنك) — كثيراً ما يعنّ لى أن أعتبره غير فنان بالمرة ، بل مخلوقا شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه » . هذه الصورة المستملحة تؤيدها إشارات من كتاب آخرين ، فهذا ڤولتير — وقد جلس مرة فى إحدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته — يصيح متعجباً : « أحقاً أنا الذى كتبت ذلك! » وهذه « جورج إليوت » — التى لم تكن تميل بها فلسفتها إلى الاعتقاد فى قوى نفسية غير طبيعية — تصرح أن قد خيل إليها أثناء كتابتها (Adam Bede) « أن عقلا آخر قد استحوذ على قلمها وسيّره » . ويقال أن « كوليردج » نظم أشهر قصيدة له وهو تحت تأثير الأفيون ، وأن « بليك » أعدّ هيا كل أعظم صوره وهو فى حالة نوم نشيط . وزعم «جوته» أنه كتب أحسن رواية له وهو فى غيبوبة حالة يشبهها هو بحالة النائم الماشى .

وإذا أردنا دليلا من الكتاب الأحياء ، فهذا بروفسور « هوسمان » يخبرنا عن الطريقة التى كتب بها قصائده إذ يقول : « أنا أظن أن إنتاج الشعر ليس عملية فاعلة (active) قدر ما هى قابلة (passive) وغير اختيارية » .

وهو يشرح كيف هبط عليه الإلهام فى كتابه (The Shropshire Lad) فيقول : « ربما شربت كأساً من الجعة مع غذائى — والجعة مسكنة للعقل ، وحالتى الذهنية على أقلها فى أوقات بعد الظهيرة — ثم خرجت للمشى ، وسرت وأنا لا أفكر فى شىء خاص ، فلا يلبث أن ينبثق فى ذهنى — انبثاقا فجائياً مقرونا بشىء من الانفعال لا أعرف مأتاه — شىء من الشعر قد يكون بيتاً أو بيتين أو قطعة «Stanza» بتمامها ، ويصحب ذلك — لا يسبقه — فكرة غامضة عن القصيدة كلها ؛ ثم تعقب ذلك فى العادة فترة ركود ، وربما تفجر الينبوع مرة ثانية — وأقول تفجر لأن ما يصل إلى المخ يبدو كأنه صادر من الأعماق » ؛ وهو يضيف إلى ذلك — فى دعابة — أنه يظن أن مصدر ذلك الينبوع هو « جوف المعدة » . كل هذا يتفق ودراسات المحلل النفسى . ولهذا لن نتردد فى أن نقبل النتيجة الرئيسية التى وصل إليها التحليل النفسى وهى أن خير القصائد وخير الحكايات وخير الصور إنما هو إنتاج العقل الباطن . مثل هذا ربما حدا بالقارىء أن يظن أن هذه النتيجة ليست إلا تعبيراً آخر عن الاعتقاد الذى شاع منذ القدم من أن العبقرية والجنون رضيعا لبان . وفى الحق إن هناك تشابهاً كبيراً بين أوهام الرجل المجنون وبين الخيالات الهائجة التى يتكشف عنها عقل الفنان . غير أنه ليس معنى ذلك أن كل عبقرية جنون ؛ وأنا أبعد ما أكون عن القول بأن الفنان ليس إلا حالم يقظة مضطرب الأعصاب .

إن الانفعالات فى الأنواع الرفيعة من الفن تبدو غير شخصية وغير متحيزة . وليس كذلك شأن الأهواء الذاتية التى تبعث فينا أحلام اليقظة السقيمة ، والتى تقوم عليها الأفلام الرائجة بين سواد الشعب ، والروايات الرخيصة . وليس هناك من شك فى أننا نستطيع أن نميز فى الأعمال الفنية

العظيمة انصرافا ظاهراً عن الحاجات العاجلة التى نجدها فى أحلام اليقظة نصف الشعورية ، غير انه انصراف علت درجته وسما مجاله ، فى ركن من أركان الوجود تنجذب عين الفنان إلى ضوء أو لون راقص ، فترى فى الأشياء وفى تواريخها فى ذاتها ولذاتها معنى أعمق ، وهذا الاستغراق فى تأمل المعانى العميقة للأشياء هو ما يجعل الفنان أحياناً يبدو ذاهلا شارد اللب مطلق العنان غارقا فى الأحلام والرؤى الأثيرية .

ومع ذلك فهذا المعنى العميق الذى يُتطلب لا لرغبات ذاتية ، ولا جريا وراء عمل ما ، هو الذى يجدُّ فى تحصيله الفن الرفيع ؛ فالشجرة فى نظر الفنان ليست مجرد قطعة من الخشب تقطع وتباع بثمن ما ، وليس غروب الشمس مجرد ظاهرة كونية يُتنبأ منها عن حال الجو فى غد ، وإنما لكل منهما — وهو شىء منظور — قيمة فى نفسه يحاول الفنان أن يظهرها ويؤكد معناها . وهو فى سبيل ذلك ربما فعل بها ما فعلت «مارى» فى قصتها عن الكلب ، فغيّر فيها أو عدّل منها أو ألبسها صورة من عالم المثال ؛ فتراه يُبَسط خطوط صورته ويظهر ظلالها ونواحى الاتساق فيها . وإذا سألته : لم فعل هذا ؟ فقد يهز كتفيه قائلا : إنه لا يعرف السبب . وربما حدثك فى لغة متصوفة عن التجربة الذوقية التى حصّلها إذ أطل من نافذة مرسمه على أوراق الأشجار ، وكيف حاول أن يرسم هذه التجربة على صفحة القماش . فصاحبنا — على عكس الرجل العملى — إنما يعنى بالتأمل أكثر من عنايته بالمنفعة ، وتهمه أنظمة خاصة من القِيَم

ويمكن تتبع مثل هذا الباعث فى الشعر ، ولا سيما فى المآسى العظيمة ؛ فليس فى المأساة تحقيق لرغبات خشنة متخيلة ، وليس فيها خواتم سعيدة ، ولا عدالة مثالية رخيصة لتُخفى الآلام الواقعية فى الحياة . ولكنَّ فى

المأساة معنى عميقا تشير إليه عن بعد ، فموت « عطيل » وموت « كورديليا » يخبراننا — فى طريقة ما — أن الألم والخذلان ليسا نهائيين كما نظن ، وأنهما لا ينتميان إلا إلى جزء صغير من الحقيقة نظنه نحن الحقيقة كلها خطأ ؛ إنهما ينتميان إلى جزء فقط من كلٍّ أوسع لا يحيط به علمنا . فلو أننا استطعنا أن ننظر إلى تلك الحقائق المحزنة فى ضوئها الحقيقى وفى ميدانها الواسع — وهذا هو ما يساعدنا الشاعر على إنجازه — لوجدنا لها شأنا آخر ؛ إنها بالضرورة لا تختفى ، ولكنها تظهر فى أشكال مغايرة مُصَفَّاة ، فالهدف الذى ترمى إليه المأساة — إذن — ليس أن تعوضنا عن مصاعب الحياة (كما تفعل أحلام اليقظة أو الروايات الرخيصة) ، ولكن أن تكشف لنا عن شىء من سرّ الحياة الخفىّ ، وتساعدنا على الرضا به . وهذا هو السر فى أن النهاية المحزنة لا تغمرنا — كما نتوقع — فى حالة من الضيق العميق ، بل على العكس — وهنا تناقض ظاهر — تثير فينا نوعا من الغبطة الإنسانية العامة ، نوعا من الطرب الذى لا بد أن يكون الشاعر نفسه قد خبره فى لحظة قوية من لحظات وجوده .

وليس من شأن عالم النفس أن يبحث هل هذا مجرد خداع أو حيلة يحتال بهما على مشاعرنا كاتب قدير ؟ فذلك أمر مردّه إلى الفيلسوف ، أو مرده إلى المزاج والإيمان الشخصى لا إلى العلم . ولكن بحوث عالم النفس التى تقصر نفسها على الواقع لا تترك مجالا للشك فى أن الفنان الحقيق — الفنان ذا الروح الحساسة والخيال الشعرى — تمر به هزة روحية ، لا صلة لها بما تقتضيه مطالب المعيشة المادية الصاخبة . وقد يعتبر الفنان هذه الهزة شيئا جديرا فى ذاته أن يحصّل ، أو قد يعتبرها رسولا يحمل شعاعا من النور من عالم القِيم النهائية — ومن مصدر ذى

شأن كبير فى أعماق الحياة والوجود . ولـكن مهما يحاول الفنان شرح أصل تلك الهزة فإنها هى التى يريد أن يعبر عنها فى صورته أو قصيدته .

٤ — فالفن — بالاختصار إذن — فى أساسه — نوع من التعبير ؛ وكل تعبـير — فى مخلوق اجتماعى كالإنسان — فهو فى الوقت ذاته نوع من التبليغ . فما هو ذلك الذى يوصله أو يبلغه الفن ؟ لقد لمحنا الجواب من قبل : إنه التجربة ، فالفنان ينقل تجربته إلينا . ونحن بما نعيد خلق تلك التجربة كرة أخرى — بمساعدة الفنان — نحياها مرة ثانية لأنفسنا . . فعلى عالم النفس — إذن — أن يتجه بعد ما تقدم إلى دراسة تجربة السامع أو المتفرج : ماذا يشعر به عند ما يتأمل العمل الفنى ؟ — عند ما ينظر إلى صورة (ڤينص) من عمل « بوتشيلى » ، أو يستمع إلى ألحان «باخ» أو يقرأ روايات «شاكسبير» ؟ وهكذا نصل إلى ثانية المعضلتين الأساسيتين اللتين نصبنا أنفسنا لدراستهما ، وهى سيكلوجية الاستمتاع الفنى .

— ٢ —

إن أعظم التجارب المثمرة التى أجريت على التذوق الفنى قد اتبعت فى إجرائها طريقة يُسمِّيها السيكلوجيون «طريقة الموازنة الثنائية» : ذلك أن توضع أمامك صورتان أو زهريتان أو قصيدتان يطلب منك أن تقول أيهما تحب أكثر ، وتذكر الأسباب التى حملتك على هذا الاختيار .

هذه التجربة تبدو بسيطة ، ولـكنها أدت إلى نتائج حافلة . ومن المستحيل فى فصل قصير أن نلخص تلك البحوث الخصبة ، إلا أنها جميعا تدل على أن موقفنا العقلى نحو الشىء الذى نعتبره جميلا موقف فى نهاية التعقيد ، ويختلف باختلاف الأشخاص . أما أول بحث مهم من هذا الطراز

فى إنجلترا فقد كان ذلك الذى قام به « بلو » (Dr Bullough) فى معمل علم النفس بكمبردج ، إذ بدأ أولاً بتجارب على الألوان البسيطة فوجد أن هناك أربع طرائق من الحكم الذوقى ، وأن الأشخاص يمكن تقسيمهم حسب هذه الأنواع الأربعة الرئيسية . ومن المعلوم أن اللون الواحد لا يكوّن بمفرده عملا فنيا ، فهو ليس إلا عنصرا فى كلٍّ أكبر . غير أن تجارب متشابهة أجريت على مواد من طبائع مختلفة وعلى درجات من التعقيد أكثر كالأصوات والمقاطع الموسيقية والقصائد والألحان والصور . وقد كشفت النتائج على العموم عن أنواع وميول مشابهة لما ذكرنا :

١ — فأعم الأنواع يسمى النوع الربطى (Associative type) . ذلك أن التفضيل الذى يقوم به الشخص ينبنى ، لا على اللون أو الموسيقى أو الصورة نفسها ، ولكن على ما تثيره فيه — من طريق تداعى المعانى — من ذكريات ومسرات غامضة تعيدها إلى عقله ؛ فهذا الشخص يكره اللون الأحمر لأنه — كما يقول — « يذكره الدم » . وثان يفضل لونا أخضر مصفرا باهتا « لأنه يذكره أوراق الأشجار فى الخريف » ، وثالث يقرر أنه يحب فاصلا موسيقيا خاصا « لأنه يشبه صوت العندليب فى الربيع » .

مثل هذه البواعث تبدو أغلب (على أية حال فى شكل شعورى واضح) بين النساء منها بين الرجال ، وتظهر بمنتهى البساطة فى الملاحظات التى يبديها الأطفال ؛ فقد حدثتنى مرةً بنت صغيرة قائلة : « إنى أحب صورة (آدم وحواء) أكثر لأنى أعرف الحكاية » ، وقال أخوها الأصغر : إنى أحب صورة (فتوّة «رالى») ، لأنها عندنا فى حجرة الأطفال » على حين فضلت أمهما صورة (جبل القديس ميخائيل) St. Michael's Mount قائلة :

« ذلك لأننا ذهبنا هناك فى شهر العسل » . وهكذا تثير الموسيقى عند بعض الأشخاص ذكرى منظر أو قصة عاطفية ؛ فالمارش الجنازى — من تأليف «شوبان» — يجعلك ترى الموكب فتسمع أولا رنين الأجراس ، ثم تسمع وقع أقدام الجنود يتضاءل شيئا فشيئا على بعد المسافة .

أما الأثاث وموضوعات الفن الصناعى فإن أهم الأفكار الطبيعية التى ترتبط بها تدور حول الغرض من الشىء أو فائدته ؛ فهنا يبنى الكثيرون تفضيلهم — لا على الهيئة المنظورة — بل على توقع قيامها بوظيفتها خير قيام . فمن ذلك : الشخص الذى يقول فى تفضيل أحد الكراسى — «إن الكرسى الأول أحسن لأن الجلوس عليه يكون مريحا» . حتى الألوان لها منافعها ، فمن ذلك ما قالته إحدى النساء : « إنى أحب ذلك الصبغ من اللون الأزرق لأنه يناسبنى » — أو « لأنه يتفق ولون بشرتى » . ولقد ذهب كثير من علماء النفس إلى حد التصريح بأن حاسة الجمال فينا لا تنبعث إلا من مثل هذه الروابط التى تلابس الأشياء السهلة أو السارة ؛ فنحن نقول الخدود الحمراء جميلة ، لأنها دليل الصحة ، ونحن نظن الأيدى الحمراء قبيحة لأنها تذكرنا العمل الشاق ، أو طست الغسيل !

ومن الحق أن نقرر هنا أن كثيرا من النجاح الذى يحرزه الفنان يتوقف على مهارته فى إثارة روابط فى أذهان الآخرين ، وفى تنبيه أصداء وصور ومشاعر تتفق وصوره ومشاعره هو إلى حد ما . وأكثر ما يكون ذلك وضوحاً فى الأدب ؛ على أن هنا تناقضاً ظاهرياً ، ذلك أن الكاتب مضطر أن يبنى كتابه على محتويات أدمغتنا أكثر من اعتماده على محتويات دماغه هو ؛ وما عقل القارئ إلا كصندوق الأصباغ للمؤلف . ولكن مثل ذلك يصدق على كل الفنون : فالموسيقىّ المبدع قد يكون أصم — كبيتهوفن

مثلا — غير أن ذلك لا يضير ، فالسمفونيا فى الحقيقة تتألف من أصوات يسمعها الحاضرون ، لا من الأصوات التى سمعها أو تخيلها المؤلف فى الأصل فتلك ليست إلا هادياً له . وإذا صح هذا فى الأحاسيس الأولية فإنه يصح من باب أولى فى المعانى والأحوال التى يقصد بتلك الأحاسيس إثارتها . فعملية التوصيل فى الفن — إذن — على عكس ما يُتوقع — عملية معقدة وغير مباشرة .

ب — إلى حدٍّ ما يمكنك أن تقول إننا جميعاً ننتمى إلى النوع الربطى . غير أن الروابط عند بعضنا تكون فى الصف الأول ، وعند آخرين تكون أقل وضوحاً ، أو تأخذ شكلا خاصاً . ومن بين هؤلاء نستطيع أن نميز نوعا ثانياً صغيراً يتألف من أولئك الذين يبنون تفضيلهم — لا على ذكريات أو أفكار ربطية — بل على أساس التأثير السيكولوجى الذى تحدثه الأصوات والألوان فيهم ، ذلك التأثير الذى يصفونه فى عبارات انفعالية وفيزيولوجية ، فيقولون : « إن هذا اللون القرمزى دفىء » و « إن اللون الأصفر يبهر العين » و « اللون الأحمر يُشعر الإنسان بالحرارة من فرعه إلى قدمه » . ويقولون فى صورة « رفائيل » (العذراء والطفل) : « ما أجملها من فتاة ! وما أنضره من طفل صغير ! » ويقولون فى السمفونيا (C. Minor) : « إن هذا القرع على الباب ليدخل الرعب فى قلبك » . مثل هؤلاء يُسمَّون عادة النوع الفيزيولوجى أو الذاتى ؛ وهم إنما يعجبون بالمقاطع الموسيقية والنغمات والصور أو يحبونها لأنهـا تهيج فيهم غرائزهم الحسية : فالطفل (Samuel) ، و (سيكى) فى حمامها ، والطبيب بجوار الطفل المحتضر ، وميدان المعركة ، والعاصفة فى البحر ، وزواج à la modé (من تصوير هوجارث) ، كل هذه تمس فى الإنسان انفعالات الأبوة أو الانفعالات الجنسية مساً

رفيقاً ، أو تثير فيه الميل إلى الضحك ، أو الإحساس بالخوف ، أو المشاركة الوجدانية . ومما يتكرر كثيراً ذلك الإعجاب المتدفق بمهارة الفنان ؛ من مثل قولهم : « إنها لتكاد تكون صورة شمسية » ، « أليس الفرو أو الدر يبدوان حقيقيين ! » ، « إنك لتكاد تستطيع أ كل هذه الأعناب » . وهذه وما أشبهها تعتبر أحفل العبارات بالثناء .

إن الفن التجارى ليتجه — فى الغالب — إلى إثارة هذه الانفعالات ؛ فمنظر مدينة البندقية فى إعلان سكك الحديد ، والكنائس المجللة بالبَرَد على تذاكر عيد الميلاد ، ومنظر الفتيات الناضرات على صناديق الشكولاته — كل هذه قد اختارها أرباب الإعلانات لما تثير من رغبات وجدانية ، لا لخواص أصيلة فى التصوير . وإذا لاحظت الأثمان التى تجلبها الأعمال الفنية وجدت صاحب الملايين — فى الغالب — يدفع فى الصورة العاطفية لعروس البحر ، أو الطفل الساذج — من تصوير « جريتسه » (Greuze) أ كثر مما يدفع فى صورة شيخ عجوز أشيب اللحية من تصوير « ليوناردو » أو « رمبرانت » .

وفى هذا الانفعال نجد مبادىء نظرية أخرى حديثة تذهب إلى أن الفن ليس مرتبطا بالجمال ، وإنما هو مرتبط بالتعبير عن الانفعالات . وأصحاب هذه النظرية لا يعنون بالانفعال مجرد رد فعل للجمال مفرد بسيط ، بل يعنون به أى انفعال خاص يمكن أن يصدر عن الطبيعة الإنسانية ، وليس هناك شك فى أن كثيراً مما يعتبر فناً ليس مرتبطا فى أساسه بالتعبير عن الإحساس الذوقى أو إثارته ، بل بالتعبير عن الإحساس الغريزى وإثارته . وربما اعترفنا بأن الإحساس الذوقى نفسه مثل الإحساس المنطقى أو الخلقى — إنما تطور من الانفعالات البسيطة التى تصاحب الغرائز الأولية ، وأنه

لا يزال مختلطا بها . ومع ذلك فالفرق بينهما يظل قائما ؛ فالإحساس الذوق إنما يرتبط بالقيمة التى تكون للشىء أو للتجربة فى حد ذاتها. أما الإحساس الغريزى فإنه يرتبط بالقيمة التى تكون للشىء أو للتجربة فى حياتنا الأرضية العملية . فوجهة نظرنا فى الحالة الأولى ميتافيزيقية ، وفى الثانية بيولوجية . وإذن فهذه النظرية تبدو كأنها تنبهت لعامل سيكلوجى واحد من بين عوامل كثيرة ، ومن يدرى فلعل ذلك هو العامل الظاهر فى مزاج واضع النظرية نفسه .

حـ — وهناك نوع ثالث إذا أبدوا ملاحظاتهم على الفن نسبوا لكل ما يرون نوعاً من الشخصية ، ويسمون النوع التشخيصى أو النوع الخُلُقى " Character type " . يقول أحد الأطفال : « ما أكثر ما يبدو هذا الإبريق سميناً مرحاً ! لكأنه يضحك عليك » وهؤلاء يتكلمون عن الألوان كأن لها صفات إنسانية فيقولون : « إن هذا اللون الأصفر عنيف » « وهذا اللون الأرجوانى صاخب لعوب » ، « واللون الأحمر الفاتح حلو رقيق » . ويصف أحد الأشخاص لونا بقوله : « إنه صبغ من اللون الأزرق شديد الحياء » . وشجرة الصفصاف عند أمثال هذه الطبائع الرومانسية ليست صفصافا ولكنها عروس غابة باكية ؛ والجدول ليس جدولا ولكنه عروس ماء ؛ ولقد يقولون إن البحر ليبدو غضبان ، وإن المنظر ليبتسم ، وخط ما ليس عند هؤلاء خطاً ، ولكنه شىء حى له حركة من نفسه ؛ وإذا فكروا فى المنارات تصوروها سامقة إلى العلا فى جلال ؛ وهم يغتبطون برؤية طيور الماء طائرة لأنهم يستطيعون أن يحسوا فى أنفسهم أحاسيس تدليها الرشيق ، أو توازنها الخفيف الرفيق ؛ والظاهر أن هؤلاء تبدو لهم الأشياء الواقعة كأنها تتضمن تجربة شخصية يستطيعون هم أن يساهموا فيها

بنوع من المشاركة الوجدانية الفعالة ؛ فالخيال — « رافلا فى غبطة وجوده الخاص » — كما يقول (رسكن) — « يضع حركة فى السحب ، وبهجة فى الأمواج ، وأصواتا فى الصخور » .

راقب جماعة من النظارة يشهدون حركة صعبة — يحدقون بأبصارهم فى لاعب يتأرجح فوق الحواجز ، أو إلى لاعب بلياردو يرسل كرة إلى الجيب — راقب النظارة تجدهم يمسكون بأنفاسهم ، ويحركون أجسامهم كأن كل واحد منهم هو القافز نفسه يمرق نحو الحاجز ، أو كأنه الكرة المتدحرجة نفسها تحاول أن تنعرج نحو الركن . وإذا عزفت موسيقى الرقص نغمة متساوقة تراهم قد اهتزت لها أكتافهم فى حركة موحدة . وتراهم فى دور السينما يقومون بحركة فزع إذ يبصرون الشخص الشرير فى الرواية ينقضُّ بسوطه على البطلة ، أو يعذب أخاها الصغير بحديدة محماة ؛ وتسمعهم بعد الانتهاء يشرحون لك كيف خيِّل إليهم أنهم نُقلوا إلى الشريط السينمائى وأحسوا آلام الضرب والحرق فوق جلودهم الرقيقة . وتراهم حتى فى بسائط الأشياء تتكيف نفوسهم بما ينظرون إليه ، فالخطّ الرأسىّ المستقيم يجعلهم يقفون وقفة مستقيمة ، والخطّ المنحنى يجعلهم ينحنون أو يحنون كأنهم على وشك الوقوع ، وشكل الحلزونيات يخلق فيهم إحساساً بالضَّعف والغثيان ، هذه التجربة — التى تزداد عند بعض الناس فتصل إلى حد المرض — مقصورة فى الغالب على عدد محدود من الأشخاص ، ولكنها قد قامت على أساسها نظرية مهمة فى الفن تسمى عندهم فى الاصطلاح Ein fühlung أو Empathy — (الاتحاد الفنى) — ومعناها أن تحس نفسك فى الصورة أو الموضوع (وهذا غير Sympathy — التى معناها أن تحسّ مع . . . ، أو أن تحصل عندك مشاركة وجدانية) . فعلى

هذا الرأى يكون ما ينتقل إلى نفس من يشاهد العمل الفنىّ ليس تجربة الفنان فحسب ، بل تجارب الموضوعات التى تُصورها ريشة الفنان ، وهى بالطبع متخيّلة .

(د) الفريق الأخير — وهو أندر الأنواع — موضوعى قطعاً ؛ فأشخاص هذا الفريق يتخذون نحو الأشياء موقفاً ذهنياً نقدياً أكثر منه انفعالياً ، وهم يقفون أمام الأشياء الجميلة فى صمت وإعجاب ، على حين يُغرق غيرهم فى إظهار الثناء والإعجاب ؛ وهم إذا آثروا لوناً آثروه على أساس خاصيته باعتباره لوناً ، لا على أساس ما يبعثه من روابط أو يحدثه من آثار . فهم يحبون زرقة اللازورد «لأنها صافية» وينفرون من لون «الكوبلت» لأنه لون عتم جداً . ويبدو — فى أوضح الأمثلة — أن لديهم مقياساً لما ينبغى أن يكون عليه كل لون ، وأنهم يحكمون على كل صبغ يعرض عليهم تبعاً لانطباقه على ذلك المعيار الضمنى أو لتقصيره عنه ؛ فتسمعهم يقولون : « هذا الأخضر كثير الصفرة إلى درجة تمنع أن يكون أخضر حسناً » ، « أنا أحب هذا الأحمر لأنه يبدو مشبَعاً ومركزاً ، أما الآخر فيكاد يكون أسمر » وكثيراً ما تراهم — فى الصور — ينصرفون عن الموضوع والعنوان ويتحدثون عن النظام والتأليف والأصباغ ، ونواحى الانسجام ، والظل والنور . وهذا الفريق أقل الأنواع عدداً وأبعد دائماً عن الرضى ، وليس من الضرورى أن يكونوا أصحاب أحسن ذوق جمالى ، ولكن ملاحظاتهم تشير إلى قاعدة سيكلوجية واسعة : ذلك أن العقل الذوقى لا يبحث عن الجمال ويرتاح إليه فحسب ، ولكنه يشقى أكثر من سواه لمنظر الدمامة الصريحة .

هذه ، إذن ، الأنواع الأربعة التى انجلت عنها التجارب الأولى فى هذه الناحية ، ونستطيع أن نلخص كل نوع كما يلى ؛ إن ملاحظات الأشخاص

قد تدل على أن عنايتهم الرئيسية : (١) فى الشىء الذى يعرض عليهم فعلا (وهؤلاء هم الفريق الموضوعى) ؛ (٢) أو ليست فى الشىء المعروض ولكن فى آثاره على أنفسهم (وهؤلاء هم الفريق الذاتى) ؛ (٣) أو ليست فى الشىء المعروض ولكن فى الأشياء التى يثيرها ويعيدها إلى العقل (وهؤلاء هم الفريق الربطى) ؛ (٤) أو فى الشىء — لا مجرد شىء — ولكن باعتباره شخصية حيّة (وهؤلاء هم الفريق التشخيصى) . أما التجارب الحديثة التى اعتمدت على مواد أكثر تعقيدا فهى تُظهر أن هذه الأنواع ليست متمايزة تماما ، وكل واحد من هذه الاتجاهات الأربعة — فى الحقيقة — موجود فينا جميعا حسب مزاجنا ونوع الشىء المعروض علينا ؛ فالفرق — إذن — فرق صفة غالبة أو درجة ، لا فرق أنواع أو طوائف منعزل بضها عن بعض انعزالا تاما . وليس هناك من شك فى أننا سنضطر فى النهاية إلى إعادة تنظيم التقسيم الأصلى فى قاعدته وفى تفاصيله . على أن هذا التقسيم فى وضعه الحاضر يوضح — فى بساطة وفائدة — طرائق البحث وأهم النتائج لهذا الاتجاه السيكلوجى .

— ٣ —

إن الثمرة الرئيسية لكل هذه البحوث هى نتيجة واحدة لا ريب فيها ، تلك هى : أن غالبية الناس إذ يُطلب إليهم أن يحكموا على جمال شىء ما قلما يفكرون — فى الواقع — فى جماله مطلقا ، وأحكامهم التى تصدر عنهم ليست ذوقية ولكنها شخصية ، ويبدو أن كثيرا من العوامل التى لا شأن لها تؤثر فيهم . وإذا كنا هكذا متأثرين فى حياتنا الشعورية بعوامل متنوعة ، فما أعظم ما يستهدف له حكمنا من تحيز إذا أثرت فينا هذه العوامل تأثيرا لا شعوريا !

على مثل هذه الأسس — فى الغالب — بنى كثير من النقاد وعلماء النفس رأيهم فى أن الجمال ذاتى محض ، وأن التفضيل الفنى ليس إلا مجرد ثمرة لذوق شخص خاص يختلف حسب اختلاف الفرد والعصر . فأزياء السنة الماضية تصبح شيئا إدًّا فى العام الحاضر ، والكنائس القوطية التى بنيت — فى حماسة — أيام « رسكن » و« ڤكتوريا » تعتبر قذى فى عين بعض الناس فى هذه الأيام ، وآباؤنا — الذين درجوا على أن يجسوا الراحة فوق الكراسى اليعقوبية وعلى أن يتناولوا غذاءهم فوق موائد الأرو — قد يفزعون حين يدعوهم واحد من ناشئة الجيل الحاضر للجلوس على مقاعد من الصلب وتناول الطعام من لوحة مستديرة واسعة من الزجاج . إن الشهوات الذوقية تجىء وتذهب ؛ وعند بعضهم أن كل شىء فى الفن نسبى ، فليس هناك شىء حسن أو قبيح ، وإنما التفكير هو الذى يُحسّن أو يُقبّح .

ولكن هبنا طرحنا جانبا هذه الروابط غير الأصيلة فى الموضوع — من مثل الأزياء والأوهام واللوازم التى تجلب الغموض إلى حاسة الجمال عندنا ؛ هبنا جردنا أنفسنا تماما من كل انفعال شخصى ومن كل مصلحة شخصية ، ونفضنا أيدينا من كل شاغل عملى ومن كل شئون ذهنية تستلزمها ضرورات الحياة اليومية من بيولوجية وعملية — فهل يبقى بعد ذلك أى أساس مكين لتفضيل شىء على آخر ؟ وهل هناك أى شىء يمكن أن يجده كل شخص جميلا فى ذاته ولِذاته ؟ وهل هناك أى شىء يمكن أن يجده كل شخص قبيحا — لا فرق بين متمدين أو متوحش ، بالغ أو طفل « أثينى قديم » أو « لندنى » من جيل ما بعد الحرب العظمى ؟

أنا أعتقد أن هذا قد يكون ، واعتقادى قائم على أسس من

التجريب والنظر . ولقد قمت منذ سنوات مضت بتجربة قصدت منها إلى اختبار التفضيل الفنى بين أنواع مختلفة من النـاس ؛ فجمعت مجموعة من خمسين بطاقة مصورة انتظمت نسخا من صور مشاهير الأعلام الـكلاسيكيين، وصورا متوسطة — لرسامين ليسوا من الصّـف الأول — وهكذا من كل الأشكال والأنواع المتفاوتة إلى أبسط أنواع بطاقات الميـلاد التى استطعت العثور عليها فى دكاكين الأحياء الفقيرة . كان الاختيار منصبا على ترتيب البطاقات الخمسين حسب نظام التفضيل بينها . وقد قصدت أولا إلى أن أحصل على معيار للموازنة ؛ ذلك بأن عرضت المجموعة على فنانين وخبراء من نقاد الفن . فبدأوا كلهم — تقريبا — يحتجون بأن مثل هذا المعيار مستحيل : عضو الأكاديمية الملـكية يعلن أن رجل المدرسة الحديثة فى الفن سيقلب ترتيبه رأسا على عقب ، وكلاهما يؤكد أن محاولة الاتفاق مقضى عليها . ومع ذلك فقـد أدهشنى أن ترتيبهما كان متطابقا فى معظم الأحوال . إذ بلغ معامل الارتباط تقريبا ٩ر٠ ، وكل ما هنالك أن عضو الأكاديمية — مثلا — يضع منظرا طبيعيا من تصوير « ليدر » قريبا من القمة ، على حين يضعه رجل المدرسة الحديثة فى المرتبة العاشرة أو الخامسة عشرة ، ولـكن على أية حال أعلى بمراحل من الصور التجارية الفظيعة التى توجد فى دكاكين الورق ؛ وبعضهم يضع « رفائيل » أولا ، والصور البدائية رابعا أو خامسا ، على حين يضع آخرون البدائية أولا ؛ ولـكنّ أحدا منهم لم يبعد برفائيل كثيرا إلى المراتب الدنيا . وقد بدا واضحا للعيان أن فروق هؤلاء فى ذوقهم وحكمهم أقل كثيرا مما قد يتصوره المرء من خلافاتهم ومناقشاتهم الحادة . والنتيجة التى يجد الباحث نفسه مسوقا إليها هى — باختصار : أن هناك شيئا أساسيا يُسيّر الاختيار العام عند هؤلاء

الأشخاص ، بالرغم من أن نظرياتهم ووجهات تفكيرهم الخاصة قد تحدث اختلافات صغيرة قليلة .

هذا — فى الحقيقة — يتعارض وآراء معظم النقاد الحديثين ، ولكن يمكن اقتباس عدد من الآراء المشهورة التى تؤيد هذا الاتجاه . فلأقتبس هنا فقرة واحدة من « برك » (Burke) ، وهى تحتوى نتيجة رائعة موضوعة فى قالب رائع ، وصل إليها من بحثه فى (الفاخر والجميل) . إن « برك » — بالرغم من اعترافه بأن أحكام الخبراء على الجمال تختلف كما تختلف أحكامهم على مسائل الفلسفة أو الفضيلة — يصر على القول « بأننا على العموم نلاحظ أن الخلاف الموجود بين الناس فى مسائل الذوق أقل من خلافهم على المسائل التى تعتمد على المنطق المجرد ، وإن الناس ليتفقون على جودة وصف فى كتابة « ڤرجيل » أكثر مما يتفقون على صحة نظرية من نظريات « أرسطو » أو بطلانها » .

وعندما تحولت من الكبار الخبراء إلى الصغار غير المدربين وعرضت عليهم الصور ، وجدت أثر العوامل غير الأساسية (الخارجة عن طبيعة الفن) أوضح وأقوى ؛ إذ بدأ موضوع الصورة يلعب دورا غاية فى الأهمية ، فالأولاد فى سن العاشرة — مثلا — يضعون صورة الحرس الراكب ، أو منظر الواقعة البحرية ، أو صورة القاطرة البخارية ، قرب أعلى القائمة فى الترتيب ؛ على حين يضع البنات — فى هذه السن — صورة القطة الصغيرة أو براعم الورد فى أعلى القائمة . غير أن الموضوعات التى اخترتها كانت متنوعة إلى درجة أن تأثيرها الخاص — فى مجموعة من خمسين صورة — وازن بعضه بعضا . لهذا عمدت إلى حساب التلازم بين الترتيب الذى عمله كل طفل أجريت عليه التجربة ، وبين متوسط الترتيب الذى استخلصته من النقاد

الفنيين واعتبرته مقياسا ؛ وتوصلت بهذا إلى استخراج معامل الارتباط — أى درجة الذوق ، وعلامته عند ذلك الطفل . وقد لاحظت أن ذلك العامل يزداد — فى الغالب — زيادة مضطردة مع زيادة سن الطفل . ولكن الكبار — إلا من توفر لديهم المران الفنى الطويل ، أو كانت لديهم موهبة خاصة من الحساسية الفنية أو التعلق بالفن — جاءوا أقل من ذلك المستوى الحقيق مراحل (إذا صح أن يسمى المقياس الفنى حقيقيا) .

من هذه التجارب التى أجريتها على الأطفال تبرز نتيجتان ذواتا مغزى خاص : أولاهما أن معاملات الارتباط كانت كلها فى الغالب موجبة ، مما يبدو معه أن هناك عاملا واحدا عاما تقوم عليه الأحكام الفنية عند الجميع وتتأثر به . والثانية أن بعض صغار الأطفال — أولئك الذين دون الثامنة — قربوا جدا فى ترتيبهم من ترتيب الفنان والناقد الفنى . فلقد يبدو — إذن — أن بصيرتنا الفنية تضمحل كلما كبرنا فى السن ، فنصبح أقصر نظرا ، وتفقد أعيننا براءتها الفطرية . إننا إذ ننمو نصبح أكثر تصنعا ، وأحرص على العمل المنتج ، فننفذ بأبصارنا إلى ما وراء الظواهر المنظورة ، ونبحث عما انطوى تحتها من معان عملية .

هل أطلت النظر مرة إلى منظر بعيد ، وقد حنيت رأسك بين ركبتيك فى وضع معكوس ؟ إنك إن فعلت عجبت من الألوان الفنية التى يعمى عنها النظر فى وضعه المستقيم . إنك — وأنت فى وضعك المستقيم — تتبين فى الحال أين الدخان وأين التلال ، وتعرف (أو تظن أنك تعرف) أن الدخان فى الحقيقة أسود ، ولهذا لا ترى الصبغ الأرجوانى الرقيق ، وتعرف (أو تظن أنك تعرف) أن تلك القمم الصخرية فى الحقيقة رمادية ، ولهذا تحرم رؤية ذلك اللون الأزرق اللطيف الذى يبسطه الندى والضباب فوق تلك القمم .

انظرْ إلى البحر من خلال نافذة مخدعك فى السفينة تدهش لمنظر ذلك اللون الأخضر الأزرق العميق ، ولو أنك نظرت إليه من فوق سطح السفينة لم يبد لك - كما قال أحد المسافرين — « إلا ماء — وماء قذرا » . وهكذا تقود المعرفة والتجربة إلى نوع من الفهم عادى ، فنرى ما نعرف نحن أنه هناك — لا ما هو هناك ليرى ، ونساق إلى أن نفكر فى الحقول والأزهار والغابات — لا على أن لها قيمة لِذاتها وفى ذاتها — بل على أنها نافعة من وجهة الحياة — نافعة لحاجاتنا الأرضية المحدودة . فمثلنا فى هذا مثل الولد « الكافرى » (من قبائل الزولو) الذى التقط قطع الحصى ليحصب بها رفيقه ، ولكنه أغفل أن يلاحظ أنها فصوص من الماس .

هذا المنظر غير الرومانسى ينمو معنا كلما تقدمت بنا السن ؛ وكل تلميذ — تقريبا — ينتهى من المدرسة أضعف فى إحساسه الفنى منه حين دخلها ، والقليل الذى يبقى له تذهب به السنوات الأولى من حياة العمل الثقيل . فكل واحد منا يولد فنانا صغيرا ، ولكن حاجاتنا العملية — مطالبنا ومشاغلنا وذكريات حياتنا اليومية — تغطى بسحبها بصيرتنا الأولى المنيرة .

ويبدو أن ما يحدث لتلميذ المدرسة حين تحتويه حياة الصناعة والتجارة قد حدث للشعب البريطانى عند ما دخل المرحلة الصناعية والتجارية من حياته . لقد جاءت النتيجة عكس ما قصد منها ، فالبضائع البريطانية الآن من القبح بحيث لا تجد لها سوقا[١] — فى الخارج على أية حال . إن صاحب المعمل ، داخل الوطن ، يلوم الذوق الفاسد عند المستهلك ، على حين

(١) هذا بالطبع ليس إلا أحد العوامل . ولكن راجع « تقرير عن الفن والصناعة » من وضع اللجنة التى ألفتها وزارة التجارة تحت رياسة «Lord Gorell»
(المؤلف)

يصرح دعاة الجمال أن الشعب البريطانى كافة لا بد أن يكون مجردا تمام التجريد من الحاسة الفنية . ولكن لن يستطيع أى عالم نفس أن يوافق على القول بأن الذوق الوطنى الذى ازدهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يمكن أن يكون قد انعدم انعداما خلال القرن التاسع عشر ، فالمقدرة أو الحساسية لا بد أن تكون باقية هناك مستكنة أو راقدة ، وكل ما ينقصها أن تُنمّى أو تُنشأ .

إذا كان إحساس الجمال — إذن — عاما ، وإذا كان هذا الإحساس — رغم العوامل الأخرى — يحدث نفس التأثير فينا جميعا ، فإنه يلزم من ذلك أن الجمال نفسه ليس متوقفا كل التوقف على المصلحة أو الهوى الشخصى ، بل يبدو — فى الواقع — أن الفيلسوف الحديث عائد إلى الرأى القديم الذى كان يقول إن الجمال موضوعى ، أو — على الأقل — أن أحكام الجمال يمكن أن تَدّعى — وهى مُحقة — أنها عامة الصدق . وأظن عالم النفس لا بد متفقا مع هذا الرأى فى النهاية . فنحن نرى الجمال لأنه هناك ليُرى ، وليس الجمال شيئا نخترعه أو نتصوره بأنفسنا ؛ إنه شىء نُحسه ونجده ، إنه — بالاختصار — يحل فى الموضوع الجميل .

على أن هذا لم يكن الرأى المقبول بين النقاد والفلاسفة السابقين الذين كتبوا فى الجمال ، فإلى عهد قريب كان المنزع الحديث يميل إلى الجهة المعارضة — إلى اعتبار أن الجمال ليس صفة فى الأشياء الخارجية ، أشجارا كانت أم أزهارا ، وقصائد أم صورا[٢] ، وإنما هو أثر وقتى لحالة من حالات

---

(١) يحسن بالقارىء المعنى بهذا الموضوع أن يراجع بحث ريتشاردز (I. A. Ritchards) لهذه النقطة فى كتابه (النقد العملى) ولا سيما صفحات ٣٥٨ وما بعدها . ويحسن أن يدرس آراء جروتشى Groce البعيدة الأثر ، وما وجه إليها من نقد حديث . (المؤلف)

العقل . فكلمة beautiful (جميل) مثل كلمة lovable (جدير بالحب) تستعمل لتصور صفة أو كيفية نخلعها نحن — فى سذاجة — على الموضوع ، وهى فى الواقع إنما تقرر أثر الموضوع فى أنفسنا . فالسكين ليست مؤلمة حتى توجع ، وكذلك غروب الشمس لا يكون جميلا حتى يحس شخص ما نشوة ذوقية عند النظر إليه . ويضيف أصحاب هذا الرأى إلى ما تقدم أن هـذا هو السبب فى اختلاف الأذواق فحيث أرى جمالا قد ترى أنت سوء تكوين ، والسبب فى ذلك أننى أحس انجذابا نحو الشىء على حين تحس أنت نفورا وابتعادا .

***

والحقيقة أن كل الحجج التى استعملت للبرهنة على أن الجمال ليس إلا حالة عقلية ، يمكن أن تستعمل — وقد استعملت فعلاً — للتدليل على أن العالم الخارجى كله (الموضوعات الطبيعية وخواصها المادية — اللون والصوت والذوق واللمس) أحوال للعقل ولا شىء وراء ذلك . ليس هذا فحسب ولكن اليقين الضرورى نفسه — كصحة الاستدلال المنطقى أو صحة جدول الضرب — ليس على هذا الرأى إلا أثراً ذاتياً لطرائقنا فى التفكير . هذا اللون من النظر — إذن — يبالغ فى البرهنة حتى ليبرهن على بطلان نفسه ، فإن المجادل الذاتى إنما ينشر بمنشاره الغصن الذى هو جالس عليه . أما من حيث الحقيقة والخصائص المادية للأشياء فإن لدى علم النفس الآن جوابا على درجة لا بأس بها من الإقناع . ويمكن استخدام الجواب نفسه فيما يتعلق بالجمال والخصائص الذوقية . وسوف لا نستطيع أن نفصل هذا الجواب هنا

— لحاجته إلى شيء من التخصص [1] فى البحث — ولـكنى أرى إمكان استخدامه هنا للبرهنة على استقلال هذه الخصائص فعلا عن العقل ، أو على الأقل لإظهار أننا لسنا ملزمين بضرورة قبول المذهب الذاتى المتطرف .

فلنجر — إذن — على أن الجمال فى الواقع موضوعى ، فم يتألف ؟ ما هى بالضبط تلك الخاصة التى تمكننا حاسة الجمال من إدراكها ؟ أين نضعها ، أو تحت أى باب ندخلها بين الموضوعات الأخرى التى يحتويها عقلنا ؟

أولا — هناك شيء واضح : فمع أننا نتكلم عن حاسة الجمال ، فالجمال ليس فى الاصطلاح الدقيق حساً ، إذ أننا لا ندركه من طريق عضو حسىّ

---

(١) المسألة باختصار هى : يحتج الذاتى قائلا : إنى لا أستطيع أن أعرف وجود موضوع ما — كالمائدة مثلا — إلا بادراكه ، وإذن فليست المائدة فى الواقع إلا واحداً من مدركاتى ، فالصلابة التى أحسها ليست صلابة الخشب ، ولـكنها أحاسيسى الحسية .

والرد على هذا يكون بالتفرقة بين ما أدركه وعمل الإدراك نفسه ، وبعبارة أخرى تمييز الإدراك — بمعنى الشيء المدرَك — من الإدراك — بمعنى عملية الإدراك . فالمائدة شيء مدرك ولا ينبغى أن تخلط بالوسائل الوقتية التى أستخدمها فى إدراكها .

فالإدراك — وفى الواقع كل أنواع المعرفة — يجب أن يؤخذ باعتباره علاقة — علاقة بين عقل والموضوع المستقل — علاقة خاصة متجددة ، لا هى تنشىء ولا هى بالضرورة تغير الموضوع نفسه .

وما العلاقة الإدراكية إلا كعلاقة الزواج ، فإذا تزوجت (س) فذلك يجعلها زوجتى ، ولـكنه لا يجعلها المرأة التى هى ما هى . وإذا طلقتها فإنها تستمر فى الوجود . وكذلك الحال إذا أدركت (س) فإن ذلك يجعلها موضوعا لمعرفتى ، ولـكنها كانت هناك من قبل أن أراها . وستستمر فى وجودها من بعد أن أغمض عينى . وبالطريقة نفسها تستطيع أن تقول : إن المائدة وصلابتها — وأنا أضيف المنظر وجماله — تستمر فى وجودها حتى حين لا يكون هناك من يدركها .   (المؤلف)

مخصص لهذا الغرض كما خصصت العين للألوان والأذن للأصوات . كذلك نستطيع أن نقول إن الجمال ليس صورة ذهنية أو فكرة أو مجرد حزمة من الروابط . وتسميته شعوراً (أو إحساساً) إنما يزيد المسألة غموضاً لغموض كلمة feeling — إحساس — وعدم تحديد معناها . فلنسأل — إذن — ما هى الفُرص أو المناسبات التى ندرك فيها الجمال ؟

إنما ينبعث الحس بالجمال عند ما ننظر إلى موضوع مركب إلى درجة ما . فالحس البسيط لا يستطيع ولن يستطيع أن يبعث جمالا . انظر إلى صفحة بيضاء من الورق ، أو إلى حقل قد كساه برد الشتاء ثوبا أبيض رقيقا . إن مجرد البياض مهما كان صافياً لا يمكن أن يكون جميلا . إنه قد يبعث لذة كما تبعثها رائحة سويق البرقوق أو ذوق طبيخ اللحم الهشيم . إلا أن ومضة من اللذة ليست حساً بالجمال .

ولكن خذ قطعة من الورق وقسمها إلى مربعات وأشكال رباعية فإنك لا تلبث إلا ريثما ترى أن بعض الأشكال جميلة ، وأن بعضها أجمل من بعض . أجمع كل الأظرف والأوراق وصفحات الكتب وبطاقات الزيارة التى يمكنك أن تعثر عليها ، وسترى من السهل عليك أن تقرر أى الأشكال أكثر أناقة وأيها يبدو ثقيلا أو مستكرها . لقد كانت هذه تجربة قام بها لأول مرة — منذ مائة سنة — الفيلسوف الألمانى « فخنر » (Fechner) الذى يسمى أحيانا أبا علم النفس التجريبى ، فقد جاء بمستطيلات متنوعة الأبعاد ، وعرضها على أشخاص كثيرين ثم أخذ منها ما فضّله المختبرون ، وقاسه قياساً دقيقاً .

وقد بدا إذ ذاك أن الفرق فى الجمال يتوقف ، إلى حد ما ، على النسبة — النسبة بين الطول والعرض ؛ وكانت هناك من بين النسب نسبة تشرح

الصدر دائما ، وهى التى يحصل عليها مما يعرف « بالقطاع الذهبى » (golden cut)، وفى هذه الحالة تكون نسبة البعد القصير إلى البعد الطويل كنسبة الطويل إلى مجموع البعدين . وإن صفحة من ورق (الفولسكاب) — ٨ بوصات × ١٣ — لتوضح هذه النسبة توضيحاً يقرب أن يكون دقيقاً ، فإن $\frac{٨}{١٣} = \frac{١٣}{٨ + ١٣}$ ، وفى الوضع الطبيعى للصليب فى شكله المعهود تستطيع أن تتبين نفس النسبة . فجمال الشكل — إذن — يتوقف على علاقة ، هى العلاقة بين الجانبين أو المقطعين الذين يكيفانه .

إنك — بالطبع — حين تميز عينك شكلا أو منحنياً رقيقاً لا تقوم بعملية حسابية ولا تقيس النسب قياساً دقيقاً . وأنا فى الواقع أشك فى أن تكون النسبة — أو ينبغى أن تكون — على هذه الدقة الحسابية ؛ وكل ما أذهب إليه هو أن هناك نوعا من النسبة أو نوعا من العلاقة ، فى كثير من الأحوال — إن لم يكن فى شكلها — تبدو النسبة العددية المنطبقة على ضابط معروف آليـة عديمة الحياة . وازن مثلا بين قطاع من دائرة مضبوطة كالتى ترسمها بالفرجار ، وبين التغيرات الرقيقة التى يحدثها غصن مياس من أغصان « الأناناس » ، فالأولى ميتة ، والثانية حية حياة طريفة . بل أى منحن رياضى يرسمه عالم الهندسة فى دقة وحساب يمكن أن يوازن بالخطوط السريعة الشاملة التى تنثرها هنا وهناك — فى حركة حرة جريئة — يد فنان دقيق الحس صناع ؟ ليس هناك من شك فى أن مثل هذه الخطوط لها نسب ، ولكنها من الدقة بحيث تخفى علينا ، وإن لها لانسجاماً ولكن انسجامها قائم على حركة لا شعورية حرة ، ولا يمكن التعبير عنه فى نظام من التحليل الجبرى معروف .

لننتقل الآن إلى موضوعات أكثر تعقيداً ، ولننظر إن كانت القاعدة

السابقة تصدق عليها . طف فى أنحاء لندن أو أية مدينة أخرى كبيرة ، ثم اسأل نفسك : أى مبانيها أكثر جمالا ! إنها ليست المنازل التى طليت بأزهى الألوان أو أرقها ، وليست الزخرفة مهما عظمت وثقل حملها بكافية فى أن تخلع على البناء جمالا ، والرسوم البارزة والتماثيل العظيمة التى تعلو بناء الأوبرا فى Kingswaiy (ويعرفه معظم الناس الآن باسم Stoll Picture Palace) لا تحيل ذلك البناء الشاهق إلى عمل فنى . استمر فى طوافك فربما وقع اختيارك مثلا على صالة الحفلات فى Whitehall — حيث خطا «شارل الأول» من هناك خطواته الأخيرة إلى الموت ؛ وربما وقع اختيارك على واحد من منازل الأطباء البسيطة بجوار Harley street ، فأين يكون الجمال ؟ إنه يجىء من نسب العرض للارتفاع ، من الأشكال والحجوم المتناسبة فى النوافذ والأبواب ، ومن الطريقة التى تنظم بها تلك على واجهة البناء ، يجىء من علاقات مشابهة كل الشبه لتلك التى تبيناها عندما نظرنا إلى صفحة الورق وإلى الصليب . والآن استمع إلى النظرية التى أوحت بمثل هذا البناء : « إن جمال أى بناء يتألف من نسبة مضبوطة — بين أجزائه بعضها وبعض — وبين الجزء والبناء كله ، فإن البناء الجميل يجب أن يبدو جسما كاملا تاما ، يتناسب فيه كل عضو والعضو الآخر ، وينسجم فيه العضو والجسم كله ، حتى ليبدو وجود ذاك العضو حتمى الضرورة لوجود الجسم » . هكذا كتب «بالاديو» فى سنة ١٧٥٠ . والمبدأ الذى قرره يمكن تطبيقه على كل عمل من أعمال الفن .

لقد أخذت إلى الآن أمثلة — بادية الوضوح . ولكن حتى فى الأبنية لا تحتاج النسب إلى أن تكون فى هذه البساطة وذلك الوضوح اللذين نراهما ماثلين فى فن العصر الكلاسيكى أو عصر الإحياء . فإن كاتدرائية (سالزبرى)

أو كاية (مودلين) وبرجها لا تقل رقة وجمالا . ولقد يبدو الفن هنا لأول نظرة أقل انتظاما وإن بدا أكثر رواء ، ومع ذلك فترتيبه مصدر جماله . وإنَّ كون هــذا الترتيب لا شعوريا أو قريبا من الصدفة والاتفاق ليستثير إدراكنا له ويزيده قوة . وكل ترتيب إنما يستلزم علاقة بين بعض الأجزاء وبعض ، وبينها وبين الـكل الشامل .

هناك ألفاظ كثيرة استعملت لتدل على هـذه الحقيقة الأساسية التى أقررها ، ومن هذه كلمتا balance (توازن) و harmony (انسجام) . ولـكن هذه الـكلمات لا توضح نفسها تماما ؛ إن كلمة « توازن » تشير على العموم إلى مجرد تعادل ، فأنت تعرف الطريقة التى ينظّم بها الناس الأشياء فوق المدفأة : الساعة فى الوسط ، يحفها من الجانبين زهريتان صينيتان ، ثم صورتان فى إطاريهما — كل واحدة فى طرف . هنا تجد العلاقات ظاهرة ظهورا مزعجا ، فهى ليست سارة ولـكنها مؤلمة ، والتوازن بهذا المعنى الحرفى خشن فضولى يفرض نفسه فرضا . وتجد مثل هذا النقص فى بعض الموسيقى والشعر والنثر حيث التأليف آلى مصنوع طبقا للقاعدة . العب السلّم الموسيقى من C إلى C ثم العبه عودا على بدء تجد اتزانا كاملا ، ولـكن لا يستطيع أحد أن يقول إن هنا لحنا كاملا . فالتوازن الحقيقى فى الموسيقى — إذن — لا يتألف من مجرد نصفين يكون كل منهما صدى للآخر ، بل يجب أن يكون هناك طرافة دائمة ، ومع ذلك فالأجزاء الطريفة يجب أن تتناسب والأجزاء التليدة . أو تحول إن شئت إلى فواصل الأدب واقرأ :

> "It is the landscape, not of dreams or of fancy, but of places far withdrawn, and hours selected from a thousand with a miracle of finess."

هنا توازن موسيقى دقيق بين الجملتين اللتين يربطهما حرف العطف (and)

وتوازن كذلك بين شبهي الجملة اللتين تتألف منهما كل من الجملتين . ولكنه توازن الشجرة الحية ، أو العصفور في طيرانه ، لا التوازن الميت الذي تلقاه في أرجوحة مثلا . كذلك الحال في الشعر فإنك إن تُطع النبرات إطاعة عمياء، لم تنتج إلا هراء شبيها بنظم تلاميذ المدارس يدق — كالساعة المعلقة — دقات رتيبة . ومع ذلك فإطاعة الوزن أساسية في تعريف الشعر ، على شريطة أن تكون إطاعة حرة غير شعورية ، لا خضوعا شعوريا أو مفروضا . إن القصيدة يجب أن تكون بحيث يحس قارئها أنه يمكنه تقطيع أبياتها إذا أراد ، ولكن هذا التقطيع العروضي يجب ألا يطرق أذنه طرقا عنيفا ، بل يجب أن يحسه هو ضمنا كاللحن الخفيّ ، من غير أن يعمد إليه ويتنبه له تنبها محدوداً . أما كيف يمكن ذلك فسترى بعد لحظات .

الآن نبدأ ندرك مكان الإدراك الذوقي بين الإدراكات الأخرى للعقل ؛ فقد اهتدت السيكلوجيا — كما رأينا في أول هذا الكتاب — إلى أن العقل بجانب إدراكه المحسوس والمشاعر والانفعالات وما أشبهها لديه المقدرة على إدراك العلاقات . ونحن نعلم الآن أن إحساس الجمال عندنا يتوقف في جوهره على إدراك الموضوعات أو المحسوس — من أشكال وألوان وأصوات — بل وحوادث وانفعالات — في علاقات معينة . والمحسوس التي لا تسمح بعلاقات ألبتة — أو لا تسمح إلا بالقليل منها — كالشم والذوق مثلا ، تكاد لا تستطيع أن تكون أساسا لتذوق فني ، أو أن تكون موضوعا لفن من الفنون .

وقد لاحظنا كذلك أن العلاقات نفسها يمكن أن يكون بين بعضها وبعض علاقات ، وهذا هو ما يحصل بالضبط في العمل الفني ، فإن نسيج

العلاقات — التى هى نفسها متعلقات — يؤلف ما يمكن أن نسميه نموذجا أو هيكلا . والذى يكون جوهر الجمال هو وجود هذا النموذج الهيكلى الضمنى ، أو أن شئت فقل وجود نوع من النظام أو الترتيب ليس سطحيا ولا دخيلا ولكنه طبيعى حى كالخصائص التى تقرر نمو النبات .

فوظيفة العلاقات — إذن — هى أن توجد الأجزاء وتجمعها فى كتلة أو شىء واحد ، وعلى هذا فالفكرة الرئيسية — فى بناء أو تصوير أو تمثال ما — تقرر العلاقات العامة للأجزاء ؛ وهذه العلاقات بدورها تقرر العلاقات الفرعية ، وهكذا إلى القطعة الأخيرة من الإزميل ، أو اللمسة النهائية من الفرشة إلى أن يصبح الكل وحدة عضوية حية .

لقد أدرك الكتاب السابقون هذه النقطة عند ما تكلموا عن التنوع والوحدة واعتبروهما الشرطين الحتميين فى الموضوع الجميل ؛ فالموضوع يجب أن يؤلف كلا واحدا ، أى يجب أن يجرى خلاله نوع من الوحدة ، ومع ذلك فيجب أن يكون خلال هذه الوحدة تنويع فى الأجزاء أو المراحل . وعلى هذا فالخط المستقيم لا يمكن قط أن يكون بنفسه جميلا ، فله وحدة ولكن ليس به تنويع ؛ والخطوط المتناثرة التى ترقمها يد طفل غير نجيب ، مجردة كذلك من الجمال ، فهى على تنويعها ليست لها وحدة .

وهناك تجارب تقوى هذه النقطة الرئيسية ؛ لقد كان السابقون من علماء النفس يقولون إن المنحنيات أجمل من الخطوط المستقيمة ذات الزوايا ، أو النقوش المختلطة المرسومة بلا اكتراث ، لأن المنحنيات تتطلب فى إدراكها حركة سهلة على العين ، وكان يقال إن خطوط التأليف فى الصورة المحكمة الوضع تقود العين . أما الآن فقد صورت حركات العيون وهى تنظر إلى الخطوط أو الصور فوجد أن هذه الحركات نفسها قليلة الصلة

أو عدمها بالمنحنيات التي زعموا أنها تتبعها ؛ وإنما تتعرج الحركات هنا وهناك ، فى حين أننا نكاد لا نشعر بالمرة بهذه الحركات التى تعملها حدقات عيوننا .

فالذى ثبت أنه مُهم كل الأهمية ليس حركة العين ، ولكن حركة الانتباه ، والانتباه فى أساسه يتوقف على مقدرتنا على أن ندرك شتيتا من العناصر مجموعة فى نظام موحّد . وإنما يحب الشخص الصورة أو القصة أو اللحن حينما تكون هذه معقدة ومنوعة لدرجة يبقى بها الانتباه دائم النشاط ، ولكنها مع ذلك يجب أن تبقى مظهرا لوحدة قائمة ، تستعين بها جهوده فى الفهم الانتباهى ، فلا تنهزم أمام التعقيد والتنويع . لهذا السبب نجد العقل البسيط يحب الأسجاع البسيطة ، والأوزان البسيطة ، والصور الظاهرة البسيطة ، وتلك الطريقة المتعادلة البسيطة طريقة حشد أدوات الزينة فوق المدفأة . أما عند العقل اللّبق فلحن الأنشودة الدينية من السهولة بمكان ، والسمفونيا ليست كبيرة الصعوبة ، وهو يفضل أوزان «شاكسبير» الحرة المعقدة على أهازيج «لونجفلو» السهلة المرحة . وهو يحب من الرسوم ما قام هيكله على نظام مقرر ، على شريطة ألا يكون ذلك الهيكل ظاهرا ظهورا ثقيلا ، وأن يجيء نتيجة الحس الخالق ، لا متكلفا طبقا للقواعد التقليدية .

غير أن حركة الانتباه تحليلية ، فى حين أن وجود الجمال الحقيق يطرق إحساسنا فى لمحة الطرف . فهنا — كما ترى — لغز سيكولوجى آخر ، هو : إذا كان حكمنا على صورة ما قائما على إدراكنا للكل ، وهذا الإدراك تقتنصه العين المدرّبة فى طرفة واحدة ، فليس لدينا — إذن — الوقت الذى نلاحظ فيه الأجزاء ، دع جانبا كشف العلاقات !

إن المعضلة تحل على أساس حقيقة أخرى لا شك فيها ، كشفها علم النفس الحديث ، وقد يكون فيها شيء من الغرابة ؛ ذلك أن العقل يستطيع أن يدرك كلاً معقدا ، فى حركة واحدة من حركات الانتباه ، وهذا شأنه على الدوام . وقد أصبح من الممكن فى العمل بالاستعانة بأجهزة ماهرة — أن يقاس الزمن اللازم لالتقاط الفهم نموذجا معقدا — كلمة مثلا كلفظة « برمنجهام » ، والزمن اللازم لتعرف شيء أكثر بساطة — حرف واحد مثلا كالحرف E أو O . وقد وجد أن الزمن فى كلتا الحالتين تقريبا وهو ⅕ ثانية ، وأنت فى هذه اللحظة تتعرف الألفاظ والمعانى بنفس هذه الطريقة السريعة .

كانت النظرية القديمة أن الطفل يجب أن يبدأ بالحروف المنفصلة ثم يتدرج إلى جمعها معاً فى النظام المناسب فيبدأ مثلا بالحرفين f,a ويكون منهما fa ثم الحروف t,h,e,r فيكون منها ather وبعد ذلك يكوّن من الجميع father . أما الآن فكل معلم يعرف أن هذه ليست الطريقة الطبيعية لتعلم القراءة أو الكلام ، وإنما الطبيعى أن يبدأ بالنموذج اللفظى الكامل . وكذلك الشأن فى إدراك أى شيء ، فلست تقول مثلا « إنى أرى شعرا أسمر وأسنانا قادمة تحملها أربعة أرجل ، وأرى ذنبا فى الطرف الآخر » ، ولكنك تقول : « إنى أرى كلبا » ؛ وعقلك — إذ يدرك الكلب — يلم إلماما شبه باطنى بالأجزاء المتنوعة والطريقة التى تؤلف بينها لتجعل منها شكلا شبيها بالكلب .

وشبيه بهذا إدراكك الجمال ، فعند ما تستمع إلى لحن موسيقى ، لا تستطيع أن تتريث حتى تدرس العلاقات بين كل صوت والذى بعده ، ومع ذلك فهذه العلاقات نفسها هى التى تخلق اللحن وتخلق جماله . فأنت

تفقه العلاقات — فى طريقة لاشعورية — أو ، كما أفضل أن أسميها ، فى طريقة ضمنية ، وبهذا تتعرف الطابع العام فى كلّ محكم النظام ذى مغزى .

هنا يبدو أننا نصل إلى الفرق الجوهرى بين الفكر المنطق والإدراك الجمالى ، بين النظر العقلى والذوق الفطرى ، بين تتبع مناقشة علمية واختطاف لمحة من الشيء الجميل . فأمامنا فى كلّ من هذه نظام من العلاقات ، وهذه العلاقات نفسها مترابطة بحيث يتألف منها كلٌّ منظم . ولكننا فى الأول من كل زوج من الأزواج المذكورة نعمد بانتباهنا إلى العلاقات نفسها نأخذها واحدة بعد أخرى فى نظامها المتعاقب ، أما فى الثانى فإننا نعمد بانتباهنا إلى النموذج العام نمسك به فى ومضة واحدة . وإذن فقد يكون الموضوع واحدا ، ولكن طريقة الإبصار تختلف : فعالم النبات يفصل الزهرة قطعا وأجزاء ؛ ولكن الفنان يريك إياها زهرة حية . وعالم التشريح يشرح لك الجثة الميتة حتى عظامها المترابطة ؛ وأما المثال فيعطيك اللحم النابض محولا إلى رخام فيه حياة . وعالم النفس يخبرك بكل ما هنالك عن التجربة الانفعالية ؛ ولكن الشاعر يعينك على أن تحيا تلك التجربة — وعلى أن تستحوذ عليها وتجعلها ملكا لك . فالعلم تحليلى والفن تركيبى ؛ العلم صريح والفن ضمنى ؛ العلم مجرد والفن ملموس .

إننا الآن مندفعون اندفاعا نحو تقرير أحكام عامة شاملة غير متحفظة . ولكن لنخاطر فنخطو خطوة أخرى على سبيل المحاولة ؛ يبدو أن علم النفس يزداد ميلا إلى اعتبار العلاقات ذات وجود حقيق ؛ فهى هناك ؟ حتى عندما نعجز عن ملاحظتها أو تحليلها ، وهى موجودة وجودا موضوعيا — أى أنها مستقلة عن وجود شخص يدركها . والواقع أن العلاقات مهما بدت مجردة وعزيزة المثال ، فهى — فى رأى الكثيرين — العناصر التى لا شك

فيها فى هذا العالم ، والنقط التى لا يمكن أن يخامرنا فيها أدنى ريب . فنحن قد نختلف فى وجود المادة ، وقد نناقش ، إمكان بقاء اللون أو الضوء أو الصوت ؛ ولكن العلاقات بين هذه النواحى — أو بين الأشياء الخفية التى تمثلها — هى التى تكوّن أساس كل اعتقاد . خذ مثلا بعض العلاقات الأكثر وضوحا والتى يمكن العقل أن يدركها — كعلاقات المكان أو الزمان — إننا على يقين من أن هذه قائمة ، سواء أدركناها أم لم ندركها ، « فادنبرة » باقية شمال « لندن » على حين ينام كل مخلوق ؛ و « ووترلو » تجىء بعد « هيستنجز » رغم أن الموقعتين حدثتا منذ زمان بعيد . وكذلك الحال فى العلاقات المستخدمة فى المنطق والعلم ، كعلاقات « لأنّ » « وحينئذ » ، و « من أجل هذا » . وقضايا الحساب ، من مثل ضعف ٢ = ٤ ، ومربع ٣ = ٩ ، تبق صادقة سواء ألاحظت أنا صدقها أم لم ألاحظ . وإنى لميال إلى القول بأن العلاقات الذوقية — كالعلاقات المنطقية — لها وجود موضوعى مستقل ، فتمثال « ڤينوس » من عمل « ميلو » سيبقى أجمل من تمثال (الملكة فيكتوريا) ، و « تاج محل » أجمل من نصب « البرت » التذكارى ، حتى ولو مرّ مذنب فقتل بغازه كل رجل وامرأة فى العالم .

وإذن فنحن مسوقون إلى نتيجة بعيدة المدى : لقد يبدو أننا نستطيع بالبدائه الذوقية أن ندرك أنظمة من العلاقات شاملة ؛ وهى من التعقيد بحيث لا تستطيع قوة العقل الإنسانى المجرد — على ما أوتيت من صبر وتحليل — أن تفرغ من تفصيلها إلى أجزائها ؛ فقطوعة « وردزورث » فى « قنطرة وستمنستر » ، والجزء الأخير من أوبرا « ترستان » ، ومجموعة التفاح من رسم « سيزان » — كل هذه تعطينا فى خمس دقائق أكثر مما يستطيع الفيلسوف أن يشرحه فى محاضرة تستغرق ٦٠ دقيقة . وقد يكون

شرح الفيلسوف — على طوله — من التخصص بحيث لا يستطيع تتبعه إلا القليلون . وإذا كان ذلك كذلك فالفكرة الشائعة — من أن الجمال إنما ينشئه منشئه ويستمتع به مجرّبه لا لشيء إلا لأنه يعطى لذة — فكرة قائمة على سيكلوجيا خاطئة تماماً . ولو صحت هذه لصح قياساً عليها أن يقال إن برهان « أينشتين » على النسبيّة إنما يوجد لأنه يعطى لذة للمخترع والقارىء . فكما أن بحث الرياضى عن الحقيقة هو مثال سام من ذلك الحق الطبيعى لكل إنسان — وهو البحث عن الحقيقة ، كذلك بحث الفنان عن الجمال ليس شهوة أو خيالا لعبقرية ضالة ، وإنما هو مثال خالص من موهبة هى فى متناول الجميع — موهبة تمكنّ الصغير وبطىء الفهم وغير المتعلم من إدراك القيم الإنسانية ، أحسن مما يمكنهم الجدل المنطق . ونحن كلنا أمام الوجود بطيئو الأفهام صغار غير متعلمين .

— ٤ —

والآن فلنجمع مما أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه البحوث المتنوعة : إن سيكلوجية الفن تكشف لنا أن إدراك الجمال الفنى عملية مختلطة عظيمة التعقيد . فأولا ، تثير الصورة أو العمل الفنى — بالضرورة — مجموعة من الروابط الشعورية واللاشعورية وبذلك تنقل إلينا معنى . ثانياً ، يظفر الشخص بالمعنى لا فى ضوء الفكر الهادىء ولا بالنظر إلى نتيجة عملية ولكن فى حالة من الانفعال المعتدل ؛ فالفنان يضمّن عمله تجربته الانفعالية ونحن من جانبنا نستجيب ، وإذا تحققت هذه الاستجابة انقلبنا نحن فنانين . ثالثاً ، الانفعال الذى يوصله العمل الفنى هو انفعال إنسانى ، وعلى هذا فالصور — وحتى الموضوعات الطبيعية من مثل غروب شمس أو قمة

جبل — ما دامت تؤخذ من وجهة كونها جميلة — تبدو كأنها تشير إشارة مبهمة إلى شخصية وراءها، وربما كانت هذه الإشارة مجرد وهم. رابعاً، تبين التجربة الانفعالية عن نفسها خلال الصورة التي يخلعها الفنان على المادة المحسوسة، خلال الوزن أو النموذج، خلال نظام من العلاقات التي توحد المجموع. وإدراك النموذج أو النظام لا يكون في طريقة شعورية أو صريحة — فذلك ليس شأن الفن بل العلم — وإنما يكون في طريقة ضمنية أو لا شعورية، بوساطة ما يسمى — تجوزاً — الذوق أو اللقانة الفطرية. والذي ينتج عن العملية كلها إنما هو قبس من اللذة الراقية التي يمكن أن يُشارَك فيها (لا اللذة البسيطة التي لا تقبل التوصيل والتي يكون مصدرها الذوق أو الشمّ أو الحسوس الجسمية). وتلك اللذة الراقية ليست عديمة الشبه بلذة اللعب، فالفن — من حيث أصله ومن حيث ما يبدو فيه من عدم نفع — تربطه باللعب وشائج كثيرة. وربما كان مبعث هذه اللذة أننا نجدد رغباتنا اللاشعورية محققة خيالياً في العمل الفني، أو أنه — خلال الفن والتجربة الفنية — يبدو لنا أننا نكشف (في طريقة أسرع من العلم وآكد من الفلسفة) قيمة روحية في الوجود باعتباره وحدة، أو في أجزائه إذ يختارها الفنان، ويعيد خلقها، ويضمنها عمله الفني الذي نتفهمه ونتدبره. أما أي التفسيرين أصدق، فذلك سؤال عويص. والجواب عليه يتوقف في نهاية الأمر على أسس أخرى غير تلك التي يستطيع عالم النفس — بصفة كونه عالم نفس — أن يناقشها أو يجادل فيها.

الفصل السادس عشر

سيكلوجية الدين

إن علم النفس يجب أن يتضمن عرضاً لكل ناحية أو صورة يمكن أن يأخذها الشعور الإنسانى ، ومن هنا يقع الشعور الدينى فى ميدان البحث السيكلوجى . غير أن عالم النفس يدرس الدين لا ليكشف كونه حقاً أو باطلا ، بل لمجرد أنه معنىً يرافقه من البشر وبأعمال عقولهم . والباحث النفسانى قد يكون له — بصفة كونه إنساناً أو فيلسوفاً — دينه أو فلسفته الخاصة ؛ ولكن ذلك لا ينبغى أن يكدر عليه نزاهته فى دراسة شعائر الفرق الأخرى ، أو عقائد الأجناس الأخرى ؛ ولهذا يستوى عنده ضلال الوثنى الذى يركع أمام الخشب والأحجار ، ورؤى « دانتى » السامية عن الجحيم والمطهرة والنعيم . وهو يتصيد معلوماته من كل عصر وقطر ؛ فسيدة « بوسطن » بروحانيتها وشطحاتها فى وادى النجوم ، ورجل الغابة الاسترالى يصيح حول حيوانه المقدس (توتمه) الببغاء الأبيض ، والسناتور الرومانى وهو يعبد زُمراً من الأرباب والإلاهات ، واليهودى والمسيحى والمسلم عابدين إلهاً واحداً — كل ذلك الحشد الزاخر بالعقائد والشعائر يمر أمامه كمجموعة من الحقائق تُلاحَظ وتوازن .

وأول مسألة يواجهها هى : كيف ينشأ الدين وكيف يتطور وينمو . فهو لهذا يحاول أن ينفذ إلى البواكير الأولى للدين ، وهناك — فى سلوك المتوحش الفطرى وفى أوهام الطفل الصغير — يجد مايشبه أن يكون مقدمة

للعبادات الراقية عند الكبير المتحضر . وقد تقدم لمعونته أخيراً فى هذين الميدانين علما الأجناس ، والتحليل النفسى .

لقد ظل الباحثون يفترضون أن التصورات الدينية الأولى عند المتوحشين نبتت من اعتقادهم فى الأرواح ، التى قد يتخذ الكثير منها (أو واحد منها) آلهة تعبد . ونحن مدينون للعالم « تيلور » (E. B. Taylor) بلفظة أنيميزم (aninism) — ومعناها القول بحيوية الأشياء — وبالرأى المستحسن الذى تعبر عنه ، وهو النظرية التى تذهب إلى أن الاعتقاد فى الأرواح يعطينا أضيق تعريف ممكن للدين . هذه التصورات الدينية تكاد تبدو عامة فى مراحل معينة من تطور الإنسان ، ولكن من المعضل أن نقرر كيف بدأت أول ما بدأت . ولعلها نبعت فى الغالب من الحقيقة المعروفة وهى أن المتوحشين — كالأطفال والمراهقين — ذوو صور ذهنية بصرية واضحة ؛ فهم كمثل « هاملت » يرون صوراً غريبة « بعيون عقولهم » . ولما لم تكن لديهم كلمة سيكلوجية مناسبة تصف مثل هذه الصور الذهنية ، تحدثوا عنها كأنها أطياف . ففى الغابة أو بين القبور — حيث يخيم الظلام فيمنع رؤية الأشياء — يرى الفطرى فى خياله أولئك الذين غابوا عنه أو ماتوا ؛ ويخيل إليه أن أصدقاءه يجيئون لزيارته وهو نائم ليلا . حتى إذا صحا وفكر فى تلك الرؤى الغريبة بدأ يملأ الدنيا بأطياف وأشباح رقيقة ضعيفة شبه شفافة ، وكذلك شأن الصور الذهنية فى العادة . وليست هذه الأشباح فى الحقيقة إلا إبرازاً (أو عكساً) للكائنات الوهمية التى يراها فى أحلام نومه ويقظته .

غير أن اطراد الدراسة قد بيّن أن الاعتقاد الواضح فى القُوى أو المؤثرات الشخصية إنما هو تطور متأخر نسبيا ؛ فإن « سير جيمس فرزر » — وقد

قبل رأى « تيلور » فى الدين بالمعنى الضيق — قد فرق تفريقا بيّنا بين الدين والسحر ؛ إذ يقول : « إن عصر السحر قد سبق عصر الدين فى كل مكان » . وهو يعتبر السحر نوعا من العلم البدائى ، فالساحر — سائرا على ضوابط تقليدية متوارثة — يحاول أن يثير الريح بالصفير ، أو أن يجلب المطر بأن يلوّح بفرع نخل قد غمس فى ماء حار ؛ فهو إلى هذه المرحلة لم لم يتهل إلى قوة عالية تتدخل بالنيابة عن الإنسان ، وليس هناك إلا ثقة ساذجة فى العملية الآلية المباشرة . إن غلطة الساحر هى أنه يختار العلة الخطأ ، فهو يفضّل أن يفترض أن الشبيه يحدث الشبيه على أن يبحث عن القوانين الخفية للطبيعة ، فى دراسة للحقائق هادئة صبور .

ولكن « فريزر » — مثل « تيلور » يعامل العملية كلها فى عقل الهمجى كأنما هى نظر عقلى هادىء مرسوم . وظاهر أن هذه المعاملة خطأ سيكلوجى ؛ فالهمجى ليس عالما صغيرا ، وليس كهنوتيا ناشئا ؛ إنه ليس مفكرا منطقيا واضحا ، ولكنه شخص غِرٌّ سريع التأثر ، حريص على أن يخبر ما حوله . ودينه — كما تقول دكتورة « مارت » « ليس شيئا يفكر فيه ولكن يرقصه » . فالاعتقادات الصريحة — عنده كما عند سائر الناس — تجىء متأخرة دائما . إن الوعى يشمل الإحساس والعمل كما يشمل الملاحظة والاستنتاج ، وفى العادة تندفع الأحاسيس والأعمال إلى الظهور أولاً ، أما الاعتقادات فإنها تنبعث متأخرة لتبرر هذه الأحاسيس والأعمال وتفسرها .

فأول شكل من أشكال الدين — إذن — يجب أن يُتطلّب فى الإحساس الدينى أكثر مما يتطلب فى المذاهب الدينية . إن الدين مدين بميلاده — كما يظهر — إلى بعض غرائز غامضة (ولكنها عامة يشترك

فيها الجنس البشرى كله) ، هى غرائز الخوف والعَجب والخضوع والإعجاب (بشىء خارج) ، أى ما يصح أن نسميه فى كلمة واحدة «الرَّوْع» أو «التُّق» . فهذا المعنى — معنى الشىء الرائع — يغمرنا قبل أن نكوّن لأنفسنا رأيا واضحا عما فوق الإنسان أو فوق الطبيعة بأمد طويل . فعند ما تهب العاصفة على قرية « كافرية » (من قرى الزولو) يهرع السكان إلى الخارج ويصيحون فى وجهها ، ولا تبدو صيحاتهم أكثر من صيحات فزع وضيق . أما (الفيجيون) فيخبرونك أن الإعصار « من صنع رجل كبير يعيش فى الغابات » — وإذ قتلت البطة المقدسة « فإن الرجل الكبير يغضب ويهيج عاصفة — ضارة — وعندئذ « يسقط المطر وينزل البرَد وتهب الريح ، وينفخ هو نفخا شديداً ، والطريقة الوحيدة لتسكين العاصفة أن تصيح فى وجهها وتقذفها بالحجارة . هنا ترى كيف يحس الهمجى أولا بالفزع من شىء يفجؤه فى صورة خطرة أو عادية ، ثم يقوده فزعه بعد ذلك إلى أن يحيك نظرية حول الشىء الذى أخافه . وطريقة تفكيره تجعله يعتبر الجو الردىء من عمل كائن مثل نفسه ، ولهذا يحاول أن يخيف ذلك الكائن أو الرجل الكبير الذى يهدده أو يتقرب إليه زلفى . وبالتدريج تحل الصلوات محل نفثات السحر .

هناك أنواع كثيرة من الأشياء تؤثر فى انفعالاتنا — فى طريقة غير مفهومة على ما يظهر ، فالرعد والبرق والأجساد الميتة والدم ، كل أولئك رائع مخيف . وإذ أن مجرد رؤية هذه الأشياء أو التفكير فيها يحزن الهمجى ، فإنه يتوهم أن لها نوعا من القوة الخفية . وقد اضطره هذا إلى أن يضع كلمة اصطلاحية يعبر بها عن هذه القوة كما تبدو لعقله البسيط . والتعبير المريح الذى يستعمل بكثرة بين سكان جزائر المحيط الهادى هو « مانا » —

هـذه الـكلمة تشير إلى قوة نفسية لا قوة مادية — تشير إلى خاصية إثارة الانفعالات العميقة ، ومن عناصرها الشدة والحيوية والنفوذ والتأثير السحرى والقداسة المجدة وكل ما هو منذر ومخيف . وقد تحل فى الأسد الحىّ ، أو الجسم الميت ، أو عاصفة من الرعد ، أو رئيس من رؤساء القبيلة أو ساحر أو سلاح أو خمر . وهى غامضة ومعجزة معا ، قدسية ولا قدسية ، هى مقدسة sacred بالمعنى المزدوج لتلك الـكلمة الافرنكية القديمة ، أى أنها موضع التقديس والتحريم معا .

والهمجى — إذ يؤمن بهذه القوة — قد يحاول فى حذر أن يحصلها لنفسه ؛ فقد يشرب دم الجاموسة ، أو يأكل لحم العدو رجاء أن يحصل على ما بهذه أو ذاك من « مانا » فيرهبه رفاقه ، أو أعداؤه ؛ وشبيه بذلك ما يعتقده الـكثيرون الآن من أن بلع خلاصـة اللحم البقرى يورث آكله نشاط الثور . وعنـدما قتلت قبائل أشانتى (ashantees) « سير تشارلز ماكارثى » اجتمع رؤساء الجيش من آكلى لحوم البشر وقطعوا قلبه أجزاء وأكلوه فى صمت وجلال تبعا لعادتهم القبلية . مثل هذه الشعائر والمناسك — من تضحية الأضحية وأكلها أحيانا ، و « شرب ماء الحياة » وتجرع كأس العظمة — تلعب دورا كبيرا فى الديانات الفطرية ، وتتحول الشعائر فى النهاية إلى طقوس ، إلى نوع من الحفلات الرمزية ؛ ثم تنمو المذاهب المختلفة بعدُ لتفسر الطقوس .

لقد يبدو غريبا — أول الأمر — أن نجد فى الديانات الراقية فى هذه الأيام أنواعا من العادات والمعتقدات مستمرة فى وجودها ، على ما هو ظاهر من أنها من بقايا العصر الهمجى أو عصر ما قبل التاريخ . وتعليل هذا أن انفعالاتنا الموروثة لم تتغير ذرة واحدة عما كانت عليه عند ما فارقنـا عهد

البربرية ، فلا تزال تنبعث فينا الرهبة والروعة ، تبعثها نفس الموضوعات والحوادث ، من الدم والمرض والخطيئة وأزمات الحياة ومصائبها والميلاد والزواج والموت المفاجىء والقوى الغامضة التى يبدو أن لها إصبعاً فى كل ما يحل بنا .

وعند ما نتحول من الهمجى إلى الطفل نجد نفس الانفعالات على الدوام منبعثة ؛ فالطفل الصغير يحس رهبة مشابهة نحو أبيه وأمه ، وموقف الطفل نحو أبيه — كما يبيّن التحليل النفسى — يشبه موقف الكبير من ربه ، وهكذا يتصور الهمجى ذلك « الرجل الكبير » الذى يعبده ، على صورة الوالد الكبير . أضف إلى ذلك أننا حين ندرس الحياة الأخلاقية عند الطفل نجده مشغولا انشغالا خاصاً بثالوث من الأشخاص . — أبويه ونفسه . ومما يبدو ذا مغزى أن كثيراً من الديانات والأساطير الدينية الأولى ، بل معظمها ، يتركز حول مجموعة ثلاثية من الأشخاص تشتمل فى العادة أباً وأماً وابناً : فمثلا أورانوس — أو السماء ، و « جايا » — أو الأرض ، وابنهما « كرونوس » فى الأساطير الإغريقية الأولى ؛ و « أوزيريس » و « أيزيس » و « حورس » فى الأساطير المصرية ؛ و « أدوم » و « أو كوبا » و « أبريبو » فى خرافات القبائل الينجيرية[١] . فالطفل يتجه بفطرته إلى أبيه وأمه ابتغاء الأمن والراحة والوقاية ، وهو ميال إلى أن ينسب لكليهما — أو لأحدهما — المعرفة الكاملة والخير الكامل

(١) يقول « مستر جلادستون » فى شرح ذلك إن الديانات الهوميرية وغيرها ليست إلا تحريفاً من الدين الحقيقى الذى يقول بوجود ثالوث مقدس ، والذى كان فى المبدأ عام القبول . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا الرأى ظهر فى نفس السنة التى ظهر فيها كتاب « داروين » عن (النشوء والارتقاء) . وهذا الكتاب كان له بعد تأثير عميق فى علم الأديان . (المؤلف)

والقدرة على الخلق وعلى التدبير ؛ وهذه هي نفس الصفات التي ينسبها المتدين لأربابه الأعلين . ولقد ذهب « هربرت سپنسر » إلى أن معظم نظريات الدين وشعائره تطورت من عبادة الأسلاف في الزمان البدائي ، إذ كان أفراد القبيلة يعبدون سلفهم المقدس الذي تحدروا من صلبه .

إن أولئك الذين أدركوا هذه الأنواع من الأشباه والنظائر قد قفزوا أحياناً إلى نتيجة ليسوا فيها على صواب ؛ فمن افتراض أن الدين بقية من بقايا تفكير الطفولة أو الهمجية راحوا يستنتجون أن الديانات كلها ليست إلا أثراً خرافياً لا يجدر بالكبير المستنير الإبقاء عليه . لقد قابلنا هذا الخطأ من قبل — وأنا ميال إلى تسميته خطأ النشوئيين — عند ما بحثنا مصدر الفن . فإذا كان عالم النفس قد كشف كيف تطور الشعور الديني ، فليس يلزم على هذا أنه قد حط من شأن الدين أو أبطله أو فسّره بما يذهب بقيمته . وحتى لو صح أن الموقف الديني موقف طفولة ، فمن الجائز جداً أن يكون هذا أحسن موقف ، بل ربما كان الموقف الوحيد الذي يمكننا أن نتخذه عند ما تواجهنا معضلات الوجود المجهولة .

إن العالم كثيراً ما يميل إلى اعتبار السحر والدين كأن كل واحد منهما لون آخر فقير من ألوان العلم . نعم ، إن الدين عند الهمجي كثيراً ما أخذ مكان العلم : لقد كانت معلوماته العلمية عن الزراعة ضئيلة فلجأ إلى الأضاحي والرّقَى ، وكلما أراد أن ينمي زرعه أحرق شاباً مطهراً ، على قربان نار بطيئة الاحتراق ؛ والسر في اختيار نار رقيقة على هذه الصورة هو إطالة الوقت حتى تكثر دموع الضحية ، فعلى قدر غزارتها يغزر المطر ، ولكي تكون التضحية نافذة الأثر وجب أن يختار لها فصل خاص هو أيام الفصح أو أوائل الربيع ، وإلا لم يتأتَّ الحصول بها . وقد كان من واجبات رجال الكهنوت

أن يحسبوا الوقت المناسب لهذا الغرض ، بانين حسابهم على ارتفاع الشمس . وفى هذا يلتمس بعض الباحثين مبادىء التفكير العلمى والملاحظة العلمية . إن الدين فى يد باحث القرون الوسطى كثيراً ما أصبح علماً منظماً للوجود كله ؛ ووجهة النظر هذه لا يزال يأخذ بها اللاهوتيون الرسميون . ولكن ديانة الجماهير الغالبة من الناس ليست فى أساسها مجموعة من المعتقدات الذهنية ؛ فالدين الذى يصبح ذهنياً خالصاً سرعان ما يفقد كونه ديناً ، إذ يصبح فرعاً من الميتافيزيقا . ومع ذلك فلا العلم ولا الميتافيزيقا فى شكلهما الحاضر يستطيعان أن يعطيانا صورة — نهائية أو مقنعة — للوجود وعلاقته بالفرد الإنسانى . ولهذا تجد معظم الناس — مهما كانوا حكماء ومستنيرين — يشعرون بالحاجة إلى شىء ما ، (وقد يكون هذا الشىء وقتياً محضاً) يطمئن أحاسيسهم ويقوى إرادتهم .

فكيف — إذن — يستطيع هؤلاء أن يكسبوا هذه الثقة المنشطة ؟ هل يجلسون ويفكرون فى المعضلة من أولها ، كما كان يفعل « روبنسون كروزو » لو أنه وجد نفسه فى طفولته وحيداً فى جزيرته الصحراوية ، وترك ليكوّن آراءه الدينية ؟ من الغريب أن هؤلاء يتحدثون كما لو كانت تلك حالهم ، فهم يدافعون عن معتقداتهم أو عن رفضهم الاعتقاد كما لو كان ذلك لوناً من ألوان النظر العقلى الخاص . ولكن دعنى أؤكد مرة أخرى القول بأن الدين ليس مجرد استنتاج منطقى هادىء ، ولا مجموعة من النتائج العلمية يخترعها كل شخص أو يثبتها لنفسه ؛ فالواقع أننا نأخذ ديانتنا من الجماعة التى نحيا بينها ، ونحن نستمدها من آبائنا ومدرسينا ، ومن المعابد التى نعتادها فى بواكير الشباب ، ومن الكتب والمجلات التى تقع صدفة فى أيدينا ، ومن المعتقدات والأوضاع التى تحيط بنا مجهزة مهيأة — وفى عبارة

قصيرة — نحن نستمد دياناتنا أساسياً من التقاليد ، فنحن نقبلها كما نقبل الزي الوطني ، واللسان القومي ، بلا تفكير كثير ، ومن غير باعث مقرّر صريح ، ثم تهاجمنا الشكوك بعد ؛ وبراهيننا وحججنا تكاد تكون كلها تبريراً متأخراً ، أيْ عللا نتلمسها لآراء أتخذناها من قبل . وهذه العلل نلصقها إلصاقاً بتلك الآراء التي قبلناها ، مثلها في ذلك مثل حاشية تلحق بآخر الكتاب .

ولكن التقاليد دائمة التغيير ، فبالرغم من الحروب والحملات الدينية والاضطهادات والجهود العنيفة في سبيل المحافظة بالقوة على المذهب الأصلي — بالرغم من كل هذا ، فإن بقاء المعتقدات رَهْن بمناسبتها لمزاج معتنقيها . وهذه المعتقدات تخضع في هدوء للتعديل والتشكيل حتى تناسب — لا المعرفة التي تتزايد كل يوم فحسب — ولكن الرغائب والآمال والأذواق والميول والمثل الأخلاقية للعصر والجماعة .

إذن فنحن أنىّ توجهنا انكشف لنا أن الدين — مثل السياسة والفن — يتوقف على عوامل نحن بها نصف شاعرين . وقد ألقت الدراسات الحديثة للعقل الباطن أنواراً كاشفة على هذه العوامل الغامضة وعلى كثير مما كان قبلُ غير مفهوم في الحياة والتجربة الدينية . ولأتناول الآن على سبيل التمثيل واحدة أو اثنتين من المسائل البارزة .

لعل أبرز مثل في العالم الحديث هو الارتداد الديني ، وأعني به الانقلاب المفاجىء في الحياة الشخصية لإنسان ما إلى اتجاه ديني جديد . وهو يتميز عادة باضطراب هائل في العقل — بثورة من الهياج الانفعالي ، ومن الحماسة الخلقية الشديدة والمعتقدات اللاهوتية القوية . هناك في بلدة (Basingstoke) كان يوجد رجل بلغ من استهتاره بالدين وبذاءة لسانه أن سماه الناس « توم

السفيه » . وقد حدث أن ورد هذه البلدة واعظ دينى جديد ، فدفع حب الاستطلاع « توم » إلى أن يدخل الكنيسة — ولم يكن قد دخلها منذ سبعة عشر عاماً . استمع « توم » للموعظة ، وقد جاء فى ختامها : « لو أن أكثر الناس عصياناً وتمرداً فى هذه الكنيسة جثا على ركبتيه وصلى لربه لبدل الله قلبه » . فقال « توم » لنفسه : « إنى لأكثر الناس عصياناً وتمرداً هنا » ! وجثا على ركبتيه وصلى . فما قام حتى كان قد خلق خلقاً جديداً وصار حتى موته يعرف بين الناس باسم « توم المصلى » . وإذا وجدت نفسك — أيها القارئ — ميالا إلى أن تضحك من « توم السكين » فاقرأ حيوات بنْيَن "Bunyan" وفوكس "Fox" ووزلى "Wesley" ، أو اقرأ تراجم طائفة « المثوديين » "Methodists" فى انجلترا الجديدة ، أو استمع إلى « كارليل » إذا وقف موقفه تجاه « لا الأبدية » وفى هذا يقول : « بينما كنت أفكر اندفع إلى نفسى فجأة إحساس كأنه تيار من النار ، ومنذ تلك الساعة بدأت أكون رجلا » . إن الكثيرين منا قد حضروا بعض اجتماعات الحركة الإحيائية (revivalists) ورأوا كيف ينفجر الشبان والفتيات يبكون ندماً وتوبة ، أو يضحكون ويصيحون سروراً وبهجة ، وكيف يأخذ السكيرون على أنفسهم العهد ، وكيف يخرج الأغنياء ما فى جيوبهم من نقود ، وكيف ينزع النساء حليهن ويقذفن بها فى طبق التبرعات . وكثيراً ما تبدأ جمهرة المتعبدين تغنى أو ترقص أو تهدر فى لسان غير معروف ، ثم تندفع لتحول بقية البلد تحويلا دينياً . ومثل هذه الفورات تحدث بين وقت وآخر ، فى كل قطر وفى كل شرعة تقريباً .

كيف نعلل لهذه الظواهر ؟ إن أول من درسوها من علماء النفس لاحظوا أمراً عجباً ؛ فقد قاموا باستقصاءات وملاحظات دقيقة فى جهات

كثيرة — معظمها فى أمريكا — استنتجوا منها أن التحول الدينى يحدث فى الغالب فى أوائل البلوغ . وأكثر ما يحدث عند الإناث بين سن الثالثة عشرة والسادسة عشرة ، وعند الذكور بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة ، وهذا هو الوقت الذى تنضج فيه غريزة الجنس نضجا مفاجئا ، (أو هكذا يقول علماء النفس) . أضف إلى ذلك أن الحادث الذى يشبه التحول الدينى شبها كبيرا هو الوقوع فى الحب ، ولا سيما الحب لأول نظرة ؛ وهذه فى الغالب تجربة من تجارب البلوغ . من كل هذه الحقائق استنتج الباحثون أن التحول الدينى نتيجة — ورد فعل معا — لانفعالات الحب الجنسى الجديدة التى تواجه الشاب أو الفتاة لأول مرة فى حياتهما .

ليس هناك من شك فى أن هذا عامل مهم أحيانا ؛ ولكنّ هناك على ما أظن تطابقا آخر بين أوائل النزعات الجنسية والتحولات الدينية فى عهد البلوغ . لقد بيّن لنا علماء التحليل النفسى أن بعض الميول الانفعالية قد تُكبت كبتا لا شعوريا ، ومع ذلك تظل تنمو تحت المستوى الشعورى للعقل . أفليس من الجائز أن يحصل مثل ذلك للميول الدينية ؟ لعل البذور كانت هناك طول الوقت تنبت وتنمو تحت غشاء الشعور . إنه لمن المعروف أن الوقوع فى الحب — رغم ما يبدو فى الظاهر — قلّما يحدث مفاجئا ، فالشباب فى خلواته المزاجية ، وفى أحلامه المطوية ، وفى شطحاته الخيالية يظل — دون قصد — يبنى صورة مثاله الكامل ؛ وعندما يَخْفق قلبه أخيرا بالحب ، إنما يحدث ذلك لأن شخصا محققا لأحلامه مطابقا لمثاله قد دخل دائرة حياته — فكان كمفتاح الشخص الغريب ناسب القفل القديم وفتحه فجاءة .

كذلك التحول الدينى يظهر أنه يُسبق دائما بمرحلة طويلة متجمعة

من الإفراخ الصامت . أعد — إذا شئت — قراءة تاريخ العظماء ممن تحولوا تحولاً دينيا تجد أنهم حتى فى أيام لهوهم واستهتارهم كانوا مشغولين بالدين ، وكانوا فى الغالب يحاربونه ؛ فالقديس « بولص » اضطهد المسيحيين ، و« توم المصلى » كان « توم اللعّان » ، ويحدثنا « بَنْيَنْ Bunyan » أنه كان حتى فى صباه يسخر ويشتم ، وأن كابوس الشيطان كان يزوره فى أحلام مزعجة . فالفحص الدقيق فى كل حالة يكشف أن الشخص المتحول لم يكن قبل تحوله غير عابئ بالدين كما يظن ، بل على العكس كان يحس بالدين إحساسا قويا . فإذا اعتبرنا التحول الدينى — إذن — هدفا لا يوصل إليه إلا التفكير الذهنى كانت فجائيته لغزا محيرا لعقولنا ؛ أما إذا اعتبرناه ظهورا مفاجئا لعقدة انفعالية ظلت تحت السطح أشهرا وسنين تقوى وتنمو ، فإنه يصبح أمرا مفهوما لنا .

ولكن التحول الدينى فى أيام البلوغ — على انتشاره — ليس النوع الوحيد المهم ، فإن بعض العظماء من الزعماء الدينيين — من أمثال «القديس بولص» و«القديس أوغسطين» و« تولستوى » — لم يتحولوا فى أيام حداثتهم ، بل فى عهود من حياتهم متأخرة نسبيا . وآثار التحول الدينى المبكر كثيرا ما تكون عارضة قصيرة الأمد . وهناك نوع أكثر طرافة من هذا يتنزل على شخص مؤمن متدين ، ويحوله إلى ما أسميه — لعدم وجود كلمة مناسبة — صوفيا mystic ؛ وأخص صفات المتصوف أنه ينشئ أو يكشف فى نفسه تجربة — تبدو لأول نظرة دينية خاصة — لا تحدث مرة واحدة ، ولكنها تحدث باستمرار خلال حياته ؛ تلك هى حالة عقلية معينة ، إذا لابسته لم يفكر فى الله فحسب ، ولكن يحس به ويدركه إدراكا قاطعا . وهذه الظاهرة خاصة غريبة ، تصادفها فى كثير من

الديانات المختلفة خلال العصور؛ وأوصافها تتشابه تشابها عجيبا، والكتّاب الدينيون أنفسهم يشيرون إلى هذه الأحوال باعتبارها أحوال صلاة. وإذن فلعل من الخير أن نستخدمها لنوضح مسألة ثانية مقارنة هي: سيكلوجية الصلاة.

الصلاة (prayer) كلمة يستعملها الكتاب الدينيون في معنى اصطلاحي واسع؛ فهي لا تعني مجرد دعاء لفظي، ولا مجرد تعبير عن الحمد والثناء، فتلك ليست إلا أمثلة محدودة من الحالة العقلية العامة، التي تفسرها كلمة «صلاة». أما الخاصة الحقيقية فهي إحساس بهيج من الإشراق الروحي. ولعل كلّنا — تقريبا — قد مرّ يوما ما بشيء من هذه التجربة؛ لعله مرّ بها عند ما رأى لأول مرة — وهو وحيد — شروق الشمس فوق قمة مجللة بالبَرَدَ، أو عند ما اشترك في صلاة دينية على ملك راحل. هذه التجربة تأتي للكثيرين في شكلٍ شخصيٍّ قوي، فيخيل إليهم أن الله — أو روحا لا جسد له — يتجلى لهم مباشرة، فيخاطبه الواحد منهم دون وساطة، ويحس أنه متحد معه، في جو من الغبطة لا يستطاع التعبير عنه.

ولقد لاحظ عالم النفس أن أحوالا من الوجد شبيهة بما تقدم تحدث لأشخاص يقعون تحت تأثير مخدرات الإحساس؛ وبعض المتعبدين يعمد إلى إثارة هذه الأحوال بتناول العقاقير كالحشيش والكحول والأفيون، وتوصف التجارب الناتجة من هذا بأنها «إلهامات تخديرية». والغريب في أمر هذه الإلهامات أن العقل إذ يعود إلى رشده لا يعدّها شيئا ذا قيمة. ولقد جرّب «وليم جيمس» هذه التجربة على نفسه بأوكسيد النيتروس — غاز طبيب الأسنان — وأملى وهو تحت تأثيره ما ظنه إذ ذاك خواطر من الاتحاد العجيب، هاك بعضا منها:

Good and evil reconciled in a laugh
What's mistake but a kind of take ?
What's nausea but a kind of ausea ? ...
Sober, drunk-all the same ! ...
It fades for ever and for ever as we move.

وربما كان أشهر مثال من هذا النوع ذلك الذى سجله « سيموندز » (John Addington Symonds) الشاعر الناقد المشهور فى القرن الماضى ، إذ يقول : « ما أعجبه من أمر ! أن أحس بهجة رؤية الله ، تلك الرؤية الطويلة غير المحدودة بالزمان — الرؤية التى يغمرها الحق والحب المطلق — ثم أجد بعد ذلك أنه لم يوح إلىّ ، وأننى إنما خُدعت بذلك التأثير غير العادى فى دماغى » .

وتحدث أحوال شبيهة بهذه فى الأزمات العصبية — أثناء الغيبوبات أو النوبات الهستيرية أو الصرعية . ولعلنا نذكر كيف يصف «دستويفسكى» Dostoievsky — فى قصة « الأبله » — خواطر الأمير المصروع ؛ لقد كان « دستويفسكى » نفسه مصابا بالصرع ، ولا شك فى أنه — فى قصته — يصف أحاسيسه الشخصية ، فهو يتكلم عن : «لحظة من الحس العميق تفيض بالوجد والإخلاص . . . لحظة من الانسجام والجمال فى أرقى درجاتهما . . . وإنى لأجود بحياتى كلها فى سبيل هذه اللحظة » . وهو يذكر كيف أن « محمدا » الذى يقال إنه كانت تغشاه حالات شبيهة بالصرع[١] — أكد أنه زار معارج الله كلها فى أقل مما يستغرقه إفراغ قدح من الماء .

---

(١) عند ما يتعرض العلماء الغربيون لبحث الأحاسيس والتجارب الدينية من وجهاتها الشخصية والنفسانية لا يفرقون بين أشخاص الأنبياء وغيرهم من مؤسسى الحركات الدينية وكبار دعاة الصفاء الروحى . على أن معظم هؤلاء الباحثين حريصون =

وتلاحظون أن كثيرين من هؤلاء الكتاب — من أمثال «سيموندز» يميلون — كما يميل كثير من علماء النفس — إلى القول بأن الرؤى التي يثيرها العقار أو المرض رؤى لا قيمة لها ، لهذا السبب . إن عالم النفس في صفته العلمية النفسانية لا شأن له بصدق التجربة أو قيمتها . ولكن يجب أن نحتاط من القول بأن هذه الرؤى لا بد أن تكون أوهاما أو خيالات خادعة ، فربما كان الدماغ قد هيء بالفطرة ليستجيب — لهذه المؤثرات الدقيقة التي تحيط بنا — في حالة واحدة فحسب ، وهي ما نسميه من وجهة نظر الحياة الدنيا ظرفا غير طبيعي . إن الدماغ الطبيعي قد نُشِّيء للمطالب العملية لحياة أرضية ، ولم يُنَشَّأ لتذوق الموسيقى أو الشعر أو التصوير أو القوانين الأساسية للوجود . وكما قلنا من قبل — في بحثنا للفن والتجربة الذوقية — إن الرجل العملي لا يرى إلا القيمة العملية فيما يحيط به من الأشياء ، وينسى أنها قد تحتوي في ذاتها ولنفسها قيما خفية عميقة .

وأنا شخصيا أفضل أن أشبه التجارب الدينية عند الصوفي — لا بالخيالات التي تحدث تحت تأثير الأفيون أو الغاز — ولكن بأحوال

= على أن ينبهوا أن دراسة هذه الظواهر شيء ، وبحث صدق رسالات الرسل وقيمتها الانسانية شيء آخر . وليس يلزم من تشابه بعض التجارب الدينية عند الأنبياء وغيرهم من المتدينين أن يكون الأنبياء كاذبين في دعواهم النبوة وفي تلقي الوحي من الله . وعلى هذا النحو يمكن أن نفهم تعبير الباحثين بالنوبات الصرعية عن الحالات التي كانت تعتاد بعض الأنبياء ، والتي يصف الرسول شيئاً منها في حديث البخاري : (عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله (ص) أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس — وهو أشده علي — فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا) .

(المعرب)

البصيرة الكشفية التى تحدث عنها الشعراء والفنانون كثيرا ، كما يقول وردزورث :

« تلك الحال الصافية الهانئة التى تخف فيها
أعباء هـذا العالم الثقيـــل والغازه .
والتى يكاد يتوقف فيها نفس هـذا الهيكل
الجسمى ، فننام وننفذ بعين بصيرتنا
إلى حياة الأشياء » .

إن المتصوفين الشرقيين يفضلون أن يستثيروا هذه الأحوال بأن يغمضوا أعينهم عن هذه الدنيا الدّنية وأشيائها الزهيدة ، وينظروا إلى داخل نفوسهم . أما مسيحيو القرون الوسطى فكانوا يستجلبونها بإخماد الجسم وتركيز الأفكار على رمز دينى . وكلتا الطائفتين كثيرا ما تُعِدان أنفسهما بالصوم واتخاذ مواقف جسمية خاصة ، والقيام بتمرينات تنفسية وتكرار كلمات من نوع خاص رتيب . ويفضل الشعراء المحدثون فى العالم الغربى — من أمثال «ورد زورث » و« كيتس » و«شيلى » و« بروننج» و«ريتشارد جفرز» — ولنكتف بهؤلاء، فهم أشهرهم — يفضلون أن ينظروا إلى الخارج ، وأن يجدوا غبطة منبعثة من وراء العالم الحسى يثيرها فى نفس الواحد منهم تأمله الطبيعة على انفراد ، أو تجارب الحياة والحب الإنسانى . وقد ذكر واحد أو اثنان منهم فى هذا طرقا عجيبة : فإن « تينسون » — مثلا — كان يستطيع أن يجلب على نفسه نوبة ذهول وغيبوبة ، بأن يكرر اسمه ، وبعد هذا — كما يقول — « تذوب فرديته فى الحال » ، والحالة التى توسطت بين هاتين «لم تكن مختلطة ، بل كانت أوضح الوضوح وآكد اليقين ، يبدو فيها الموت استحالة مضحكة ، ويصبح

انعدام الشخصية الحياة الصادقة الوحيدة » . وهو يشير إلى هذه الرؤى أكثر من مرة فى قصائده :

هذا ، وكم من هاجس خفىّ ،
يلمسنى بنوره الصوفى ،
كقبس من حُلم منسىّ ،
لا يجد القول له تعبيرا .

ومهما يكن فنحن نستطيع أن نتبين — بين الأحوال الصوفية للصلاة وأحوال مدمن المخدرات — فارقا عملياً واحداً ؛ فالأولى فى العادة مساعدة والثانيه ضارة ، « ومن قام من صلاته خيراً مما كان فقد استجيبت صلاته » ؛ والثمرة الرئيسية للصلاة — كما يؤكد المتعبدون أنفسهم — ليست فى أن الدعوة الخاصة قد حققت بمعجزة ، ولكن فى أن المصلى نفسه يحس عزاء وقوة بعد تجربته ؛ فالصلاة — ولو لم تنتج أثراً ماديا — قد تحدث تغييراً روحيا .

هنا معضلة أخرى لعالم النفس ، تلك هى تأثير الصلاة ؛ وهو فى العادة ميال إلى حلها على أساس ما يسميه الإيحاء ؛ والإيحاء كلمة يقصد بها أن الأفكار — ولا سيما الأفكار الانفعالية — تميل فى صورة آلية إلى أن تتحقق فى معتقدات وأعمال معينة ، بصرف النظر عما قد يكون هناك من إغراء أو برهان منطق . وأكثر ما يحدث الإيحاء فى تلك الحالات التى تكون وسطا بين النوم واليقظة . أدم النظر إلى نقطة من الضوء أو عُدَّ عداً آليا فمن واحد إلى الألف تجد أنك تستطيع أن تجلب نوعا من غيبوبة الحلم أشبه بحالة السِّنة التى تسبق ذهابك إلى النوم . ولعلك تلاحظ — وعقلك على هذه الحال — أن صورك العقلية تكاد تقرب من الأحلام فى واقعيتها .

وكثيراً ما يحدث أن تنقل إليك وأنت فى هـذه الحالة أفكار العلاج — وأفكار الخوف والخطر أحياناً — نقلا نافذاً . إن « كويه » (M. Coué) يطلب إلى مرضاه — فى هذه الحالات النائمة — أن يكرروا لأنفسهم تكراراً ميكانيكياً قولهم : « يوماً بعد يوم ، فى جميع النواحى ، صحتى آخذة فى التحسن » . ولشد ما يدهشون ويفرحون حين يستيقظون فى صباح اليوم التالى فيجدون صحتهم — فى كثير من الحالات — قد ردت إليهم .

وما التنويم المغناطيسى — وهو عمل معروف لرجال الطب فى كل مصر — إلا خطة منظمة لاستغلال هذه الحساسيات الإنسانية ، فليس فيه شىء مغناطيسى وليس فيه من الشعوذة أو السحر أكثر مما فى الحيل الخادعة التى يلجأ إليها صاحب الإعلانات . وكثير من الحالات الصوفية — كما عرفها مسيحيو القرون الوسطى ، أو كما يعرفها طوائف « اليوجى » فى الهند الحديثة — كثيرة الشبه فى أغراضها وفى طريقة إحداثها بهـذه الأحوال القريبة من التنويم المغناطيسى . ومن هنا نجد عالم النفس ميالا إلى أن يشرح التجارب الصوفية والأحوال التى تجاب فيها الصلاة على أساس من الإيحاء الذاتى .

هذا لا يلزم منه بالضرورة هدم صحة هذه التجارب أو نتائج الصلاة ، فلعل الله قدّر فى نظامه أن يستجيب عن طريق الوسائط الطبيعية لا الوسائط الخارجة عن دائرة الطبيعة . هذا إلى أنه مما يستطاع تصوره (ولا أقول من الراجح) أننا فى هذه الأحوال الغريبة من التغير نستطيع أن نلج باب ذخيرة كبيرة من النشاط العقلى لا نستطيع إليها وصولا فى الظروف العادية ولقد كانت هذه فكرة واحد من أشهر علماء النفس « وليم جيمس »

كان فرضا من هذا النوع ذلك الذى جرّ « جيمس » وكثيرين

غيره من الباحثين العلميين إلى الاهتمام بالبحوث الروحية . أما نتائج هذه البحوث فلعلها جاءت مقنعة لعلماء الطبيعة أكثر منها لعلماء النفس . حقيقة إن علماء النفس الآن مستعدون أن يقبلوا حقائق التنويم المغناطيسى والشخصية المتعددة . وقليلون منهم يميلون إلى قبول فكرة « التليباثى » (الاتصال النفسى الأثيرى) . ولكن أغلبيتهم إذا تطلبت الدليل على خلود الروح ، طلبته — لا فى ظواهر المذهب الروحى — بل فى الخطوات العقلية ، كما تدرس فى ظواهرها اليومية أو كما تحلل فى تجارب المعمل . وفى رأى إحدى المدارس المهمة أن كل هذه العمليات يمكن رَجْعها فى النهاية إلى حدود فنزيولوجية ؛ غير أن معظم علماء النفس — على الأقل فى بريطانيا — يحسون أنه حتى الحقائق التى تقررت من قبل لا يمكن قط أن تشرح شرحا كافيا على أساس الفعل الطبيعى أو الكيماوى أو وظائف الأعضاء . ولقد جهر واحد على الأقل من مشاهير معاصرينا بأن افتراض وجود نفس (soul) أو شىء مشابه لها يعطينا أحسن حل للمعضلة . ولعل الرأى الغالب فى أيامنا هذه هو الذى يميل إلى فصل الجسم من العقل كما تعودنا أن نفصلهما منذ أيام « ديكارت » . وعند أصحاب هذا الرأى أن الإنسان ليس مجرد جسد هامد ضمّ إليه طيف أو خيال أو روح ضمًا غير وثيق ؛ فربما كانت المادة أكثر روحية ، وربما كانت الروح أكثر مادية مما نظن نحن فى الغالب .

غير أن هذا كله ليس الآن إلا تأملات فكرية جذابة . وإن سيكلوجية الدين لم تصل — وليس من المحتمل أن تصل بنا — إلى نتيجة نهائية فى شأن ما وراء الستار الطبيعى . ومع ذلك فما لا شك فيه أن هناك بعض نتائج إيجابية قليلة قد برزت أمامنا : وأولى هذه النتائج على ما أرى أن بعض حقائق — ظل العلماء زمنا ينكرونها إنكارا تحكميا — أصبحت

مقبولة الآن ، وإن لم يكن ذلك القبول دائما حسب قيمتها الظاهرة . فكثير من العجائب التى أذاعتها لنا صفحات التاريخ من الرؤى والأشباح والأدوية المعجزة ، والمس الشيطانى ، وغيبوبة التنويم المغناطيسى وما إلى ذلك مما كان يرفض فى الزمان القديم باعتباره غير جدير بالبحث — أصبحنا نعرف الآن أن لها أساسا من الحق ، وإن كان هذا الحق كثيرا ما أسىء فهمه . إن الرحالة ليعود من رحلته فى «الهند» أو «سيبريا» وجعبته حافلة بقصص وأعاجيب رآها ، ولقد يدهشه أن يسمع أن أضعاف هذه القصص والأعاجيب يمكن أن تحدث فى جلسة روحية فى « لندن » أو « نيويورك » . وقد يملأ نفس الروحى العجب من ظواهر الجلسة الروحية ، ولكنه يدهش إذ يعلم أن هذه الظواهر مألوفة عند رجال الطب والمشعوذين ورجال الدين منذ عصر ما قبل التاريخ . فكم من هذا يقوم على الوهم ؟ وكم فيه يعتمد على حقائق لم تفهم بعد ؟ هذا سؤال لا يستطيع العلم بعد أن يجيب عنه .

ثانيا — نستطيع أن نقول : إن خصائص الحيـاة الدينية لم تعد تبدو بعيدة كل البعد عن خصائص نشاطنا العقلى العادى ، إذا دققنا النظر فيه . وإذا كانت الظواهر الروحية قد شرحت أحيانا شرحا ماديا ، فإن الظواهر المألوفة فى وجودنا اليومى الآن تتطلب شرحا روحيا .

ثالثا — (وربما كانت هذه النقطة هى أحفل النقط بالمغزى والدلالة) — إن دراستنا تتجه إلى البرهنة على وحدة الشعور الدينى ؛ فعند الهمجى والمتمدن ، وعند الإغريق القديم أو المسيحى المحدث ، وعند المسلم والبوذى والمتصوف الإشراقى Theosphist — عند كل هؤلاء نجد انفعالات متشابهة وتجارب متشابهة لا ينقطع عملها . وقد تتعدد المذاهب والأساطير

الدينية ، ولـكن الدين واحد . وهو — كسائر منتجات العقـل الواعى — يترقى ويتطور ، وقد تتغير مذاهبه فى مادتها أو درجة يقينها ، وقد تبـدّل شعائره أثوابها الظاهرة ، ولـكن تعابيره فى أحسن صورها تتضمن أرق أفـكار الإنسان وأحاسيسه عمـا يحيط به من ألغاز الوجود ، وتبين أسمى موقف له نحو معضلات الفناء . وإذن فمهما يكن رأى عالم النفس فى التفاصيل فإنه مضطر أن يعترف أن الدين — رغم كثرة ارتباطه بالحركات الرجعية — من أكثر العوامل الاجتماعية بقـاء ، ومن أقوى الوسائل الفعالة للسمو بحياة الفرد وحياة النوع البشرى .

